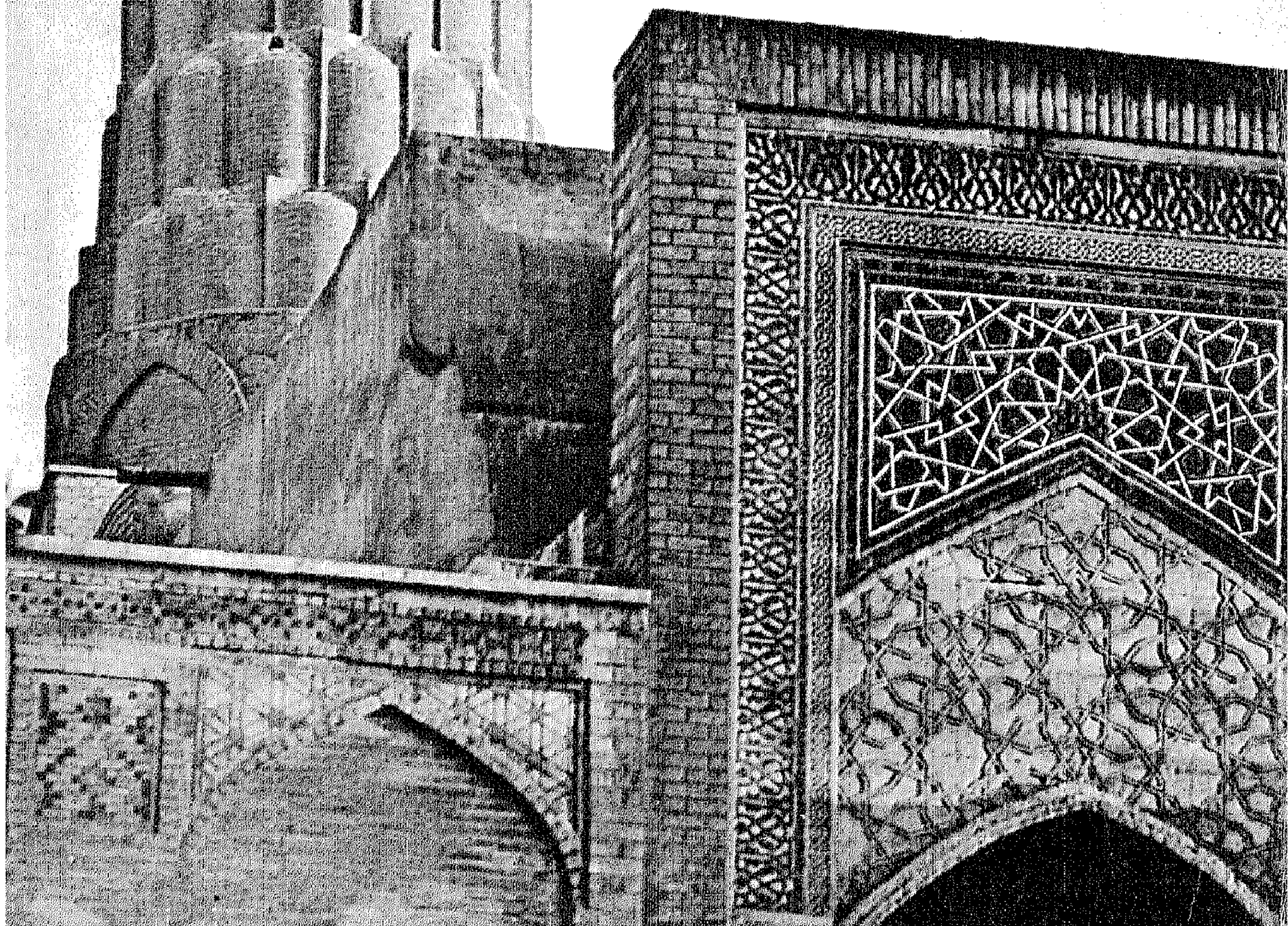
تاريخ العرب والعالم

السنة الرابعة • العدد الأربعون • شباط (فبراير) ١٩٨٢ م • الموافق ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ

جامع السهروردي - بغداد - ١٢٣٤ م



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

تاريخ العرب والعالم

العدد الأربعون • شباط ١٩٨٢ م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : د. **أنيس صايغ** المدير المسؤول : **محمد مشموشي**

أمين التحرير : **د. محمد أمين فرشوخ**

قسم التوثيق والابحاث : **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

المخرج الفني : **سالم زين العابدين**

الانتاج: **مطبعة المتوسط: ش.م.ل.**

التوزيع: **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.**

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.	تونس : ١ دينار
العراق : ٨٠٠ فلس	الكويت : ٧٠٠ فلس
السعودية : ٨ ريال	الامارات: ٨ درهم
الاردن : ٥٠٠ فلس	قطر : ٨ ريال
البحرين : ٨٠٠ فلس	عدن : ٨ شلنات
مسقط : ٨٠٠ بيزة	المغرب : ٦ درهم
فرنسا : ١٠ فرنكات	بريطانيا : جنيه استرليني
سوريا : ٦ ل.س.	اميركا : ٣ دولارات

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية ابو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 4. No. 40, FEB. 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



صيانة المدن العربية الإسلامية

د. شوقي شعث



سوق الخياطين في طرابلس القديمة حافظ على طابعه

٣ - تاريخ العرب والعالم

البحث في صيانة المدن العربية الاسلامية في المرحلة الراهنة ليس بالأمر الهين رغم تشابه عناصر وجودها، نظراً للوحدة الجغرافية والتاريخية والبشرية والعقائدية التي كانت قائمة فيما بينها في فترات طويلة من فترات التاريخ، وعليه فالحديث عن مدينة كمدينة حلب أو دمشق أو فاس أو بغداد أو القاهرة، يبقى في خطوطه العريضة، واحداً وكثير الشبه، وبالرغم من هذا التشابه، فالبحث في موضوع صيانتها يبقى صعباً، لأنها أبحاث حديثة الوجود في العالم العربي.



إن مصادر دراسة صيانة المدن العربية الاسلامية لازالت غير متوفرة كما يجب، ومما يزيد الأمر صعوبة أن هناك كثيراً من المدن العربية الاسلامية لا زالت مجهولة تماماً بالنسبة لكثير من الباحثين نظراً للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمر بها المنطقة العربية ككل، هذا الواقع يجب أن لا يثبطنا عن التصميم، بل يجب أن يكون الدافع الحافز لنا للبدء فوراً ودون تردد في دراسة المدن العربية الاسلامية، والعمل على حمايتها، لأنها الشاهد الحي على الشكل الحضاري لحضارة عربية اسلامية ذات مستوى فني رفيع مزجت بين الفن التقني والجمال المعماري والعمراني، بحيث استجابت في نفس الوقت للحاجات النفسية والمادية والروحية لسكانها. فالعمارة الاسلامية أو ــ ما بقي منها ــ هي الشاهد الأكثر شمولاً ودقة عن الحياة المادية والمعنوية لفترة تاريخية طويلة، واذا أخذنا كمثال لهذه العمارة مدينة صنعاء في الجمهورية العربية اليمنية أو سبؤون أو شبام في جمهورية اليمن الديمقراطية نجدها نموذجاً معمارياً فريداً لم يزل في حالته البكر قلّ أن نجد مثله في أي مكان آخر على مثل هذه الدرجة العالية من الكمال المعماري وان الأهمية التاريخية والدينية والفنية والمعمارية التي تنفرد بها كثير من المدن العربية الاسلامية كصنعاء ودمشق وحلب ومكة والمدينة المنورة والقدس والاحياء القديمة في فارس ومراكش والجزائر وتونس والقاهرة ومسقط ودبي والمنامة وغزة وغيرها الكثير، تستحق أن تعتبر مساوية لمدن مثل البندقية أو فلورنسا في النظر اليها كجزء من التراث الثقافي المعماري العالمي. ولكن ــ أقولها للأسف ــ ان هذه المدن ومثلها في ذلك الكثير تتعرض للتشويه والتدمير، بقصد أو بدون قصد، والسلطات المسؤولة تقف متفرجة في كثير من الأحيان كأن الأمر لا يعنيها وان التمسنا العذر للبعض، فإن خطأ فادحاً يرتكبه البعض الآخر في حق تراثها الوطني وتراثها العربي وبالتالي التراث العالمي ككل. ان كثيراً من الأمم تفتش عن بقايا جدار أو كسرة من الفخار في محاولة لأن تجد لها اسهاماً ولو قليلاً جداً في الحضارة العالمية لتتمكن من تحديد هويتها الوطنية أما الأمة العربية التي تصل جذورها الى أعماق التاريخ وشواهدها الحضارية لا تغيب عنها الشمس، فهي تقلع تلك الجذور وتدمر تلك الشواهد بأيديها، وأملنا أن لا يمر وقت طويل ــ وهذا مصدر تفاؤلنا ــ حتى تعرف هذه الأمة أنها خربت الكثير وستجد نفسها مضطرة لتحافظ على القليل المتبقي، ومن المطمئن حقاً أن الأصوات بدأت ترتفع في البلدان العربية بعد أن بدأت تعي معنى المحافظة على المراكز الحضارية (المدن القديمة أو الأحياء القديمة) سواء كان ذلك مصدر الوعي، الادراك العميق لمغزى صيانة تلك المدن أو الأحياء القديمة أو كان من باب التقليد للبلدان الأوروبية، فان على القلة من أبناء البلاد التي تدرك معنى ذلك أن تستغل ذلك لتحوله كلياً الى صالح الحماية الحقيقية للمدن القديمة سيما بعد أن زار عدد من الخبراء الذين أوفدتهم المنظمة الدولية للعلوم والتربية والثقافة (اليونسكو) إلى عدة بلدان

■ د. شوقي شعث
خبير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/الجامعة العربية/ في قضايا التراث

عربية بناء على دعوة حكوماتها لتقديم الخبرة لتلك البلدان في مضمار صيانة المدن العربية الاسلامية، فقد زار خبراء اليونسكو سوريا، العراق، اليمن الشمالي، تونس، الجزائر، البحرين، المغرب، لبنان، الامارات العربية المتحدة وغيرها وقدموا تقارير فنية عن تلك الزيارات كما أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أدركت أهمية هذا الموضوع وأصدرت عدة توصيات من أهمها التوصية التي صدرت عن المؤتمر العام الذي عقد في الخرطوم في شهر يوليو (تموز) عام ١٩٧٨ التي تتضمن القيام بحملة عربية لانقاذ المدن العربية الاسلامية مثل القيروان وفاس وغيرها من المدن العربية الاسلامية، وقد افتتح المدير العام للمنظمة العربية حملة عقدت في تونس في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩. كما أن اللجنة الدائمة للآثار والمتاحف في البلاد العربية بدورتها الأخيرة التي عقدت في شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٧٨ في بنيغازي في الجماهيرية الليبية أوصت فيما يتعلق بمدينة القيروان بما يلي:

(أ) ضرورة أن تقوم المنظمة العربية بتنظيم لقاء عربي علمي مع عدد من المختصين بالاشتراك مع المعهد القومي للآثار والفنون في تونس وذلك في المدة من ٢١ الى ٢٣ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٧٩ أي قبيل انعقاد المجلس التنفيذي للمنظمة في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٧٩ وذلك للوقوف على الأعمال الجارية في هذه المدينة من قبل الحكومة التونسية وتدارس ما يستلزمه استكمال هذه الأعمال ومدى مايمكن أن يسهم به المجهود القومي فيها مادياً ومعنوياً وعلمياً على مستوى المنظمة والدول الأعضاء.

(ب) ان تنطلق الحملة بزيارة يقوم بها المدير العام للمنظمة مع أعضاء المجلس التنفيذي الى القيروان لتفقد الأعمال الجارية بها والوقوف على معالمها الأثرية وفي مناسبة هذه الزيارة يوجّه المدير العام للمنظمة نداء قومياً الى الأمة العربية للمساهمة على المستوى الرسمي ومستوى الهيئات المعنية والأفراد المعنيين مادياً ومعنوياً من أجل انقاذ المشروع الكبير الذي بدأته الحكومة التونسية لانقاذ مدينة القيروان. وفيما نعلم أن المنظمة العربية أخذت بتلك التوصيات ودعت الى اجتماع لجنة الخبراء كما أن السيد المدير العام للمنظمة قد افتتح الحملة العربية المشار اليها أعلاه لانقاذ مدينة القيروان.

هذا على المستوى الدولي والعربي، أما ما قامت به الدول العربية على المستوى الاقليمي فإن هناك خطوات مشجعة تمت في هذا المضمار في بعض الدول العربية كقيام المجالس العليا للآثار، اصدار التشريعات اللازمة لحماية المدن التاريخية، القيام ببعض الدراسات التاريخية والأثرية والمعمارية، تأسيس دوائر خاصة لحماية المدن القديمة (دائرة مدينة دمشق القديمة)، لكن تلك المدن تظل مهددة إلّا اذا توفرت أسباب تدعم تلك التشريعات. وفيما يلي سنعرض الأسباب التي تتهدد المدن العربية الاسلامية ووسائل معالجتها في حدود ما توفر بين أيدينا من معلومات ومراجع.

ان أهم الأخطار التي تتعرض لها المباني التاريخية والمدن القديمة في البلاد العربية بوجه الاجمال يمكن أن تكون ما يلي:

١ ـ الأخطار التي تتسبب عن قوى الطبيعة:

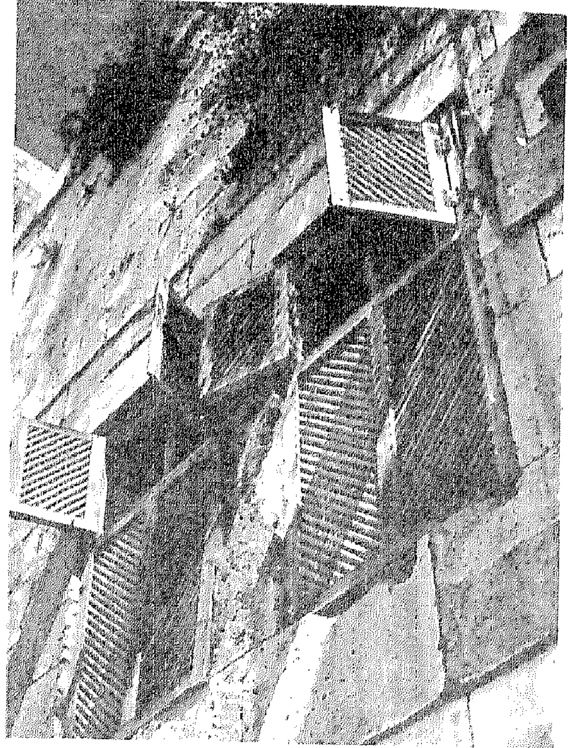
ـ الزلازل والصواعق.
ـ الأمطار والسيول.
ـ التقلبات الجوية كالحرارة والرياح والرطوبة.
ـ النباتات.

٢ ـ الأخطار الناتجة عن فعل الانسان:

ـ الحرائق.
ـ الحروب.
ـ أعمال الهدم والتخريب والاهمال.

وهناك أخطار استجدت وهي أهم في نظري من الأخطار الأولى لأنها تعرض البيئة العمرانية والمعمارية للمدينة القديمة للتخريب وبالتالي تخلق مشاكل معقدة يصعب حلها دون بذل الكثير من الجهود، ومن أهمها:

١ ـ التطور الاقتصادي المفاجيء في البلدان النامية ومنها البلاد العربية مما خلق مشاكل كثيرة منها نمو المدن الكبيرة على حساب المدن الصغيرة


الجدار القديم والمشربيات

مما سبب هجرة كثير من سكان الريف والمدن والقرى الصغيرة طلباً للعمل وغالباً مايكون القادمون الجدد من الطبقة الفقيرة لذلك يلجأون الى السكن في المدينة القديمة أو في المباني التاريخية المهجورة ويلجأ هؤلاء الى ادخال بعض المباني الطفيلية لاستعمالهم الخاص كالمطابخ والمراحيض أو تشويه الجدار بالدهان أو بالبياض أو بتقسيم الغرفة الواحدة الى عدة غرف وقد يسبب هذا:

١ ــ هجر المراكز الحضرية الصغيرة وبالتالي خرابها ونمو المدن الكبيرة على حساب المدن والقرى الصغيرة.

٢ ــ زيادة كثافة السكان في المدينة القديمة أو الحي القديم في المدينة التي وفدوا اليها ورافق ذلك تغيير في البيئة الاجتماعية للمدينة القديمة وتغيير في مخططات المساكن وتغيير معالمها.

٣ ــ التحديث أي ادخال مواد البناء الحديثة كالاسمنت والقرميد نظراً لرخصه وسهولة الحصول عليه ونرى الأبنية المجردة من الذوق المعماري والجمال الفني قد قامت في المدينة القديمة مخربة بذلك البيئة العمرانية للمدينة القديمة ومدمرة التناسق والمنطق العمراني العربي الاسلامي.

٤ ــ ميل القائمين على حماية المدينة القديمة في أول الأمر الى حماية المباني التاريخية بصورة منفردة دون الاهتمام بمحيطها وقد سبب هذا تخريب كثير من الشوارع والأزقة والحارات الخ..

٥ ــ الفقر وعدم الوعي الثقافي.

ان بلادنا العربية لا زالت بلاداً ذات اقتصاد زراعي في أغلبها، ولا يزال القسم الأعظم من سكانها فقراء ليس لديهم الامكانية المادية لصيانة وترميم بيوتهم، فيلجأون الى أبسط الطرق التي تكفل استمرار عيشهم في المباني التاريخية وبأسهل الطرق، هذا اذا تذكرنا أن كثيراً منهم لا يدفع أجراً أو ضريبة لقاء سكنه في البناء التاريخي. بالاضافة الى أن نقص الوعي الثقافي، كان ولا يزال، مبعث الاهمال والعبث بالقيم الحضارية.

٦ ــ عدم وجود تعاون بين السلطات الأثرية والبلديات المسؤولة عن التخطيط في المدينة، مما سبب تخريب الكثير من الشوارع والحارات والمباني التاريخية. لقد سيطر على المهندسين المسؤولين عن التخطيط في البلديات الوهم المتجسد في سيطرة مفهوم العمارة الحديثة، فنظروا الى القديم على انه عنوان التخلف لذلك لم يتورعوا عن شق الطرق في الأحياء القديمة وهدم المباني التاريخية وتخريب البيئة التاريخية والاجتماعية للمدينة القديمة. في بعض البلدان العربية ومنها سوريا أوجب قانون الاثار هذا التعاون حيث فرض على البلديات عرض مخططاتها التنظيمية على المديرية العامة للآثار والمتاحف لدراستها واعطاء رأيها فيها.

وفيما يتعلق بمعالجة هذه الأخطار التي تهدد المدينة القديمة الاسلامية في البلاد العربية، يجب أن لا يغرب عن البال أن صيانة شخصية المدينة الاسلامية أكثر تعقيداً من صيانة المبنى التاريخي بشكل افرادي، فصيانة المدينة القديمة تبرز كثيراً من المشاكل الفرعية وان كانت تخضع لنفس الشروط المطبقة في حالة حماية المبنى التاريخي المنفرد، ان الجو المتميز



مدينة صيدا القديمة

للمدينة القديمة وعناصرها الفنية والجمالية وطرازها المعماري وتخطيطها العمراني يجب أن يصان مهما بلغت التكاليف وعليه يمكن اقتراح الأمور التالية:

١ ـ دراسة المدينة القديمة دراسة اقتصادية واجتماعية وتاريخية وفنية للوقوف على فعاليتها الاقتصادية وكثافة سكانها وعلائقهم الاجتماعية، هذا الى جانب الأهمية التاريخية والفنية لمنشآتها، ولا بد في سياق تلك الدراسة من التعرف على الملامح الخاصة المميزة لها ليس كتركيب منفرد لمبانيها الأثرية فحسب بل كمحيط عمراني كامل وعليه يجب أن تنصب الدراسة وجمع المعلومات على مكونات المدينة ككل والعلاقة فيما بينها، يمكن بعدها افراغ المعلومات التي جمعت في مخططات توضح:

(أ) الأهمية الأثرية للمدينة القديمة وتشمل المباني التاريخية وتاريخها والعناصر الفنية المهمة وتاريخها التي يتفق على أهميتها الزائر والمواطن على حد سواء كذلك يجب أن يبين على هذا المخطط الساحات العامة ونقاط الاتصال.

(ب) الأهمية البيئية للمدينة القديمة وتشمل العناصر المرئية التي لها علاقة بالتاريخ المحلي والتقاليد والتطور الاجتماعي.

(ج) المناطق الخضراء المستعملة والحدائق: مثل المناطق الخضراء المزروعة بالأشجار، المناطق الخضراء المخصصة لاستعمال الجمهور، الأرصفة المصنوعة من الرقائق الحجرية، الأرصفة المكونة من الحصى، المناطق غير المزروعة، المناطق المعبدة بالأسفلت، أعمدة الكهرباء والهاتف واشارات المرور.

(د) الأشياء غير المرئية مثل المجاري العامة وشبكات الماء والكهرباء والقنوات والأنفاق الخ.

وتصنيف هذه المعلومات تصنيفاً علمياً دقيقاً.

٢ ـ دراسة الوضع العقاري للمدينة القديمة للوقوف على أشكال العقارات القديمة والتطورات التي طرأت عليها وصفة المالكين والشاغلين وعددهم وجنسهم وديانتهم وأوضاعهم الاقتصادية.

٣ ــ على ضوء ما سبق يجري اعداد التشريعات اللازمة واصدارها ووضع نظام ضابط للبناء للتمكن من حماية المدينة القديمة على أن يرافق ذلك حوافز للسكان كالاعفاء من الضرائب، اعطاء معونات مادية أو مشاركتهم في الصيانة مادياً تشجيعاً لهم على البقاء في المدينة القديمة وصيانتها.

٤ ــ على ضوء الدراسة السابقة أيضاً يتقرر ما يجب المحافظة عليه من أجزاء المدينة القديمة وما يجب أن يزال وعندها يتقرر وضع خطة للمواصلات (عدم السماح للسيارات الخاصة بدخول المدينة القديمة ويمكن السماح لباصات النقل العام فقط). في حالة تقرير ازالة بعض القطاعات من المدينة القديمة يجب أن تعاد في حالة التفكير في اعادة بنائها متجانسة مع أبنية المدينة القديمة من حيث المواد والواجهات والارتفاعات.

٥ ــ استهلاك ما يمكن استهلاكه من العقارات التاريخية وصيانتها وتحويلها الى مراكز ثقافية أو مكتبات عامة أو متحف أو في وظائف مماثلة.

٦ ــ لضمان استمرار الحياة في المدينة القديمة وهذا أمر حيوي جداً حتى لا تتحول الى منطقة مهجورة يجب ربط المدينة القديمة بالحياة الحديثة للمناطق المحيطة بها بحيث يوجد تداخل وتناسق وظيفي بينهما، كما يجب ربطها بطرق المواصلات الضرورية على أن تخصص الطرق القديمة الضيقة للمشاة ولباصات النقل العام.

٧ ــ اشتراك سكان المدينة القديمة في وضع الخطط الصيانية وخطط الحماية لمدينتهم مع السلطات الأثرية والسلطات البلدية كي يشعروا بأنهم يتحملون مع الأجهزة الرسمية مسؤولية حماية المدينة القديمة أو الحي القديم، ومن المفيد هنا تشجيع السياحة الى المدينة القديمة دون المساس بها كي يشعر سكانها بأنهم يستفيدون مادياً من الدخول السياحية، كذلك يجب أن يشعروا أن ممتلكاتهم الثقافية جديرة بالصيانة والحماية لأنها جزء من التراث العالمي، وحفظها ضروري للانسانية والتضحية من قبلهم ضرورية، كذلك يجب أن يعلموا أن العناصر المكلفة بمراقبة وحماية وصيانة المدينة القديمة انما يقومون بعملهم في نطاق الخدمة العامة.

٨ ــ اجراء تنقيبات أثرية في مناطق مختارة من المدينة القديمة للتعرّف على الطبقات السكنية فيها منذ أقدم العصور وبالتالي أدراك الأهمية التاريخية للمباني القائمة.

٩ ــ اعداد جهاز خاص للمدينة القديمة (دائرة) ليقوم على مراقبتها ووقف التعديات عليها ويقوم بالدراسات المنوّه عنها أعلاه، ومن المفيد أن يضم هذا الجهاز أثريين ومؤرخين ومعماريين وعمرانيين وباحثين اجتماعيين واقتصاديين ان أمكن ذلك، ويقوم كذلك باعداد جداول وفهارس لتصنيف المنطقة والمباني المراد حفظها في سجلات حماية الممتلكات الثقافية.

١٠ ــ عقد ندوة علمية خاصة بالمدينة العربية الاسلامية باشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنوياً وبالتناوب بين المدن العربية الاسلامية الهامة، تناقش فيها مشاكل صيانة المدينة الاسلامية توطئة لتوحيد منهج الصيانة في العالم العربي، يمكن أن يدعى لهذه الندوة بالاضافة الى الدول العربية اليونسكو، منظمة المدن العربية، المركز الدولي لصيانة الممتلكات الثقافية بروما، المركز الاقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية في البلاد العربية ببغداد.

١١ ــ أحداث دورة تدريبية خاصة في حماية المدن العربية الاسلامية في المركز الاقليمي ببغداد تخصص للمهندسين والأثريين المشرفين على صيانة المدن الاسلامية، يمكن الاستعانة بالخبراء العرب والأجانب في هذا المجال.

١٢ ــ اعطاء اعتبار خاص لمدينة القدس العربية بمباشرة اتصالات دولية وعالمية للعمل على صيانتها ووقف تخريبها.

١٣ ــ اعطاء مزيد من الاهتمام لدراسة مواد البناء في المدينة القديمة مثل الحجر، الطوب، الخشب، الزجاج، المعادن، الرسوم الجدارية وغيرها. على اعتبار أنها مكونات أساسية. في رأينا أن هذه الأمور اذا طبقت تطبيقاً جاداً يمكن بها صيانة المدن العربية صيانة جيدة.

أمثلة من البلدان العربية:

سنعرض فيما يلي لبعض الأمثلة من البلدان العربية التي وصلتنا منها معلومات حول بعض المدن القديمة أو الأحياء التاريخية فيها.

أولاً ـــ دمشق:

مدينة دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية اليوم وتعتبر من أقدم المدن العربية الاسلامية التي حافظت على ديمومة الحياة فيها حتى الآن، لعبت دوراً بارزاً في التاريخ الاسلامي في العهود الأموية يوم كانت عاصمة لأكبر امبراطورية عربية اسلامية، وفي العهود الاسلامية التي تلتها خاصة العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية، هي مدينة غنية جداً بالآثار الاسلامية كالجامع الأموي وقبر صلاح الدين الأيوبي، والأسواق والأبراج والقلعة والمدارس والجوامع والمساجد والتكايا من مختلف العهود الاسلامية، ازاء هذا قامت السلطات الأثرية منذ زمن بحماية المباني الأثرية الاسلامية فيها بالترميم والتسجيل والمراقبة. وفي الآونة الأخيرة بدأت السلطات تعي ضرورة حماية تلك المباني في اطار البيئة العمرانية لها، وبعد دراسة أولوية قامت باتخاذ التدابير التالية:

(أ) أصدرت القرار الوزاري رقم ١٩٢/أ لعام ١٩٧٦ اعتبرت بموجبه مدينة دمشق القديمة الواقعة داخل الأسواق منطقة أثرية لا يجوز البناء والترميم فيها الا ضمن شروط تحددها السلطات الأثرية.

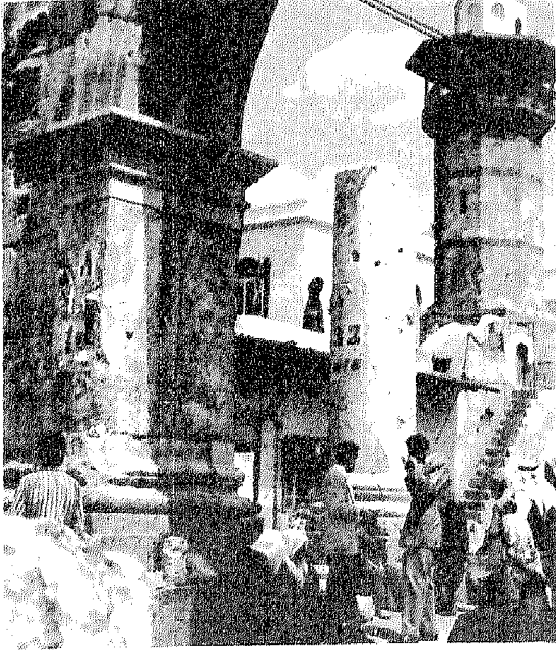
(ب) أحدثت دائرة خاصة بالمدينة أنيط بها:

١ ـــ مراقبة المباني الأثرية المسجلة وقمع مخالفات البناء والترميم المحدث الواقع على هذه الأبنية والمناطق الأثرية.

٢ ـــ القيام بجمع كافة المعلومات التاريخية عن المدينة القديمة.

٣ ـــ القيام باستملاك الأبنية الأثرية المهددة بالخطر والعمل على ترميمها واعادة توظيفها في أغراضها الأصلية أو أغراض تتلاءم مع الأغراض الأصلية.

٤ ـــ القيام بدراسة ميدانية لكافة النواحي



دمشق

العمرانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في عدد من أحياء مدينة دمشق القديمة مثل حي اليهود القيمرية، عمارة جوانية، باب توما، وتصنيف دورها حسب الأهمية.

تهدف المديرية العامة للآثار والمتحف في الجمهورية العربية السورية من وراء ذلك الى تحقيق الأغراض التالية:

١ ـــ الحفاظ على التركيب العمراني للمدينة القديمة.

٢ ـــ الحد من الكثافة السكانية وذلك:

(أ) نقل تجارة الجملة الى خارج حدود المدينة القديمة.

(ب) نقل الحرف والصناعات الخطرة المتمركزة في الأحياء والبيوت القديمة الى خارج حدود المدينة القديمة.

٣ ـــ الحد من حركة السير في أزقة وأسواق المدينة القديمة.

٤ ـــ تأمين الخدمات الضرورية الهامة للمدينة القديمة.

٥ ـــ تشجيع السكن والاستثمار السياحي في المدينة القديمة كترميم خان أسعد باشا وتحويله الى فندق سياحي. وترميم حمام نور الدين في سوق الزورية والوصول الى هذه الأغراض:

(أ) طلبت الجمهورية العربية السورية من اليونسكو تقديم الخبرة اللازمة في هذا المجال فأوفدت أحد الخبراء الذي قام بزيارة سريعة للمدينة ووضع تقريراً حول وضع مدينة دمشق القديمة الراهن.

«التقرير في قائمة «مراجع البحث». كذلك شكلت لجنة دولية في بداية العام جعل من مهامها القيام بدراسة كاملة للمدينة القديمة ووضع الخطط والمقترحات اللازمة للقيام بصيانة وتنظيم المدينة وذلك بالتعاون مع الخبراء العرب والسوريين.

(ب) الاستمرار في خططها السابقة في ترميم المباني الأثرية داخل المدينة القديمة.

مما سبق يتبين لنا أن السلطات الأثرية في الجمهورية السورية قد وعت أهمية حماية المدينة القديمة بدمشق وبدأت فعلاً باتخاذ الاجراءات اللازمة أملاً في الوصول الى وسائل ناجعة لصيانة عاصمتها.

ثانياً ـ مدينة القدس:

القدس عاصمة فلسطين وهي المدينة المقدسة لدى الديانات السماوية الثلاث ترزح الآن تحت الاحتلال الصهيوني وهي كذلك تعاني نوعاً آخر من المشاكل تختلف كلياً عن تلك التي تعانيها المدن العربية الاسلامية الأخرى فالعدو الصهيوني يهدف من مخطط وضعه لتنفيذه تدريجياً أن لا يرى أي أثر اسلامي أو مسيحي وأن لا يرى أي نمط عمراني يمكن أن ينسب الى شعب آخر من الشعوب غير الشعب اليهودي، وعليه فقد عمدت سلطات الاحتلال الصهيوني الى الاجراءات التالية في مدينة القدس:

١ ـ ضم مدينة القدس «القدس القديمة» الى القدس الجديدة، وبذلك أصبحت تحت رحمة المجلس البلدي الصهيوني.

٢ ـ عمدت الى تغيير المعالم التاريخية القديمة والمعالم العمرانية في المدينة المقدسة وذلك بحجة أن كثيراً من مباني الحارات القديمة فيها قد تصدعت بسبب القصف أثناء الحرب الأخيرة، (عام ١٩٧٦)، والواقع أنها أزالتها لاقامة المباني السكنية الجديدة لاستيعاب السكان اليهود من القادمين الجدد. من تلك الحارات التي أزيلت حارة المغاربة.

٣ ـ عمدت الى تغيير البيئة الجغرافية والتاريخية للمدينة القديمة وذلك باحاطتها بأبنية نمطية طابقية لأغراض دفاعية وتوطئة لتهديد المدينة.

٤ ـ كذلك عمدت الى شق الطرق الواسعة ضمن المدينة القديمة عندما فشلت في السيطرة على المناضلين العرب الفلسطينيين (الفدائيين) بدعوة المحافظة على الأمن داخل المدينة القديمة.

٥ ـ تركت المباني التاريخية بالمدينة كالمدارس والخانات والجوامع دون ترميم أو صيانة حتى تتصدع وتسقط.

٦ ـ شجعت بعض الأشخاص على حرق محراب المسجد الأقصى في القدس هادفة من وراء ذلك حرق المسجد الأقصى وبالتالي تدميره حتى يزال مع الزمن الدعم الاسلامي للشعب العربي الفلسطيني في مطالبته للقدس العربية. لكن يقظة أبناء الشعب الفلسطيني هناك فوتت عليهم الفرصة.

٧ ـ قامت باجراء الحفريات الأثرية مما سبب تصدع جدران المباني التاريخية الملاصقة للحائط الغربي للمسجد الأقصى مثل انهيار ساحة وقوس رباط الكرد وانهيار المدرسة العثمانية.

٨ ـ اجلاء السكان العرب من عقاراتهم المبنية بالقوة توطئة لهدم بيوتهم وبذلك يتحقق الهدف في تخريب المدينة التاريخية في القدس الشريف. ومن الجدير بالذكر هنا أن السلطات الصهيونية خربت وتركت كثيراً من المدن التاريخية والأحياء القديمة بالمدن الفلسطينية لتخرب ولم تسمح بالسكن فيها. خاصة تلك التي احتلت عام ١٩٤٨ مثل مدينة يافا لتجد المبرر في ازالتها مع الزمن، ولكن أبناء الشعب العربي الفلسطيني هناك وعووا هذه الحقيقة خاصة في الضفة والقطاع ويحاولون ترميم مبانيهم التاريخية قدر استطاعتهم عن طريق الجمعيات الخيرية أو عن طريق جمع التبرعات لهذا الغرض من الداخل والخارج.



زقاق في القدس القديمة

ثالثاً ــ مدينة صنعاء:

مدينة صنعاء عاصمة الجمهورية العربية اليمنية فريدة في جمالها المعماري اذ يمكن اعتبارها نموذجاً فريداً في عالم التراث الثقافي العربي الاسلامي، هي وحدة قائمة بذاتها نظراً لتجانس بنائها ونوعيته العالية ونوعية تخطيطها واستمرارها في حالة تقرب من حالتها الأولى، فالمدينة القديمة أثبتت نجاحها كمدينة حية، فهي ليست مدينة أثرية للزيارة والاعجاب فقط بل يسكنها اليوم حوالي أربعون ألف نسمة أي حوالي ٣٠٪ من سكان مدينة صنعاء الاجمالي ومع أن المدينة القديمة في صنعاء أثبتت قدرتها حتى الآن على مقاومة التحديث المرتقب في المستقبل.

لا يعرف بالضبط متى تأسست مدينة صنعاء لأول مرة وان كان التقليد السائد بأن سام بن نوح هو الذي أسسها ولكن يبدو أن الدراسات التاريخية تشير الى وجودها في القرن الثاني قبل الميلاد وقد نمت المدينة لتصبح المدينة الرئيسية في وادي صنعاء الخصب ولتصبح المركز التجاري الهام في جنوب الجزيرة العربية وتطورت لتصبح واحداً من المراكز الغنية في حضارة ما قبل الاسلام، ومع مجيء الاسلام استمرت تحتفظ بأهميتها حيث أصبحت مركزاً دينياً للتعليم ومقراً لوالي اليمن وصنعاء معاً مغلقة في وجه التيارات الحضارية على طابعها المعماري المتميز وقيمه الجمالية حيث لم تفسده التيارات المعمارية الوافدة الى العالم العربي.

صنعاء القديمة أو الحي القديم فيها تقع في الجانب الشرقي من وادي السابلة، مدينة مسورة وذات قلعة تقع في الطرف الشرقي من المدينة على منطقة مرتفعة تحتها تقع الأسواق والجامع الكبير وتمتد المدينة حتى تصل الى قاع الوادي، ثم فيما بعد امتدت نحو الغرب عبر الوادي وامتد السور حولها، وعليه تكون مدينة صنعاء القديمة مؤلفة من منطقتين الأولى تقع في الشرق والثانية في الغرب ولكل قسم مميزاته فبينما نجد القسم الشرقي يضم المباني الهامة من الوجهة التاريخية ذات الطابع الجمالي الخاص والعمراني الفريد نجد القسم الغربي أقل كثافة وأقل تجانساً وأكثر انفتاحاً وهو يضم القصور والفيلات والحدائق التي تضفي على المدينة محيطاً رائعاً.

وحتى تبقى المدينة القديمة في صنعاء على شكلها الحالي جميلة رائعة لابد أن تبقى حية لذلك فإنه من الضروري أن يفعل كل شيء ممكن لجعل المدينة جذابة وذلك بتلبية حاجات مجموعة مقبولة من الناس في المدينة القديمة.

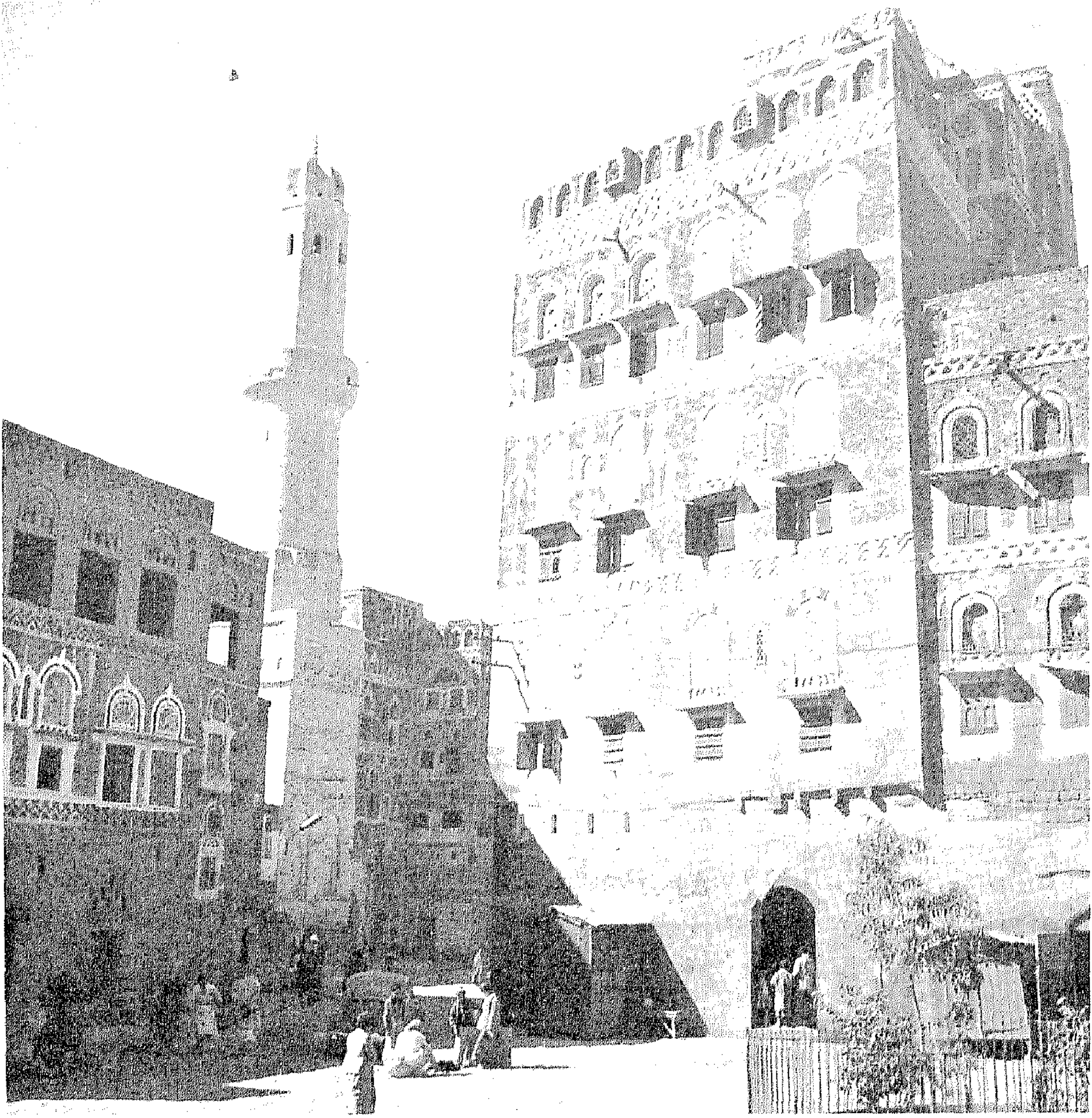
وادراكاً لأهمية صنعاء القديمة التاريخية والفنية والسياسية استقدمت حكومة الجمهورية العربية اليمنية أحد خبراء اليونسكو لدراسة المدينة القديمة والوقوف على مشاكلها لتقديم المقترحات الممكنة التي تعين السلطات اليمنية على تبني سياسة لصيانة مدينة صنعاء والمدن اليمنية الأخرى.

وتنفيذاً لرغبة حكومة الجمهورية العربية اليمنية وضع الخبير المشار اليه تقريره الذي اعتمدناه في هذه الدراسة. شخص الخبير المشاكل التي تواجه المدينة القديمة في صنعاء كالتالي:

١ ــ نظراً لوقوع المدينة القديمة في وسط مدينة صنعاء الحديثة وان المدينة تتطور وتتسع فلا شك أن هذا النمو السريع سيؤدي حتماً الى خلق متاعب للمدينة القديمة وسيكون سببه الحاجات التجارية الجديدة المتنامية وسيمس هذا التطور بطبيعة الحال الشكل والوظيفة والتقاليد المعمارية.

٢ ــ اذا بقيت المدينة القديمة على حالها دون افساح المجال للتسهيلات الحياتية الجديدة كالطرق والماء والكهرباء والترميمات البسيطة والمجاري ومواقف السيارات فإن السكان أمام ضغط مغريات الحياة الجديدة سيضطرون للنزوح من المدينة القديمة للسكن في أحياء أكثر سهولة وتبقى المدينة القديمة سكناً لأصحاب الدخول البسيطة وهؤلاء غير قادرين وغير راغبين في تحمل عبء الصيانة، وهذا سيسمح بالتآكل الفيزيائي البطيء وبالتالي الى تخريب المدينة.

ومن أجل حماية المدينة القديمة وصيانتها لابد أن تبقى حية وفي سبيل ذلك يقترح الخبير



صنعاء اليمن

ما يلي:

١ ــ المحافظة على المدينة القديمة في وضعها الراهن لاجيال قادمة.

٢ ــ زيادة مقوماتها كمدينة حية وذلك بترغيب الناس بالبقاء فيها وتيسير حياتهم اليومية.

٣ ــ المحافظة على مباني المدينة القديمة كما هي عليه تقريباً وحتى تتحقق هذه الأهداف لابد من تحقيق ما يلي:

(أ) ايجاد مخطط تنظيمي للمدينة في الوضع الراهن.

(ب) اجراء دراسات اجتماعية واقتصادية لفهم حاجات وتطلعات السكان.

(ج) تحسين البيئة داخل وخارج المدينة.

(د) وضع خطة صيانية تتلاءم ووضع المدينة.

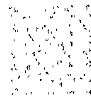
خلاصة القول أن الأمل الكبير في أن تأخذ السلطات المسؤولة عن حماية مدينة صنعاء المبادرة في وضع سياسة متوازنة تتناسب والامكانيات المادية والفنية في أقرب وقت ممكن حتى لا تفوت الفرصة وتخرب كثير من الروائع الفنية أمام هجمة التحديث الشرسة.

رابعاً ــ مدينة العلا (حي الدبرة):

تقع مدينة العلا في شمال غرب المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية ويدعى الحي القديم فيها بحي (الدبرة) ويقع في الجزء الشمالي من واحة العلا الكبير الى الشمال من المركز التجاري والاداري لمدينة العلا، يبدو أن مدينة العلا تنهض أعلى بقليل من مستوطنة يعود تاريخها الى فترة ماقبل الاسلام لكن أغلب الآثار المعمارية الموجودة بحي الدبرة اليوم آثار اسلامية تتمثل بقلعة موسى بن نصير التي تقوم على منحدرات الجبل الصخري القائم بوسط المدينة وغيرها. لا تزال بقايا اسوار المدينة قائمة على طول الجانب الغربي المتاخم لشارع المناخة ويرتكز على هذا السور الجدران الخارجية لمساكن الناس هناك، بنيت المدينة من الحجارة الرملية وطليت بالطين، لها ثمانية بوابات تؤدي الى شوارع داخلية في حي الدبرة، مداخل هذه البوابات جعلت على شكل حرف (L) لأغراض دفاعية وتقوم على جانبي كل بوابة رقيقتان من الحجر تكونان بمثابة دعامات أورابطات لعتبات الأبواب المتشابهة والمسقوفة بألواح خشبية وأربطة حجرية.

يتميز حي الدبرة بشبكة من الشوارع الضيقة التي يتراوح عرضها ما بين متر ونصف ومترين، بعض هذه الشوارع مسقوف بجذوع النخل وقد كانت فيما مضى ذات فتحات علوية وشبكة لتصريف مياه الأمطار، أما المساكن فتمتد في بعض الأحيان عبر الشوارع الضيقة وتتكون من طابق أو طابقين تعلو مداخلها عقود حجرية مستديرة أو اعتاب مستقيمة ونوافذ صغيرة، يدخل اليها في بعض الأحيان بدرجة أو درجتين أما مواد البناء فهي غالباً من الحجر الرملي المحلي الذي كان يستعمل منذ العهود التي سبقت الاسلام ونلاحظ أن بعض حجارة المنازل القديمة التي سبقت الاسلام استعملت في بناء منازل حي الدبرة، سقوف المنازل هنا مؤلفة من جذوع النخيل وجرائده كما طليت الجدران بالطين الأمر الذي سبب اختفاء بعض الكتابات والنقوش العائدة للفترة التي سبقت الاسلام، أبواب المساكن من الخشب الضخم بعضها يحمل زخارف والآخر بسيط وكانت تزود بأقفال وترابيس خشبية ضخمة تثبت على الجدران بواسطة قوائم خشبية ضخمة.

وحيث أن في مدينة العلا الاسلامية (حي الدبرة) عدد من المباني الأثرية ذات أهمية كالسور الغربي للمدينة وقلعة موسى بن نصير والمسجد والبئر القديمة وبالتأكيد المدينة نفسها كوحدة عمرانية فقد وضعت مديرية الآثار والمتاحف بالمملكة العربية السعودية خطة لترميم بعض المباني الأثرية بالمدينة كوحدات منفردة في المرحلة الأولى. أما المرحلة الثانية فستشمل صيانة المدينة كوحدة عمرانية معمارية.



(أ) المراجع العربية:

(١) كوربول، عبدالحق سليم، ديللون أرماندو.
سوريا: قضايا حفظ المواقع الأثرية والأوابد التاريخية والاستفادة منها. تقرير وضع في اطار لجنة اليونسكو المؤلفة من السادة المذكورة أسماؤهم أعلاه المرسلة إلى سوريا عام ١٩٥٣. ص.٢ ــ ص٢٣.

(٢) بهنسي، عفيف:
مشكلة المدينة القديمة في البلاد العربية، الحوليات الأثرية السورية عدد ٢٣ ص٩ ــ ص٣٣.

(٣) بهنسي، عفيف:
المدينة العربية الاسلامية ونموذجها دمشق القديمة الحوليات الأثرية العربية السورية عدد ٢٦، ج ١+٢ (١٩٧٦) ص١٠ ــ ص٢٦.

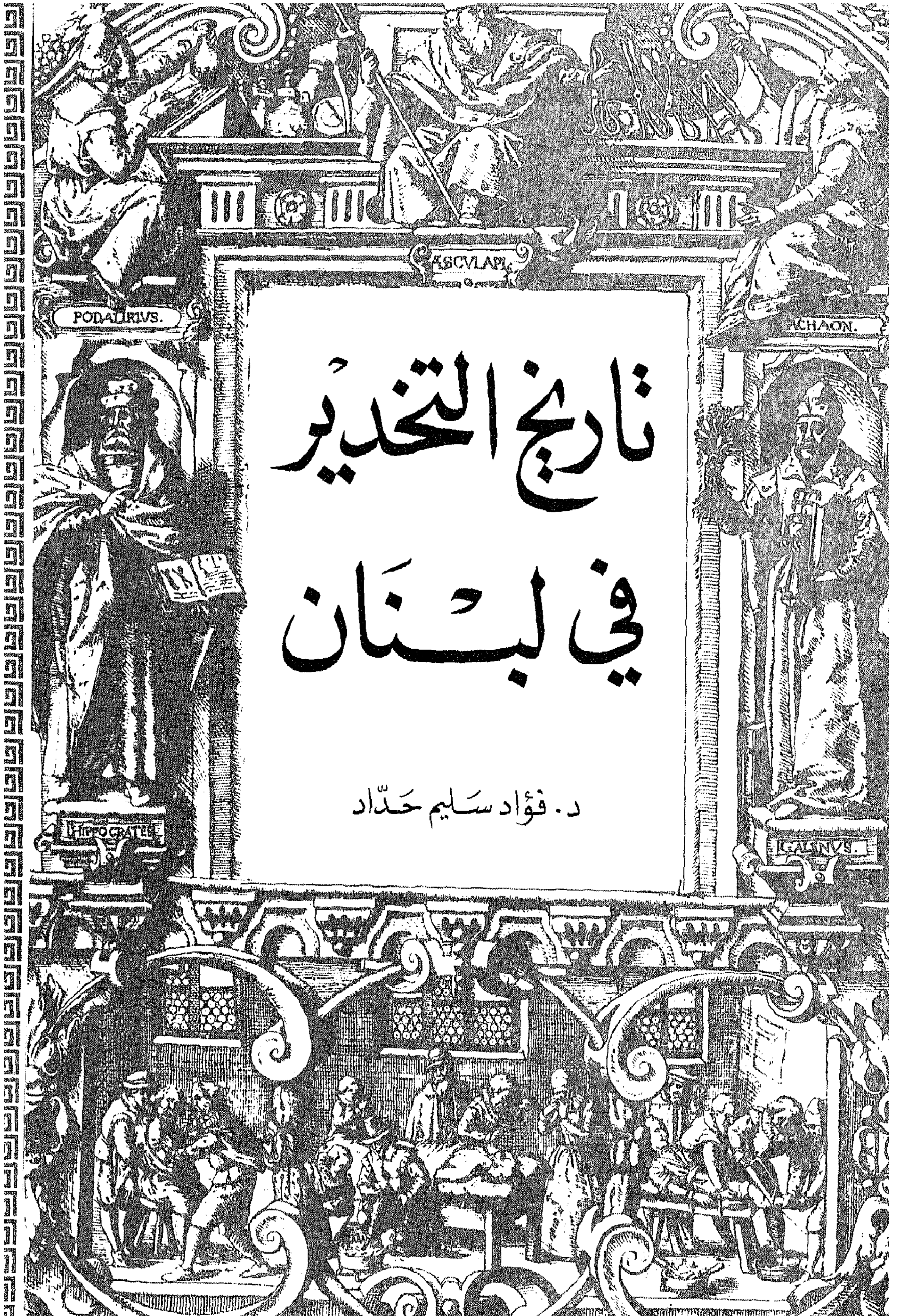
(٤) شعث شوقي:
حلب القديمة ومعالمها السياحية مجلة العمران الأعداد ٢٠ ــ ٢٢ وص٤٩ ــ ص٦١.

(٥) شعث، شوقي وحرتباني، محمود:
قلعة حلب دليل مختصر ١٩٧٧.
(٦) روبير، أوزويل:
فن تخطيط المدن، ترجمة بهيج شعبان ومراجعة هنري زغيب منشورات عويدات، بيروت لبنان.
(٧) صواف، صبحي:
دليل الزائر، حلب ١٩٥١.
(٨) ريحاوي، عبدالقادر:
المباني التاريخية حمايتها وطرق صيانتها منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بالجمهورية العربية السورية دمشق ١٩٧٢. ص٥١ ــ ص٥٤.
(٩) الخطيب، روحي:
تقرير عن أوضاع مدينة القدس العربية تحت الاحتلال الصهيوني.
(١٠) الأحمد، نجيب الأحمد:
تهويد القدس، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الأعلام والتوجيه القومي.
(١١) قاسمية، خيرية:
قضية القدس، دار القدس، بيروت الطبعة الأول ١٩٧٩ ص٤٧ ــ ص٦٨.
(١٢) ذو الفقار، سعيد:
التقرير النهائي للمؤتمر الثامن للآثار بالبلاد العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مراكش ١٩٧٧ ص٥١ ــ ص٥٩.

هذا إلى جانب معلومات وصلتني بناء على طلبي من مديرية الآثار بالمملكة العربية السعودية حول مدينة العلا، ومن المديرية العامة للآثار بدمشق حول مدينة دمشق، كذلك وصلني من الجمهورية العربية اليمنية نسخة من تقرير اليونسكو باللغة الانكليزية حول مدينة صنعاء، سأشير إليه في المراجع الأجنبية.

(ب) المراجع الأجنبية:

1. DAVID JEAN«CLAUD, ALEP,
Dégradation et tentative actuelles de readaptation des structures urbaines traditionnelles, BEO t. XXVIII (1975) pp. 19-50.
2. D'OSSAT GULIEMO DE ANGELIS,
Guide to the methodical study of monuments and Causes of thier deterioration, international center for the study of the preservation of cultural property, 1972.
3. SAUVAGET ALEP, 1941 BAH, texte et album.
4. ANDERSON TANFORD,
The Physical city as a socio-cultural resource social space and physical form as reciprocally related systems of conventoin, A paper for the confernce «L» espace social de la ville Arabe Tunis, 10-12 March 1979.
5. ANDARE, R.H.
The Conservation of Urban sites The Conservation of cultural property Museums and Monuments, XI UNESCO pp. 153-169.
6. WELBANK MICHAEL AND FIUEURAS JULIO,
SANA'A report to UNESCO, June 1978 published by Shakland Co & Parthership.
7. COUNCEIL OF EUROPE,
Policy for the preservation and rehabilitation, preservation and rehabilitation of groups and areas of buildings of historical of artistic interest Symposium E 1968.
8. COUNCIL OF EUROPE,
Principles and practice of active preservation, preservation and rehabilitation of groups and area of building of historical or artistic interest, symposium C 1967.
9. COUNCIL OF EUROPE,
The reviving of monument, Preservation and development of groups and areas of buildings of historical or artistic interest, symposium B.
10. The Precedings of the European conservation conference, the managment of the enviroment in tomorrow Europe, 1970.



تاريخ التخدير في لبنان

د. فؤاد سليم حدّاد

الدكتور فؤاد سليم حداد اختصاصي بالتخدير والانعاش من جامعات فيلادلفيا وبوسطن في الولايات المتحدة، وهو مجاز من المجمع الأميركي للتخدير (Board) وزميل في كلية المخدرين الأميركية (Fellow)، حالياً هو مساعد في دائرة التخدير ومحرر «مجلة التخدير في الشرق الأوسط» في الجامعة الأميركية في بيروت كما وأنه أمين عام نقابة المخدرين في لبنان.

أبحاث كثيرة نشرت عن تاريخ الطب العربي ولكن القليل كتب عن مآثر العرب في حقل التخدير. ومن المعلوم أن التخدير ابتدأ عند العرب عندما قدموا للعالم «الاسفنجة المنومة»(*) وذلك قرابة ٨٠٠ سنة قبل ما أعلن اكتشافه في الغرب، كما وأن ابن النفيس وصف الدورة الدموية في الرئتين ٣٠٠ سنة قبل مايكل سرفاتس وغيره من الأوروبيين(**). لذلك يعتقد الدكتور حداد بوجوب توجيه جهودنا، كل في بلده، للبحث عن مآثرنا في هذا الحقل وابرازه للعالم. المقالة التالية له هي أول بحث محقق عن تاريخ التخدير في لبنان وتمثل عصارة جهد لخطوة أولية متمنياً أن يزاد عليها وتتمم من قبل زملاء آخرين.

المقدمة:

اصبح تاريخ التخدير في العالم في مجمله معلوم للجميع وهو مبني على مستندات تاريخية موثوقة(١،٢) وليس هدفي في هذه المقالة ان اعيد مراجعته، لكن تاريخ التخدير في الشرق العربي لا زال مبهما في بعض الدول الشرق اوسطية ومـا زال دفينا في البعض الاخـر ينتـظر من يكتشفه.

من الثابت ان حضارة العالم ابتدأت منذ اربعة آلاف سنة على ضفاف النيل وبلاد ما بين النهرين، وقد وجد في اللوائح الاشورية المنقوشة بالكتابة الوتدية وصف بعض المركبات الطبية مثـل البـلادونـا (Belladona) والحشـيش (Cannabis) واللفـاح (Mandragora)، كما وان المصريين القدماء وصفوا استعمال الافيون (Opium)، وقد تأثر بهم الاغريقيون(٣).

ان من دواعي الاعتزاز ان نقول بان بعض الدول في الشرق العربي شهدت بدء استعمال بعض الادوية، واستعملت مشتقات منهـا على مدى التاريـخ وما زالت تستعمـل حتى الوقت الحاضر.

ان الاطباء القدماء من مصريين واشوريين ابتدعوا النوم لتخدير مرضاهم بواسطة الضغط السريع على الشريان السباتي (Carotid) في العنق(٣). ان الطب اليوم مدين كثيرا إلى علم النباتات الذي نقله العرب الى الغرب في وقت كـانت اوروبـا تخـرج من ظلمـات العصـور الوسطى(٣).

ان التخدير اختصاص جديد برز معظمه بعد الحرب العالمية الثانية. ومعرفة تاريخ نشأته في بلدان الشـرق الاوسط مهمة وأساسية لمعرفـة ميـراثنا في هـذا الحقل ولذلك وجب تسجيله بطريقة علمية في كل بلد من بلداننا.

التخدير هـو احد مـظاهر نهضتنـا الطبية. ودراسة تطوره لها علاقة وثيقة بتـطور الطب الحديث في لبنان. لذلك قبـل ان اقدم تـاريخ التخدير في لبنان(٤) وجب ان نعرف كيف ابتدأ الطب الحديث في الشرق الاوسط وكيف وصل الى لبنان.

النهضة الطبية في الشرق الاوسط:

كتب الدكتور امين خير الله(٥،٦) ان الطب في لبنان حتى حوالي منتصف القرن الماضي كان طب المشعوذين والسحرة والمجبرين والمتهنين بـالتقاليـد(٧)، وقد اعتمـد الناس في معـالجة امراضهم على القصابين والحلاقين والمغـاربة. كـان هذا الوضـع مستمـرا خـلال الاحتـلال

(*) Sigrid Hunke: Allah Sonne Uber Abendland, Unser Arabische, 2nd ed. Arabic Text, The Trading Office, Beirut, 1969.

(**) Haddad, Fouad Salim: Alaa El-Dean Ibnul Nafiess. Middle East Journal of Anaesthesiology 4: 223-224, 1969.


نابليون بونابرت.


محمد علي باشا.


الدكتور كلوت بك.

العثماني (١٥١٦ ـ ١٩١٨) في كل الدول الشرق اوسطية والذي يعتبر متدنيا عن الطب العربي الذي كان معروفا في سالف الزمان[٩،٨].

يمكن ارجاع النهضة الطبية الحديثة في الشرق الاوسط الى اجتياح نابوليون لمصر عام ١٧٩٨م. حين اصطحب معه اختصاصين في مختلف العلوم ومنهم أطباء[٨]. وبذلك بدأت نهضة علمية في مصر سرعان ما تعممت الى اكثر دول الشرق الاوسط ومنها لبنان. في عام ١٧٩٩م تقدم محمد علي الالباني المولد على رأس جيش الباني تحت امرة عثمانية للدفاع عن مصر ضد نابليون. بعد انتصاره على المماليك زاد طموح محمد علي وحين اصبح حاكم مصر المطلق في عام ١٨٠٥م اضطر العثمانيون ان يعترفوا به كوالي على مصر.

بعد خروج نابليون من مصر عام ١٨٠٥م وتثبيت اقدام محمد علي، تنبه الاخير الى اهمية الثقافة[٨] في يقظة شعبه من الجهل، وكان باهتمامه العميق بالعلوم والاداب قد ولع اول شرارة لنهضة مصر الحديثة[٥].

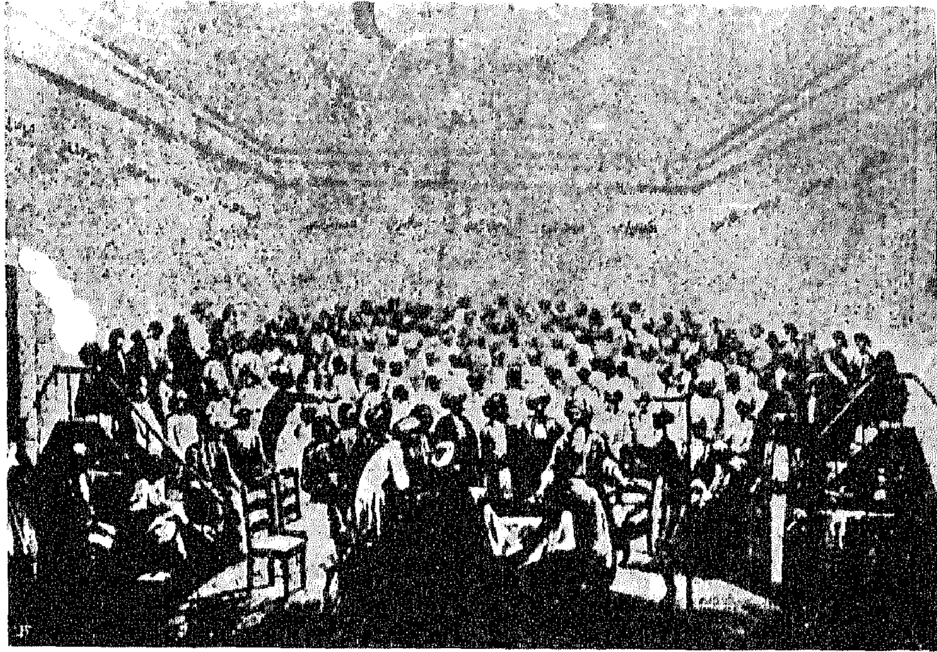
في غمرة حماسة محمد علي لتثقيف شعبه، استدعى من فرنسا واوروبا اطباء للاهتمام بصحة جنوده. ومن اشهر هؤلاء الاطباء الدكتور الفرنسي انطوان برثلمي كلوت[٨،١٠] (Antoine Berthélemy Clot) والذي عرف بعدها «بكلوت بيه». اوجد كلوت بيه الطرق الحديثة في ذلك الوقت للعناية بصحة الجنود المصريين وفتح لذلك مستشفى ابو زعبل عام ١٨٢٥م واسس فيها عام ١٨٢٧م كلية للطب انتقلت في عام ١٨٣٥م الى القاهرة وعرفت بكلية طب القصر العيني. في عام ١٨٣٥م ١٢٥١هـ وضع كلوت بيه كتابه «مبلغ البراح في فن الجراح»[١١]. ولا بد من الاشارة هنا الى ان اوائل التلامذة اللبنانيين قد اموا هذه الكلية لتعلم الطب في ذلك الوقت لسهولة اللغة[١٢،٩].

انتشار الطب في لبنان:

يمكن ارجاع الخطوات الاولى للثقافة الطبية الحديثة في لبنان لثلاثة احداث:

اولاً، اجتياح ابراهيم باشا (ابن محمد علي) لسوريا ولبنان عام ١٨٣٢م حين اصطحب معه الدكتور كلوت بيه[٨] والذي كان له اثر فعال في النهضة الطبية الحديثة في لبنان حين قبل رغبة الامير بشير في ارسال أول خمسة طلاب من دير القمر لدراسة الطب في القاهرة، المدرسة الطبية العربية الوحيدة في الشرق الاوسط في ذلك الحين. ومن الطريف ان نذكر ان كلوت بيه عند زيارته للأمير بشير في بيت الدين، قام المدعو بشارة جلخ باصلاح ساعته ورفض ان يتقاضى عليه اجرا، ولكنه تمنى عليه ان يصطحب ابنه يوسف الى القاهرة ليتعلم الطب في مدرستها. فقبل طلبه وكان يوسف جلخ واحدا من الطلاب الخمسة الذين توجهوا لدراسة الطب في مصر[١٣،٨].

ثانيا: الترخيص للارساليات في دخول سوريا ولبنان بعد خروج ابراهيم باشا في عام



صف التشريح في قاعة التشريح بابي زعبل ١٨٢٧.

١٨٤٠م. أنشئت هذه الارساليات، وكانت فرنسية واميركية وانكليزية، عيادات طبية مجانية على سبيل المساعدة في نشر مذاهبها الدينية.

ثالثا: تدخل الدول الاجنبية في لبنان بعد احداث عام ١٨٦٠م الدامية خاصة فرنسا واميركا اللتان اسستا الثقافة الطبية في لبنان. اسس الاميركيون مدرسة طبية عام ١٨٦٧م عرفت انذاك «بالكلية السورية الانجيلية» (حاليا الجامعة الاميركية في بيروت) وبعد ستة عشر عاما (١٨٨٣) اسس الفرنسيون مدرستهم الطبية «كلية الطب الفرنسية». من المهم ان نشير هنا بانه قبل تأسيس الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٧م كان الطلاب اللبنانيون يتلقون علومهم الطبية اما في القاهرة كما سلف وذكر واما في الاستانة(١٢،٩،٧).

وهكذا بهذه الخطوات الثلاث بدأت نهضة الطب الحديث في لبنان.



الأمير بشير الشهابي.

ابتداء التخدير في لبنان:

لا بد لمن يعرض تاريخ التخدير الحديث الاشارة اولا الى تاريخ اول عرض عام جرى في هذا المجال على يدي طبيب الاسنان الدكتور وليم مورتون (William Morton) في مدينة بوسطن وفي مستشفى ماساشوستس



وليم مورتون.

Figure 21. William Thomas Green Morton (1819–1868): the discoverer of anaesthesia.



أول عرض عام للتخدير ـ ١٦ تشرين الأول ١٨٤٦.

(Boston Mass). هذا التاريخ هو ١٦ تشرين الاول ١٨٤٦. يعتبر هذا التاريخ حدا فاصلا بين عصرين. عصر الجراحة بدون تخدير حيث الالم والمعاناة والصراخ، وعصر الجراحة مع التخدير الحديث حيث النوم الهادىء بدون آلام. لذلك ارتأينا ان نقسم تاريخ التخدير في لبنان الى حقبتين. الاولى عصر الجراحة بدون تخدير (اي ما قبل ١٨٤٦)، والثانية عصر الجراحة مع التخدير الحديث (اي ما بعد ١٨٤٦).

عصر الجراحة بدون تخدير في لبنان:

لا تتوفر اية معلومات مباشرة تصف طرق تخفيف الام الجراحة في لبنان في عصر ما قبل ١٨٤٦. فطب المشعوذين والمجبرين والمغاربة[١٤،٥] كما سبق وذكر الذي كان سائداً ايام العثمانيين، وعدم اجراء جراحة مهمة وعدم وجود مستشفيات في ذلك الوقت هي الاسباب التي حالت دون التقدم في هذا المجال. يقول الدكتور احمد الشطي[١٥]: «كان التخدير في الشرق العربي معروفا خلال القرون الوسطى، وسيلته استنشاق مواد مخدرة توضع في اسفنجة سموها «الاسفنجة المنومة»، او في مباخر تنشر روائح المخدرات المعطرة بالعود



آلام الجراحة قبل التخدير.

محمد علي البقلي.



وغيره وكان يستعمل بعضها شرباً وكان يعتمد خاصة على الايحاء...». ومن المواد المخدرة التي استعملت اللفاح او بيض الجن (Mandragora) والخشخاش او ابو النوم (Opium) والحشيش (Cannabis) والبنج، كما سماه العرب،)Hyoscyamus) والشيكران او الشوكران (Conium) (١٥,١٦,١٧).

بتخرج اوائل الطلبة اللبنانين في الطب يمكن استخلاص بعض المعلومات بطريقة غير مباشرة عن وسائط تخفيف الام الجراحة في لبنان. بما ان التلامذة اللبنانين كانواقد قصدوا الى القاهرة والاستانة لتعلم الطب(١٢,٩,٧)، فمن الممكن القول بان ما تعلمه هؤلاء التلامذة في كليات هذين البلدين هو الذي حملوه معهم الى لبنان ومارسوا نفس الطرق التي تعلموها(٤). لذلك اذا تطرقنا الى طرق تخفيف الام الجراحة في هذين البلدين، يصبح من المعقول الاستنتاج ان هذه الطرق هي التي حملها معهم التلامذة اللبنانيون ومارسوها في بلدهم. ان هذا البحث يعرض الى الطرق التي كانت تستعمل في القاهرة فقط.

في هذا المضمار يبرز كتابان في جراحة ما قبل ١٨٤٦م استحصلنا عليهما لهذا البحث. الاول كتاب كلوت بيه «مبلغ البراح في فن الجراح»(١١) المطبوع عام ١٨٣٥م ١٢٥١هـ وفيه لا يرد اي ذكر لوسائط تخفيف الام الجراحة. والثاني كتاب محمد علي البقلي «غرر النجاح في اعمال الجراح»(١٨) عام ١٨٤٦م ١٢٦٣هـ اي بنفس العام الذي قدم فيه التخدير الى العالم بواسطة مورتن في بوسطن. ان محمد علي البقلي كان من ابرز تلامذة كلوت بيه وقد ارسل الى باريس وعند رجوعه الى القاهرة اصبح من اشهر الجراحين وقد عين عميد كلية الطب في القصر العيني(١٩). نجد في كتابه(١٨) صفحة ٢٦ الفقرة التالية تحت عنوان «وسائط تنقيص الاحساس والآلام»:

(فى وسائط تنقيص الاحساس والآلام)

اعلم ان قدماء الاطباء كانوا يستعملون وسائط كثيرة لتسكين حساسية المريض وقت العملية منها ان بعضهم كان يعطى للمريض بعض تراكيب دوائية مخدرة كمركبات البنج واللفاح والافيون يستعملها من الباطن وبعضهم كان يدلك بهذه الادوية الاعضاء المراد فعل عمليات طويلة مؤلمة فيها ومنها ان بعضهم كان يضغط على الاعضاء ضغطا حلقيا لتنقيص حساسيتها * ومنها ان بعضهم كان يوكل بعض المساعدين بالضغط على الاعصاب الاصلية لكن في عصرنا هذا لم يستعمل من هذه الوسائط شئ اعتمادا على كون الالات حادة ماضية والعمل سريعا مع الخفة الزائدة والاجزاء الممكن الوصول اليها تقطع مرة واحدة

بهذه الالات بدون خطر يجرها عليها الا بالاتكاء فقط نعم قد يعطى للمريض
في هذا العصر بعض جرع مضادة للتشنج والاختلاج قبل العملية وفي اثنائها

(في العوارض التي قد تحصل اثناء العملية)

اعلم ان الالم الشديد الذي يحدث في بعض العمليات قد يكون سببا لحصول
التشنجات في المرضى الذين تكون فيهم قابلية التهيج شديدة فاذا كانت العملية
من العمليات التي يمكن تأخير اتمامها امسك الجراح عن اتمامها حتى يزول
التشنج ثم يعطى للمريض بعض لعوق من سائل مسكن او مضاد للتشنج ثم يسليه
ويقوي عزمه ويوعده بتمام العملية بسرعة
ومتى سكن وزال التشنج رجع للعملية * فعليه ان يتبع هذه الطريقة لانه
لو دام على العملية والمريض يصرخ ويتحرك حركات اختلاجية ضعفت
قواه الحيوية وربما اصابت الالة الاعضاء اللازم الاحتراز عنها بسبب التحرك
الشديد * ثم ان الوسائط المذكورة تنفع في ازالة التشنج في اغلب الاحوال
فاذا فعلت ولم تجد نفعا وزادت الاختلاجات بسرعة لزم تأخير اتمام العملية
حتى يسكن المريض اذا كانت طبيعة المرض المستدعي لها قابلة لذلك *
وحينئذ يقال ان العملية فعلت في زمانين واما اذا حصل للمريض اغماء
في اثناء العملية فيرش على وجهه ماء بارد او يهوى عليه بنحو مروحة
او يوضع حذاء انفه قنينة ممتلئة سائلا منبها كالخل او روح النوشادر او العرق
او نحو ذلك فانه يؤثر في اعصاب الغشاء النخامي ومنها يصل الى المخ فيفيق
المريض من اغمائه * ومن جملة العوارض التي تعرض بالعملية النزيف
الذي يفزع منه المريض والحاضرون وربما كانت عاقبته هلاك المريض *
راجع باب وسائط منع سيلان الدم وحبسه لتعرف اسبابه وعلاجه

«وقد استعمل ضد التشنجات قبل وخلال العمليات الكافور والعنبر والمسك والجندباستر[20]».

من الواضح في هذه الفقرة انه في عام ١٨٤٦ الشهير لم يكن البقلي عالما بالتخدير الحديث الذي تم اكتشافه في ذلك العام، كما وانه لم يستعمل ايا من المواد التخديرية التي نستعملها اليوم. لذلك نستخلص من هذين الكتابين ان تلامذة الطب اللبنانيين الذين تعلموا في القاهرة لم يحملوا معهم الى الوطن طرق التخدير المستحدثة في ذلك الوقت[4].

لنلق نظرة اخرى على كيفية معاملة المريض على طاولة العمليات اذ انها تساعد على تكوين فكرة عن نوعية الجراحة في ذلك الوقت، اي ما قبل عام ١٨٤٦م. في كتابه[18] صفحة ٢٦ يكتب البقلي كذلك تحت عنوان «في العوارض التي قد تحصل اثناء العملية».

«وعلى كل حال فان العمليات لم تكن لتجري كعملية مؤلمة الا اذا كانت المسألة مسألة حياة او موت. السرعة كانت لها اهمية كبيرة في الجراحة وعند الامكان فان العمليات تؤجل الى الفصل والطقس الملائمين. عمليات الاطفال كانت تؤجل بقدر الامكان بسبب عدم امكان توقيف حركاتهم. كان المريض يحضر تحضيرا نفسيا ويستعمل العلق والفصاد والمندراغور (اللفاح، بيض الجن) قبل العملية. كانت تعطى اهمية خاصة لعدد المساعدين[11] في العملية الجراحية كما وان المريض كان له الحق في اختيار الاشخاص الذين يقفون بجانبه لاعطائه الثقة والتشجيع».

قبل ان انهي الحديث عن التخدير في لبنان في عصر ما قبل ١٨٤٦م اود ان اركز اهتمامي على اول طبيب لبناني في ذلك العصر. من التلامذة اللبنانين الخمسة الاول الذين ارسلهم الامير بشير الى القاهرة كان الدكتور ابراهيم النجار[10] (١٨٢٢ ـ ١٨٦٤). يعتبر الدكتور نجار اول طبيب لبناني في عصرنا الحديث اذ تخرج بتاريخ ٤ حزيران ١٨٤٢[10] بينما تخرج الدكتور يوسف جلخ بعد خمسة اشهر في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٤٢. بعد تخرجه من القاهرة ذهب الدكتور نجار الى الاستانة وعاد الى بيروت. ثم في عام ١٨٤٦م سافر الى فرنسا ليحضر معه مطبعة[10]. امضى الدكتور نجار ثلاث سنوات في فرنسا (١٨٤٦ ـ ١٨٤٩) عاد بعدها الى بيروت حيث عين رئيسا للجراحين[10] في مستشفى الشاهاني العسكري الذي كان قد اسس حديثا في ذلك الوقت (موقع العدلية القديمة). شهدت فترة الثلاث سنوات التي امضاها الدكتور نجار في فرنسا خطوات واكتشافات متلاحقة واولى في حقل التخدير. اذ انه بتاريخ ١٦ تشرين الاول ١٨٤٦ العام الشهير في عالم التخدير اتم مورتون تقديمه الايثر (Ether) للعالم للتخلص من الالام الجراحية. ثم بعد شهر تقريبا في ٢١ كانون الاول ١٨٤٦م استعمل جون سنو (John Snow) الايثر لاول مرة في انكلترا، تبعه بعد ذلك في ١٢ كانون الثاني ١٨٤٧م الفرنسي مالقين (Malgaigne)، ثم في عام ١٨٤٧ قدم سيمبسون (Simpson) مادة الكلوروفورم (Chloroform) كمخدر في انكلترا. الا يثير كل ذلك اهتمام الدكتور نجار اثناء وجوده في فرنسا؟ هل سمع الدكتور نجار بهذه الاكتشافات القيمة التي حررت الانسان من الاوجاع والعذاب الجراحي؟ هل تطرق لها وتعلمها؟ هل حملها معه الى لبنان؟.

في كتابه «مصباح الساري ونزهة القاري»[20] المطبوع عام ١٨٥٥م تكلم الدكتور نجار عن رحلاته الى القاهرة والاستانة. يذكر في اخر هذا الكتاب بوجود مجلد ثان، مع كل اسف لم نستحصل بعد على مجلده الثاني. فالسؤال المطروح اذاً هل وصف الدكتور نجار في مجلده الثاني رحلته الى فرنسا؟ وهل ذكر فيه اية معلومات عن اكتشاف التخدير، الاكتشاف الذي كان اكبر بركة اعطاها الله للانسان والذي غير مجرى الجراحة؟ كل هذه اسئلة مطروحة لم نستطع الرد عليها لعدم توفر المستندات الموثوقة.

عصر الجراحة مع التخدير الحديث في لبنان:

ان المعلومات عن التخدير في لبنان خلال العشرين سنة الاولى من عصر ما بعد ١٨٤٦ (١٨٤٦ ـ ١٨٦٥) ناقصة تماما لعدم تمكننا من ايجاد مستندات لهذه الحقبة من الزمن[4]. لكننا نعرف ان المستشفى الوحيد الذي كان في ذلك الوقت في بيروت هو المستشفى الشاهاني العسكري والذي اتخذ من الدكتور ابراهيم نجار في عام ١٨٤٩م رئيسا لجراحيه. لقد القى الدكتور امين الجميل[22] في مقالته «الطب في البلاد من مئة سنة». بالمجلة الطبية العلمية عام ١٩٢٨، بعض الضوء على كيفية تنفيذ الدكتور نجار عملياته في ذلك الحين:

«... اما ابراهيم النجار فبعد زيارته للامير في منفاه بالاستانة حضر الى بيروت كرئيس اطباء الجيوش وفتح مدرسة طبية في البيت المحاذي لهذا النادي. ومن خريجيه يوسف الزغزغي الشهير باصلاحاته وماثره وماتيه الخالدة في لبنان والمرحوم والدي الذي روى لي ان ابراهيم

اول من عمل هنا عملية الحصاة واذ لم يكن ذاع استعمال البنج كان يربط من يجري له العملية على زوايا طاولة العمل...»

يتضح اذا مما قاله الدكتور امين الجميل انه حتى عام ١٨٤٩ وربما لسنوات عدة بعد ذلك لم يكن التخدير الحديث معروفا في لبنان وان الطرق والنباتات الطبية التي استجلبت من القاهرة لربما هي التي كانت تستعمل في ذلك الوقت(٤).

اول بوادر التخدير الحديث في لبنان ظهرت في عام ١٨٦٥م. يرجع الفضل في هذا الى الدكتور جورج بوست (٢٤،٢٣،٥) (George Post) الذي كان قد وصل الى بيروت عام ١٨٦٣ كجراح مع الارسالية الاميركية بعد ان امضى سنتين كجراح خلال الحرب الاهلية الاميركية وحيث كان قد استبدل الأثير بالكلوروفورم كمخدر سريع وفعال في اميركا. ولهذا السبب كان الكلوروفورم اول مخدر حديث استعمل في لبنان. تجدر الاشارة هنا الى ان الدكتور بوست مع الدكتور كورنيليوس فان دايك (Cornelius Van Dyck) والدكتور ورثبات (Wortabet) هم الذين اسسوا مدرسة الطب في الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٧م. كان الدكتور بوست اول استاذ جراحة في الكلية عام ١٨٦٩م وبقي خلال الاربعين عاما التالية الجراح المشهور في الشرق الاوسط حتى وفاته عام ١٩٠٩م.

اذا اول مستند لبوادر التخدير الحديث في لبنان تقدمه لنا مجلة «المقتطف» القاهرية عام ١٩٠٩م(٢٤) حيث تروي لنا قصة حياة جورج بوست، وجاء فيها ان بوست اعطى المخدر الى كلب في بلدة عبيه عام ١٨٦٥م:

عرفناه في مدرسة عبيه الاميركية سنة ١٨٦٥ قبيل انشاء المدرسة الكلية وكان يدرس معنا الصرف والنحو في فرقة واحدة ويبحث ويدقق كابناء اللغة . وخطب وهو هناك خطبة علمية في الهضم شرح فيها هذا العمل الطبيعي اوضح شرح مبينًا اعضاءهُ برسوم رسمها على لوح اسود بالطباشير الملوّن وكان هذا الطباشير شائعًا حينئذٍ ولم يكتفِ بذلك بل قبض على كلب وبنّجهُ واماتهُ ثم شقّهُ وارانا وضع اعضاء الهضم فيهِ وشكلها . ثم لما أنشئت المدرسة

في الغالب ان المخدر الذي استعمله بوست على الكلب كان الكلوروفورم حيث جاء في كتابه «المصباح الوضاح في صناعة الجراح»(٢٥) ان الكلوروفورم قد نسخ الأثير تقريبا في اوروبا وفي جانب كبير من اميركا لحسن رائحته وسرعة فعله.

اما اول مستند لاستعمال الكلوروفورم على الانسان نجده ايضا في كتاب بوست ١٨٧٣م(٢٥) حين ورد في صفحة ٢٧٧ ما يلي:

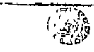
المصباح الوضاح

في

صناعة الجراح

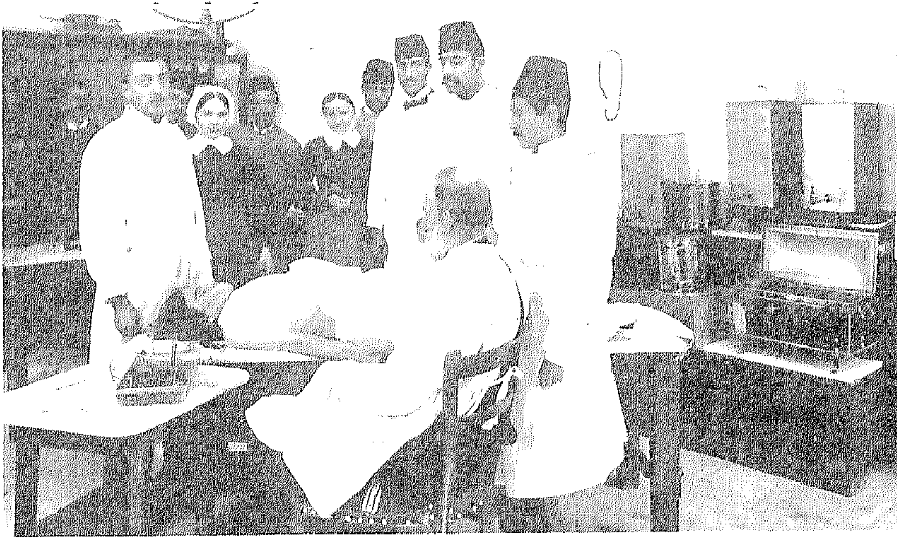
تأليف وترجمة الدكتور جورج بوست

استاذ الجراحة في المدرسة الكلية في بيروت



وتختلف جدًّا قابلية المفاصل المخلوعة للرد . اتى رجل مستشفى ماري يوحنا المخلع منكبهُ الى تحت منذ ثلثة اشهر وتثبت راس العضد هناك . فكلفر ومدّ العضو وتحورف بهِ لردّهِ الى التجويف العنابي ولم يجدِ ذلك نفعًا لامتلاء التجويف نسيجًا ليفيًا . غير انهُ تمددت الرباطات العرضية وارتخى

ان مستشفى ماريوحنا (Johanniter Hospital) (موقع السفارة الفرنسية حاليا) كان قد اسس عام ١٨٦٧م من قبل تنظيم مار يوحنا الالماني وكانت تديره راهبات المان. ولعدم وجود تسهيلات استشفائية لتلامذة الطب انذاك فقد اوكل هذا المستشفى عام ١٨٧١ الى رعاية اساتذة الكلية السورية الانجيلية ودامت هذه الرعاية الى عام ١٩١٧م (٥، ٢٦:٦).



الدكتور بوست بعد عملية وحوله تلامذة لبنانيون وممرضات المان في مستشفى ماريوحنا. حوالي عام ١٩٠٠م.

تجدر الملاحظة هنا بان كلمة «فكلفر» التي ورد ذكرها في كتاب بوست وقد اعيد استعمالها مرات عديدة في مجلة «الطبيب» التي اصدرها بوست على سنوات عديدة (٤)، هي للتدليل على استعمال الكلوروفورم وقد اشتق منها «كلفر العليل» و«تكلفرت» حتى وقد دعي الشخص الذي يعطي الكلوروفورم «بالمكلفر»(٢٧).

لقد كتب الكثير عن الدكتور جورج بوست الجراح وعالم النباتات(٢٤) والمؤلف ولكن لم يكتب ابدا عن الدكتور بوست اول طبيب مخدر في لبنان. يعتبر الدكتور بوست بحق اول رائد للتخدير الحديث في لبنان(١٥). هو الذي الف كتابا عن الجراحة نشر باللغة العربية عام ١٨٧٣م(٢٥) ووضع فيه لاول مرة فصلا عن التخدير العام والموضعي ووصف درجات خمس للتخدير وبذلك وضع الاسس العلمية لهذا الاختصاص لاول مرة في لبنان. كما واننا ندين له مبادرته بانشاء اول مجلة طبية لبنانية باللغة العربية في عام ١٨٧٣م عرفت بمجلة «الطبيب» حيث ساهم سنوات عديدة في اصدارها وشارك في مواضيعها الطبية المختلفة ومنها موضوع التخدير كعلم من علوم الطب. وبالرغم من انشغاله بنشاطات علمية كثيرة اخرى يمكن ملاحظة تأثير الدكتور بوست في بقية القرن التاسع عشر من خلال ادخاله معلومات جديدة في الادوية او الطرق المستحدثة للتخدير في ذلك الوقت.

* * *

ان هذا البحث هو خلاصة لدراسة في تاريخ التخدير في لبنان منذ نشأته في القرن التاسع عشر ولحين توضحت معالمه في لبنان في اواخر القرن الماضي وقد تمت الدراسة قبيل الحوادث المؤلمة التي حلت بنا، وهو لا يزال ناقصا بسبب نقص في مستندات بعض الحقب في القرن التاسع عشر. لذلك اتقدم من القراء الكرام وخصوصا من الزملاء الاطباء ان يحيطوني علما اذا كان لديهم اية معلومات محققة عن تاريخ هذا الاختصاص في لبنان لضمها الى هذا البحث في سبيل استكماله.

الهوامش

(١) *Synposis of Anaesthesia,* Chapter on History of Anaesthesia, The Williams & Wilkins Company, Baltimore. Lee, A.J.

(٢) *The History of Surgical Anesthesia,* New York, Dover Publication, 1963. Keys, Thomas E.

(٣) *Drugs* (Life Science Library), Time-Life International (Nederland) N.V. 1969. Model, W., Lansing, A.

(٤) The Development of Anaesthesia in Lebanon (1800-1914), *Middle East Journal of Anaesthesiology* 3:5, 1971. Haddad, Fouad Salim.

(٥) A century of American medicine in Syria, *Annals of Medical History* p.460, Paul B. Hoeber, Inc., New York, 1939. Khairallah, Amin.

(٦) Our Medical School, Its past, present and future *Journal Medical Libanais* 6:259, 1953. Khairallah, Amin.

(٧) أبي اللمع، رئيف ــ نشأة الطب في لبنان. **المجلة الطبية اللبنانية** ٢١: ٦٩، ١٩٦٨.

(٨) الشطي، أحمد شوكت ــ نظرات الى تاريخ الطب في البلاد العربية، خصوصاً لبنان وسوريا في العهد العثماني. **المجلة الطبية اللبنانية**: ٢١: ٧٣، ١٩٦٨.

(٩) ؟، رسائل. **الطبيب** ١: ٩، ١٨٧٤.

(١٠) Dr. Ibrahim Najjar (1822-1964), premier, médecin diplomé du Liban. *Journal Médical Libanais* 21:299, 1968. Haddad, Farid.

(١١) كلوت بيه، **مبلغ البراح في فن الجراح** ١٢٥١هـ، ١٨٣٥م.

(١٢) حداد، فريد سامي، تاريخ الطب في لبنان عام ١٨٧١ ــ ١٩١٤. **المجلة الطبية اللبنانية** ٢١: ٤١، ١٩٦٨.

(١٣) Docteur Youcef Bichara Jalkh et la médicin du Liban à son époque. *Journal Médical Libanais* 21:299, 1968. Haddad Farid

(١٤) نصار، موريس. الطب العربي وعلم الاقرباذين الحديث. **المجلة الطبية اللبنانية** ٤: ١٧، ١٩٥١.

(١٥) الشطي، أحمد شوكت، التخدير في الشرق العربي، مراسلة شخصية ٢٩ تموز ١٩٧٠.

(١٦) الرشيدي، أحمد، **عمدة المحتاج في علمي الادوية والعلاج**: (المادة الطبية) الجزء ٣ و٤ دار المطبعة الخديوية بولاق مصر، ١٢٨١هـ ١٨٦٤م.

(١٧) *Pharmacognosy, Medicinal plants and their vegetable drugs.* Paul Barbey's Printing Office, 1932. Fahim, R.J.

(١٨) محمد علي البقلي الحكيم، **غرر النجاح في أعمال الجراح** ١٢٦٣هـ ١٨٤٦م.

(١٩) زيدان جرجي، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر** ١٩٠٣.

(٢٠) الشافعي، محمد ــ **السراج الوهاج في معالجة الأمراض الباطنة**، وغيرها وفي الأدوية البسيطة، أو المركبة، بولاق، ١٢٨١هـ ١٨٦٤م.

(٢١) النجار، ابراهيم. **مصباح الساري ونزهة القارىء** ١٢٧٢هـ ١٨٥٥م.

(٢٢) الجميل، أمين. الطب في البلاد من مئة سنة. **المجلة الطبية العلمية** ٦: ٥٥٣، ١٩٢٨، ١٩٢٩.

(٢٣) *The life and works of George Edward Post* (1839-1909). Saint Catherine Press Ltd. (Belgium), 1938. Saidi, M. Lutfi.

(٢٤) ــ ؟ ــ الدكتور جورج بوست، **المقتطف** ٣٥: ١٠٤١، ١٩٠٩.

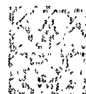
(٢٥) بوست، جورج. **المصباح الوضاح في صناعة الجراح** ١٨٧٣.

(٢٦) *The American University of Beirut.* Publisher: Khayat, 1958. Dodge, B.

(٢٧) ــ ؟ ــ اسفكسيا، الأسباب المرضية. الطبيب ١: ٢٤٦، ١٨٧٤.

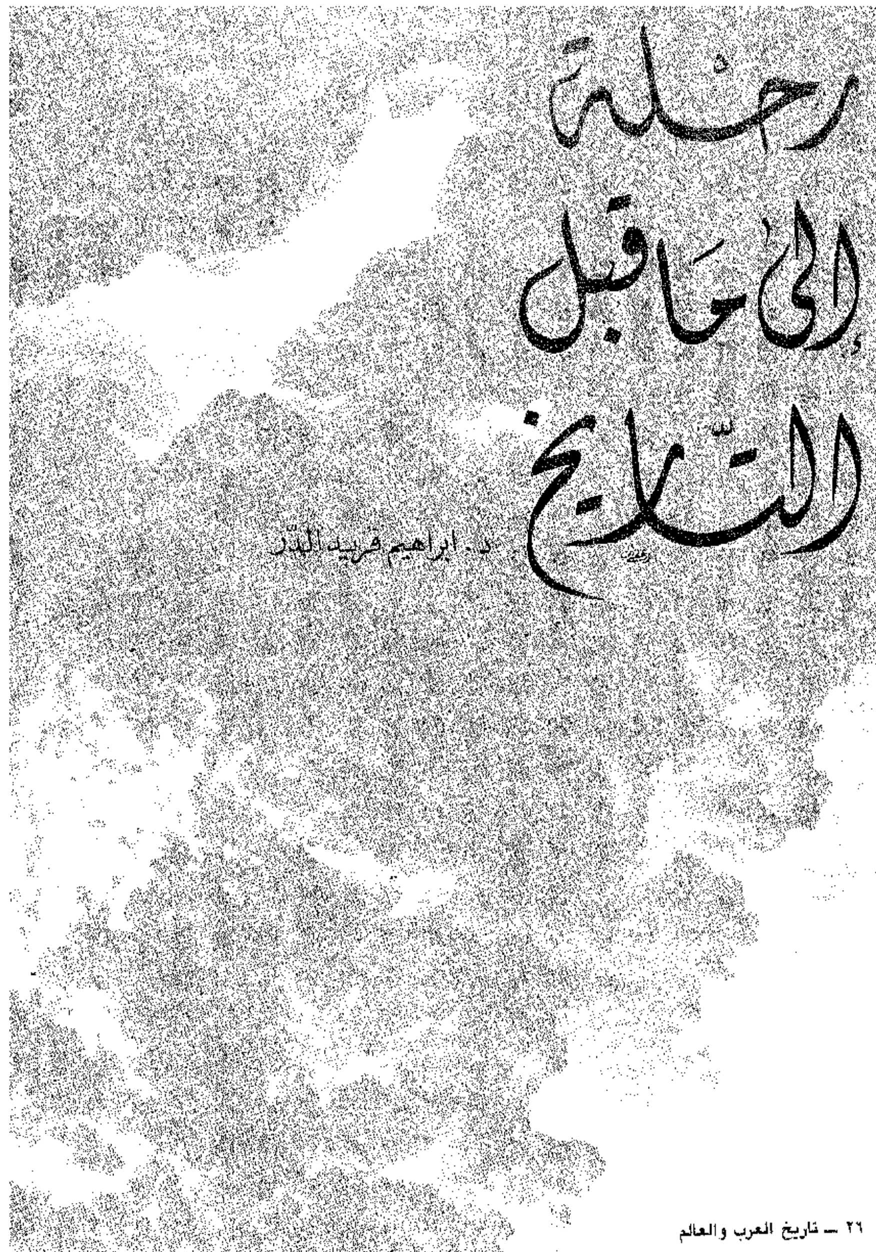
●

(*) مقتبسة من مقالة باللغة الانكليزية ظهرت في مجلة «Middle East Journel of Anaesthesiglogy» مجلد ٣ صفحة ٥ ــ ٤٠ عام ١٩٧٠ تحت عنوان The Development of Anesthesia in Lebanon (1800 —— 1914)



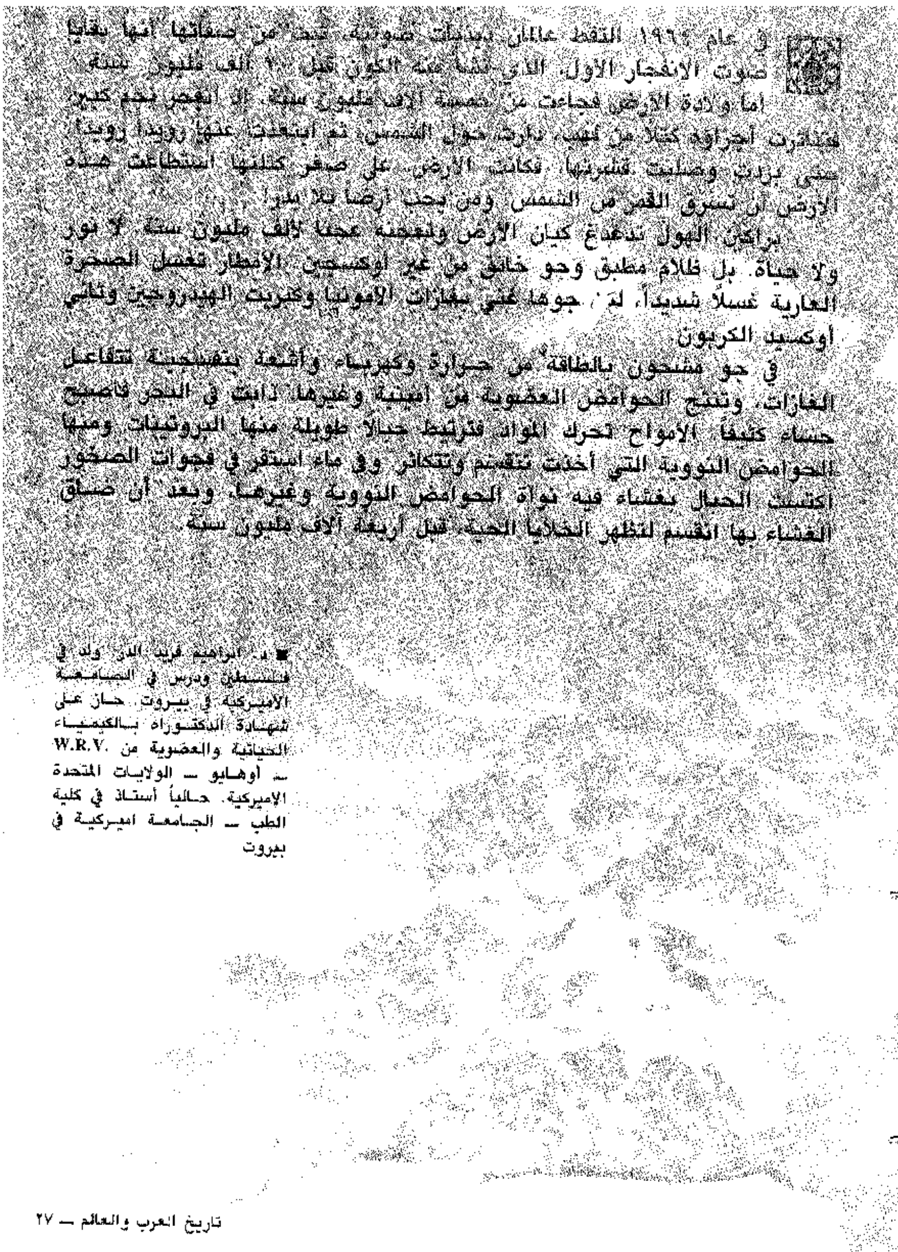
عندما يدرس المؤرخ الوثائق، يجب الا ينسى أبداً وجود تلك الحقيقة الصامتة، التي لا تطلعنا عليها النصوص.

«ر. لاتوش»



رحلة إلى ما قبل التاريخ

د. ابراهيم فريد الدّر



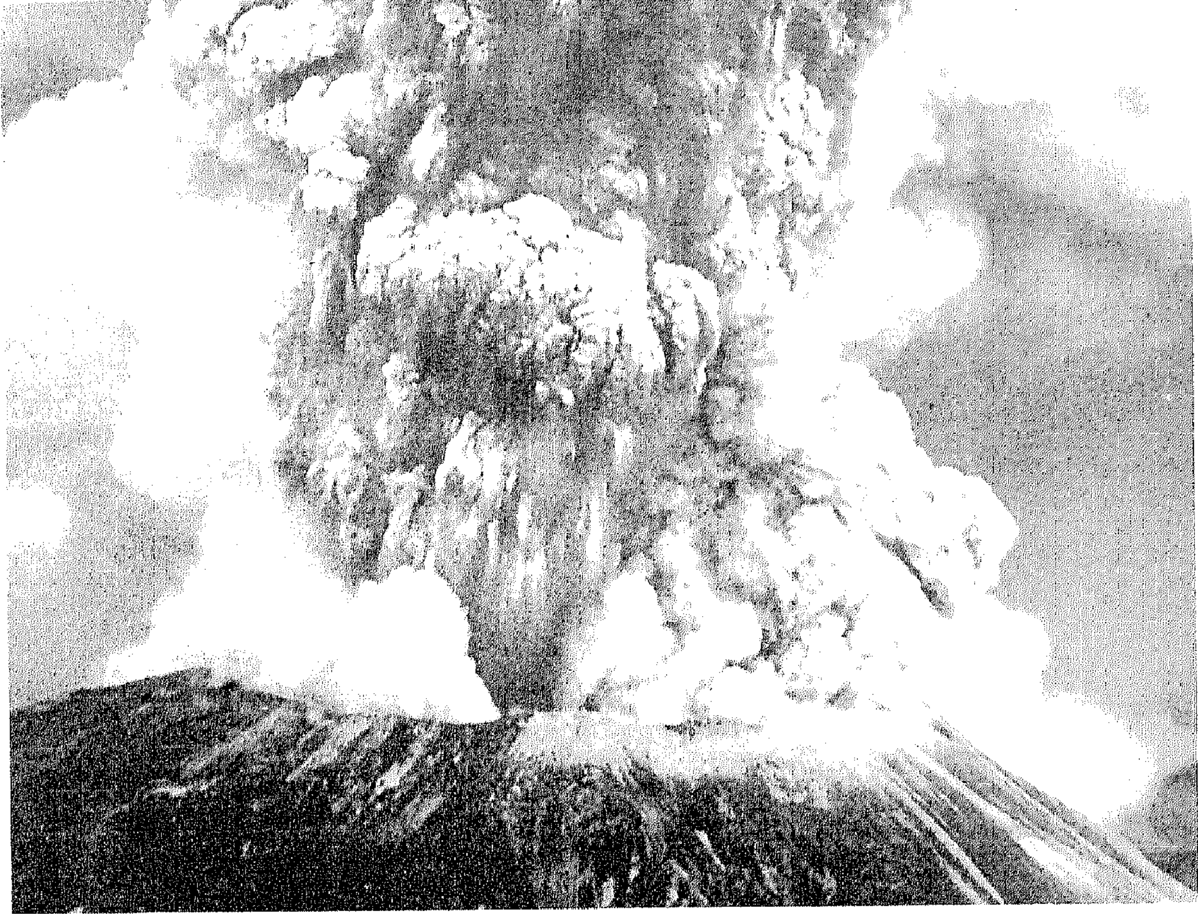
في عام ١٩٦٤ التقط عالمان ذبذبات صوتية، تبيّن من صفاتها أنها بقايا صوت الانفجار الأول الذي نشأ منه الكون قبل ٢٠ ألف مليون سنة.

أما ولادة الأرض فجاءت من خمسة آلاف مليون سنة. إذ انفجر نجم كبير فتناثرت أجزاؤه كتلاً من لهب، باردة حول الشمس ثم ابتعدت عنها رويداً رويداً حتى بردت وصلبت قشرتها. فكانت الأرض على صغر كتلتها استطاعت هذه الأرض أن تسرق القمر من الشمس ومن يحب أرضاً بلا قمر!

براكين الهول تدغدغ كيان الأرض وتعجنه عجناً لألف مليون سنة. لا نور ولا حياة. بل ظلام مطبق وجو خانق من غير أوكسجين. الأمطار تغسل الصخرة العارية غسلاً شديداً، لمّ، جوها غني بغازات الأمونيا وكبريت الهيدروجين وثاني أوكسيد الكربون.

في جو مشحون بالطاقة من حرارة وكهرباء وأشعة بنفسجية تتفاعل الغازات، وتنتج الحوامض العضوية من أمينية وغيرها ذابت في البحر فأصبح حساء كثيفاً. الأمواج تحرك المواد فترتبط حبالاً طويلة منها البروتينات ومنها الحوامض النووية التي أخذت تنقسم وتتكاثر وفي ماء استقر في فجوات الصخور اكتست الحبال بغشاء فيه نواة الحوامض النووية وغيرها، وبعد أن ضاق الغشاء بها انقسم لتظهر الخلايا الحية، قبل أربعة آلاف مليون سنة.

■ د. ابراهيم فريد الدّر ولد في فلسطين ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت. حاز على شهادة الدكتوراه بالكيمياء الحياتية والعضوية من W.R.V. ـ اوهايو ـ الولايات المتحدة الاميركية. حالياً أستاذ في كلية الطب ـ الجامعة اميركية في بيروت



بركان ولاية واشنطن على المحيط الهادي الذي أزاح ٤٠٠ متر من جبل علوه ٣٠٠٠ متر عام ١٩٨٠، قوته ٥٠٠ قنبلة ذرية هيرشيمية، وهو دون طنين بعوضة بالنسبة لما حدث قبل التاريخ.

لم يشهد أحد هذا الهول الذي لا يستطيع بشر أن يتخيله والانسان يصف براكين اليوم بالهول! أضخم بركان عرفه الانسان هو (كراكاتاو) الذي أزال جزيرة أندونيسية من الوجود عام ١٨٨٣. هبطت حرارة العالم لسنتين. اهتزت الأمواج فقتلت ٣٦٠٠٠ نسمة، وحركت سفناً راسية في بريطانيا. صوته سمع على بعد ٥٠٠٠ كيلومتر. يقدر الخبراء قوته بثلاثين قنبلة هيدروجينية، وما هي إلا فتيل سراج إذا قيست بمخاض الأرض!.

الصخور تشهد على ما حدث:

إذا لم يشهد بشر تلك الوقائع، فالصخور تشهد عليها، بما تحمله من آثار تلك الأهوال، وبقايا المخلوقات البائدة. الصخور سجلات صامتة رتبها الزمن ليقرأها الانسان ويتبصر. من مئتي سنة لاحظ العلماء فروقاً جوهرية في كيان الصخور، فاستطاعوا تقرير عمرها بوسائل مختلفة أحدثها النظائر المشعة. بالمجهر تستطيع رؤية هياكل كائنات غريبة محفوظة في الصخور. ولربما أسعدك الحظ فرأيت هيكلاً كاملاً في صخرة مفلوقة. ولو كنت من هواة العنبر لوجدت في صمغه القديم فراشة مجنحة لا مثيل لها اليوم، سجنها الزمن في جوف الصمغ. تسمى هذه الآثار أحفورات. هي على أنواع، وحفظت بطرق مختلفة. المهم أن الاحفورات سجلات موثوق بها مرتبة زمنياً، وإن كانت ناقصة أحياناً.

بديهي أن كائناً رخوا بلا عظام أو صدف لن يحفظ، ولا تلك الخلايا الطرية التي نشأت أولاً. لكن في الأحفورات معلومات تدلنا على وقائع تلك الملايين من السنين الغابرة. عوامل الزمن العاملة بهدوء كفلت ترتيب السجلات. أنت لا ترى المطر والجفاف ينحتان الجبال حتى

تمسي القمة الشاهقة وادياً سحيقاً. ولا ترى نهر الأمازون مثلاً يحمل الفا وثلاثمئة طن من التراب يقذفها سنوياً إلى قاع المحيط، فتتكدس طبقة طبقة، ثم تتحجر لترتفع صخوراً بعد أجيال. سطح الأرض نفسه ينخفض قدماً عن سطح البحر كل ٩٠٠٠ سنة. التراب المجروف يحمل قبور الكائنات بحسب أزمانها. وهكذا سنقوم برحلة إلى ما قبل التاريخ المكتوب على ورق. ولا بد من القول بأن علوم الكيمياء والتشريح والأجنة وغيرها يسرت تقرير تسلسل الكائنات وتقلبها أو تحولها خلال العصور.

يسمي العلماء عصور التقلبات اما باسم البلد الذي وجدت فيه الاحفورات. وإما باسم أعظم حدث آنذاك، وإما باسم الكائنات. سنعتمد الزمان مقياساً في رحلتنا إلى الماضي البعيد.

أقدم الأحياء:

في أواخر ١٩٧٧ اكتشف العلماء أحفورات في صخور أفريقية عمرها ٣½ ألف مليون سنة، فوجدوا جراثيم ثبت بعد فحوص دقيقة أنها لا تستطيع الحياة في جو فيه أوكسجين، لكنها تستعمل الهيدروجين وغاز ثاني أوكسيد الكربون لتصنع منهما غاز الميثين وغاز الاوكسجين. هي مضخات تغني الهواء بالأوكسجين، ولربما هي ومثيلاتها مهدت لظهور كائنات لا تعيش إلا على الأوكسجين. ترتيب البروتينات والحوامض النووية يختلف عما يوجد في النبات والحيوان، ولقد وجد العلماء خلفاء هذه الجراثيم في خبايا الحمامات الطبيعية الساخنة، حيث تعيش هذه الكائنات على درجة ٧٠ مئوية.

إذن أول أحفورة ثابتة ترجع إلى أربعة آلاف مليون سنة تقريباً. يليها بعد ذلك ما اكتشفه علماء من أحفورات في البحيرة الكبرى (كندا) لطحالب خضر وزرق (الجينات)، وطفيليات سوطية في طريقها إلى التحول نحو كائنات حيوانية. عمر هذه الأحفورات ألفا مليون سنة. باستثناء هذين الدليلين لا نعرف من الكائنات إلا ما عاش من ٦٠٠ مليون سنة! لكن العصور، التي سبقت هذا التاريخ، شهدت تقدماً سريعاً لتنوع الخلايا والكائنات، بدليل وجود بقايا حيوان مدرع (أقارب السرطان) قبل ٦٥٠ مليون سنة. كان له ١٢ رجلاً، وطوله ٦٥ سنتيمتراً جبال سيبيريا كانت مثواه! في هذه العصور حدثت تحولات بيولوجية عظيمة.

بعض الكائنات بقيت خلية واحدة طفيلية مثل الأميبا. أما غيرها فقد تجمع ليصبح مثل مستعمرة، إنما بلا تخصص لكن خلاياه متصلة بأقنية كثيرة مثل حيوان الاسفنج. وفي كائنات ثالثة تجمعت الخلايا وتميزت طبقات مهدت لظهور الكيان المعقد كبعض الديدان، ومنها ما صار له جوف (بطن) وآخر بقي بلا بطن أو أحشاء كالدود الطفيلي في الامعاء. وهناك كائنات ظهر فيه التحزز، أي مناطق محددة مهدت لتطور الأطراف والأعضاء. من هذه الكائنات ما استعمل كل مناطقه للأرجل كالديدان، ومنها ما ارتفع فتطورت أطراف مفصليه ورأس صغير مثل السرطان.

أما الكائنات التي تمهلت في تخصصها ولم تسرع في النضج فتركت لنفسها فرصة تقدم عظيم سنراه بعدئذ في حيوانات فقست بيضة على الأرض، بينما لجأ غيرها إلى تثبيت حرارة دمه فنشأ الجنين والحليب وتوسع الدماغ. المهم أن رحلتنا تبدأ من ٦٠٠ مليون سنة فقط حين كثرت حيوانات البحر.

١ ـ عصر السرطان الأول (أبو جلمبو) ما بين ٦٠٠ ـ ٥٠٠ مليون سنة من قبل:

لا حياة إلا في البحر حيث الدفء والاستقرار، أما الأرض فصخرة جرداء متقلبة. كل الكائنات رخوة طرية بلا عظم (لا فقريات). تكاثرت وأمكث بعضها بعضاً إلا ما اكتسب غشاء صدفياً أو صفات متقدمة، جدود قنديل البحر والمرجان واللؤلؤ والقوقعة والحلزون والأخطبوط والحبّار (صبيدج) لم تتحزّز إلى مناطق، فخسرت أمام الكركند والسرطان (أبو جلمبو) والعقرب، كلها تحززت وأصبح كيانها ذا فلقات ثلاث (رأس، بطن، مؤخرة) معززة بالدروع، والأطراف المفصلية. حصنت نفسها بالدروع وبالقدرة على الهرب أو

الهجوم واحكام القبض بما لها من أطراف مرنة وقوية.

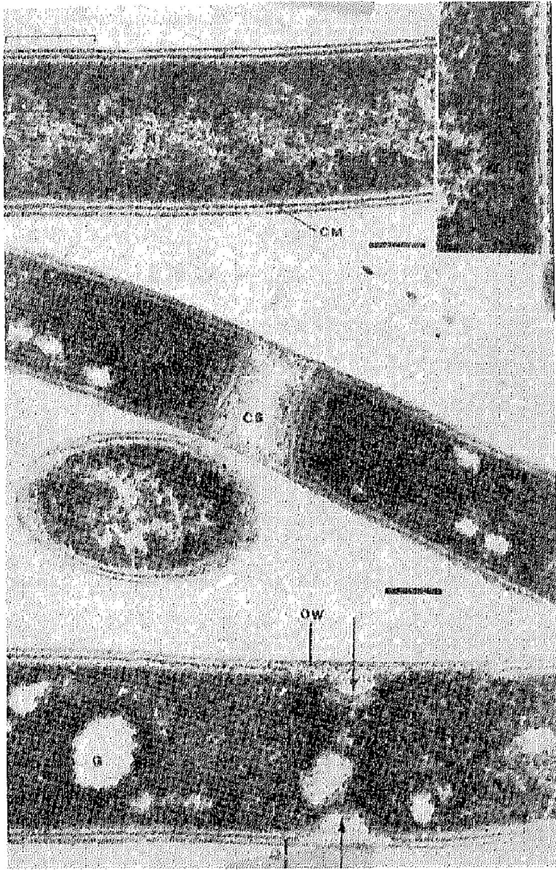
هذه المدرعات المثلثة (أو ذوات الفلقات الثلاث) عاشت في الطين تكمن وتنقض على فريستها، وسبحت في الماء، فكانت على ألف نوع من رأس الدبوس حجماً إلى ما كان طوله نصف متر. هيمنت مليوني سنة، فكان ثلثا الحيوانات منها في هذا العصر وفي العصر اللاحق.

صحيح أن الدرع القوي وقاها، لكن ثقل الدرع المتضخم على البدن عبء وقيد يسدان مجالات التقدم. انعزلت هذه الطبقة وتأخرت فانقرضت، وتركت لنا العقرب وأبا جلمبو والكركند! المحيط الهادي الذي وجد من أول النشأة عرف هذه المخلوقات. كان المحيط الهادي يغطي نصف آسيا إلى الشمال، والهملايا غير موجودة. أما أوروبا فكان يغطيها بحر آخر. لأن في صخور ويلز وجدت بقايا المدرعات، فالجيولوجيون يسمون هذا العصر (كامبْرا) الاسم اللاتيني لويلز. دام هذا العصر مئة مليون سنة.

٢ ــ عصر الظَّهر: ما بين ٥٠٠ ــ ٤٠٠ مليون سنة من قبل

صحيح أن عقارب البحر المدرعة مهيمنة، ومنها ما يكون ثلاثة أمتارطولاً، إلا أن النصف الأول من هذا العصر شهد فتحاً جديداً إذ نما كائن غير مدرع، إنما حمل عمودا غضروفياً على ظهره، فمهد لتطور العمود الفقري ومملكة الحيوانات الفقرية التي ستسود بعد حقبة من الزمن. لا نعرف هذا الكائن الجريء الذي رفض الصلب الخارجي فحمل عموده على ظهره فقط!

أما النصف الثاني من هذا العصر فقد شهد أيضاً تطوراً خطيراً إذ ما بين مد وجزرتعلقت بعض الطحالب النباتية بالبر فنمت نباتاً بدائياً بلا ورق وبلا زهر، فمهدت بذلك لغزو حيواني للبر. والحيوان يأكل اللحم لكنه مولع بالتغيير فلحق بطنه! بقايا النباتات الرائدة انحفرت في صخور استراليا. لا ندري أي حيوان غامر فانتقل إلى البر، وإن كانت العقارب تستكشف الشواطىء.



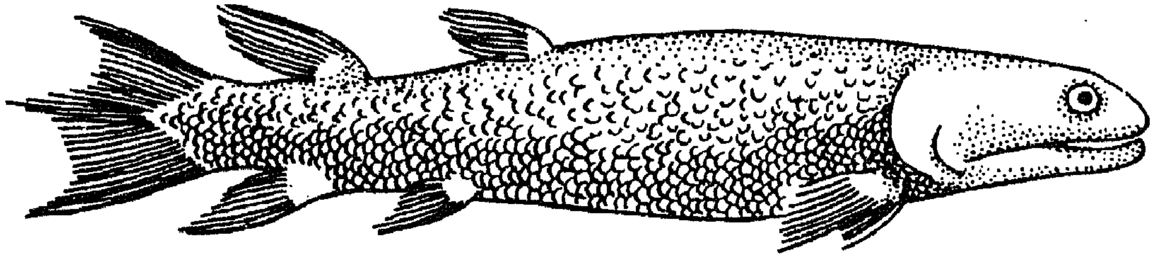
صورة بالمجهر الالكتروني لجراثيم في احفورات عمرها ٣,٥ ألف مليون سنة. لاحظ الخلية الواحدة وخليتين في مرحلة الانقسام.

أواخر هذا العصر تشهد تنوع الفقريات، وبقاياها موجودة في انجلترا حيث قطنت قبائلها القديمة. وفي نهر كلورادو ظهر أول سمك له عمود غضروفي غير عظمي.

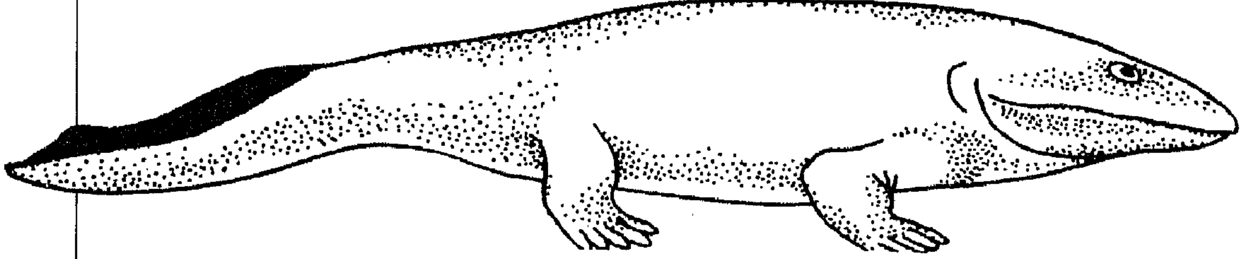
٣ ــ عصر السمك: من ٤٠٠ ــ ٣٥٠ مليون سنة

بعد انقراض ما هو ضخم نتيجة صدمات الطبيعة، سادت الأسماك فتنوعت وتقدمت، فبلغ سمك القرش ستة أمتار طولاً، وظهر السمك المدرع في المياه العذبة.

من أهم أحداث هذا العصر غزو الحيوان للبر وبدء المنافسة بين حياة البحر والبر. اللافقريات المتقدمة من زمن بعيد تركت البحر وانتشر العنكبوت وحشرات غير مجنحة والعث والسوس في البر. أما أصحاب الظهر (الفقريات) فبقيت في البحر أو قريباً من الشواطىء.



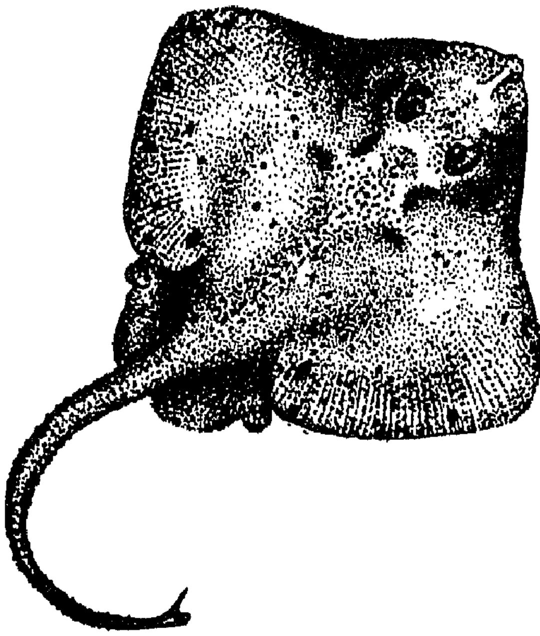
السمك (فوق) انقرضت من ٣٠٠ مليون سنة، ومنها جاءت زحافات كالمبين تحتها.



لربما بدأ الغزو نتيجة جفاف البحار إذ نعرف أن البر اتسع على حساب البحر، فكثرت المستنقعات، وهربت كائنات قادرة على البر، ولا سيما أن الأرض أخضرت وعلت الاشجار فيها إلى ١٥ متر، كما انتشرت في الشواطىء كثبان المرجان. عصر هادىء نسبياً، فخمسون مليون سنة حقبة طويلة لا تخلو من تقلبات بركانية وجليدية.

اشتد الجفاف آخر هذا العصر، فانقرضت أسماك كبيرة، لكن عاش سمك ظهرت فيه خصائص جديدة. بعض الأنواع حظيت برئة بدائية مكنتها من تنشق هواء البر، والخيشوم للبحر. فنيت جدودها وأحفادها وبقي لها اليوم ممثل بدائي يقطن المستنقعات. ومنها ما حظي أيضاً بزعانف تمكنها من الزحف أرضاً، ومنها ما كان له أربع قوائم بالاضافة إلى الرئة، مما مهد لظهور البرمائيات الممثلة اليوم بالضفدع.

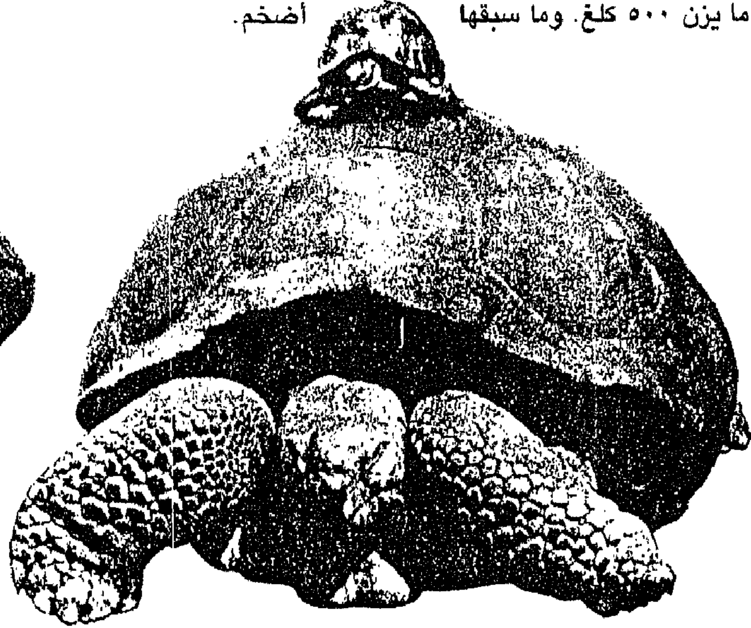
زائر من الماضي: ظن العلماء أن هذه الأسماك الانتقالية انقرضت قبل ٦٠ مليون سنة حتى ظهرت واحدة فقط عام ١٩٣٨. وفي عام ١٩٥٢ اصطاد عربي واحدة قرب مدغشقر، كانت سريعة العطب لكن العلماء استطاعوا تحديد هويتها. بلغ طولها متراً ونصف المتر، ووزنها ٤٠ كيلو، صيدت حين كانت على عمق



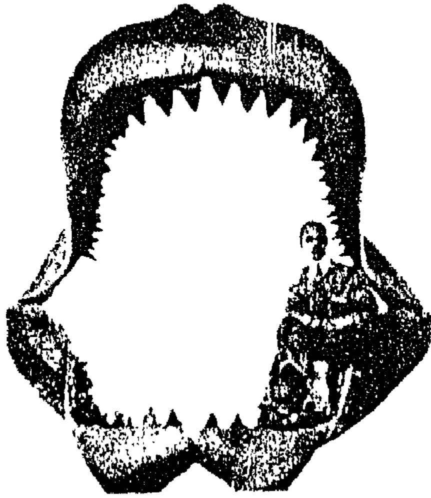
سمك من ذوات الرئة يستطيع التنفس بحراً وبراً. من مثله جاءت البرمائيات قبل ٣٠٠ مليون سنة.

٢٠ متر فقط! هي من سلالة هذا العصر المسمى «ديفون» (منطقة في بريطانيا).

المهم أن نهاية هذا العصر شهد انقساماً إذ انحصرت الأسماك المحضة في البحر، أما الأسماك الانتقالية البرمائية فقد فضلت البر والمستنقعات فكانت السيادة القادمة لها، إذ حملت شعلة التقدم.



السلحفاة العملاقة أطول الفقريات البرمائية، عمرها ٢٠٠ سنة ومنها ما يزن ٥٠٠ كلغ. وما سبقها أضخم.



حنك سمكة قرش انقرضت من مليون سنة، طولها ٢٥ متراً، ونابها طوله ١٠ سم، اكتشفت بقاياها اوائل هذا القرن.

٤ ــ عصر الضفدعة من ٣٥٠ ــ ٢٧٠ مليون سنة:

ساد هذا العصر البرمائيات إذ استطاعت النزول براً بما اكتسبته من عضلات وقلب متطور (له بطينات ثلاث بدلاً من اثنين كما في السمك)، إلا أنها لم تستطع التوغل في البر إذ لا تقدر على حفظ ماء جسمها. حتى اليوم لا تستطيع الضفدعة أن تبقى براً ذلك أنها تخسر ربع وزنها في ١٠ ساعات «برية». الماء ضروري للكبير ولفقس البيض. تذبذبت هذه الكائنات بين ماء ويابسة فانقرضت تاركة لنا الضفدعة، ذلك أن التردد لا يرجح التقدم! ضخمت البرمائيات إلى خمسة أمتار طولاً، وفي الضخامة بذور الفناء.

أهم حدث هو ظهور زحاف صغير يفقس أول بيضة على الأرض، فيؤذن بنهاية قريبة لهيمنة حياة البحر على البر.

خلال هذا العصر تمتعت الكائنات بدفء واستقرار ونمت الأشجار إلى علو ثلاثين متراً وامتدت المناطق الاستوائية من القطب إلى القطب. سماه الجيولوجيون عصر الفحم لأنه ظهرت هذه المناجم آنذاك بعد أن أفنت عصور سابقة كائنات ضخمة وحولتها قبوراً فحمية. البروتين، مادة الحياة، نصفها من عنصر الكربون سواء في الحيوان أو النبات.

قبور الفحم حفظت ٧٠٠ نوع من السمك، غير الحشرات والبرمائيات والمدرعات.

بانتهاء هذا العصر الذي دام ثمانين مليون سنة انتهت الأيام السهلة للمخلوقات، إذ بدأ المناخ يبرد وينشف ويشتد غليان الأرض فيفنى الضخم والضعيف إلا ما كان مرناً ومحظوظاً.

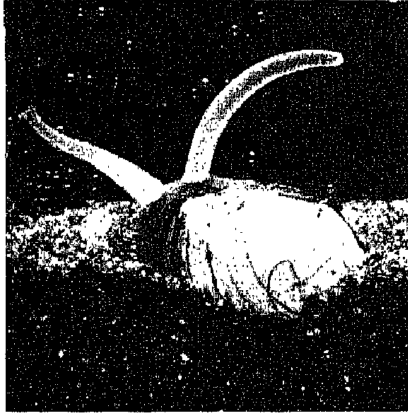
٥ ــ عصر الحرباء أو الزحّاف من ٢٧٠ ــ ٢٢٥ مليون سنة:

الجفاف يزداد وتنحسر البحار وتندثر الأشجار. بريطانيا مستنقعة شديدة الملوحة، والجبال يتشبث بها العليق. يتبع الجفاف هزات مرعبة فتغوص بحيرات وكتل أرضية، وترتفع الجبال الشرقية في الولايات الأميركية المتحدة. ولولا أن عادت الرطوبة قليلاً لفني ما على الأرض، وإن بقي النصف الشمالي من الكرة الأرضية قاحلاً.

تنتهي هيمنة مخلوقات البحر، ويكثر الذباب على الأرض وغيره من حشرات مجنحة. النمل الأحمر والأبيض يسعى.

أما أكثر الحيوانات رقياً فهي الزحاف صاحب البيضة. دينوسورات صغيرة (١٥ سنتمتر) تتنوع وتزدهر. وهكذا بانتهاء هذا





صدفة محار عملاقة وزنها ٢٢٠ كلغ،
جدودها أضخم منها،
والمحار الحاضر يبدو أصغر.

العصر تنتهي أنواع الحياة القديمة. سماه الجيولوجيون عصر بيرم، منطقة روسية غنية بأحفورات المدرعات التي انقرضت نهائياً، والبرمائيات إلا قليلاً منها.

في هذا العصر تطورت الشرنقة لتتقي بعض الحشرات قلة الماء والغذاء، وتنوعت كائنات شبيهة بالتمساح وثعابين الماء والبر.

هو عصر الحرباء لأن الدينوسور (الحرباء المخيفة) سيسود طويلاً، وبأشكال غريبة ومرعبة.

٦ ـ عصر الدينوسور من ٢٢٥ ـ ٧٠ مليون سنة:

عصر بثلاث حقب جيولوجية، انما متحدة بيولوجياً ذلك أن الهيمنة للدينوسور وجماعته (عصر الحياة الوسطى).

الحقبة الأولى تشهد ظهور جبال ألمانيا بشعبها الثلاث. لا هزات مخيفة، والقارات بما فيها استراليا غير منفصلة. الذين يتسلقون اليوم جبال الدولوميت (بين ايطاليا والنمسا) لن يجدوها آنذاك لأنها كانت محيطاً كبيراً.

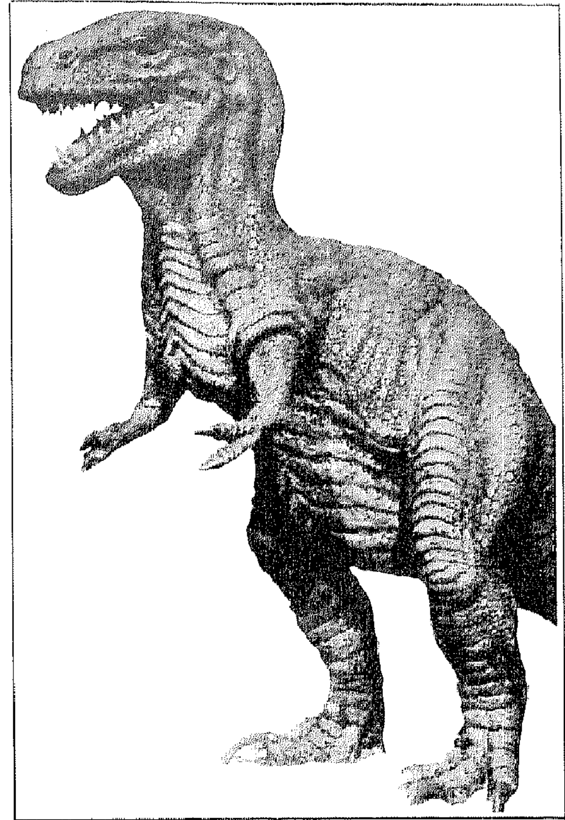
أعظم حدث هو ظهور حيوان ذي دم دافىء (ثابت الحرارة) وله ثدي. هو أول اللبونات. لكنه تافه مغمور، فالأسماك في البحر والدينوسور في البر أقوى المخلوقات.

حواس الكائنات تنتظم ونلاحظ انتشار الذكاء، والقدرة على التعلم بدليل ما نراه في عيون الأخطبوط والحبار وجهازيهما العصبيين، وكانت هذه المخلوقات والكركند قد اخذت آنذاك الشكل المعروف حاضراً.

أحفورات هذا العصر كشفت ١٣٠٠ نوع من حشرات مجنّحة منها ما غطى جناحه متراً من الأرض، والصرصور مزدهر.

اللبون ذو الدم الدافىء هو فرع من حرباء كبيرة اختلف عن بقية الزحافات إذ كان له جلد وحنك وثدي كاللبونات (أيكثيدوسور) كان دمه دافئاً، تخلى عن فقس البيض وحظي بالجنين. تقدم مفيد في عصر اشتد فيه الجليد الذي لا يساعد نضج البيض، ذلك أن الدينوسور الحقيقي كان يدفن بيضه في الرمل لتنضج الحرارة جنين البيضة. وهكذا كما أتقت الحشرات قلة الغذاء بالشرنقة. أتقت هذه الكائنات البرد بجنين داخلي كفل لها البقاء والتقدم ولربما ينشأ التطور في المحن والأخطار، لا في الهدوء والركود.

في الحقبة الثانية من هذا العصر تظهر جبال جورا بين فرنسا وسويسرا. الأمطار تهطل والأنهار تجري ويعتدل المناخ فتظهر أول زهرة.



الدينوصور

مطر بعد جفاف يزيل الجبال فيستعيد البحر مساحات فقدها، فيغمر أكثر آسيا وأوروبا.

الزحافات تزداد نوعاً وعدداً وضخامة. منها ما يسود البر، ومنها ما يقطن المياه ويفترس الأسماك. وهنا يظهر أول زحاف تنقلب قشرته إلى جلد ينمو منه الريش لكنه يحتفظ بصفات الزحافات من أسنان وهياكل عظيمة، وتظهر في غيره ظاهرة جديدة إذ يخترق الجلد أجنحة فيطير الزحاف ولا يزحف بعد ذلك. أجنحته تغطي ٩ أمتار من الأرض. وهكذا نجد زحافات بحجم الأرنب إلى ما يبلغ ٣٣ متراً طولاً و٣٥ طناً وزناً، فلا تقوى على البقاء براً فتلجأ إلى مياه البحريات والمستنقعات لتحملها. تخصص الزحافات في ضخامة البدن وضمور الرأس قاد إلى انقراض بعض منها حتى في عصورها الذهبية. كل الكائنات تضخم وتكبر، ونشاهد السلحفاة العملاقة في البحر، أما اللبونات فلا شأن لها. أكبرها بحجم فأر صغير، تخشى الأماكن المكشوفة فتلوذ بالغابات، لكنها أشد الكائنات ذكاء آنذاك!

الجزء الثالث هو عصر الطبشور نسبة إلى ارتفاع صخور كلسية بيض على شواطىء بريطانيا. الصخور الطبشورية تغطي أميركا وكندا وألاسكا، وتنعزل استراليا عن العالم. أما أميركا فما زالت متصلة بسيبيريا.

الجبال الغربية لأميركا تظهر بالرغم من الجفاف وكثرة المستنقعات المناخ معتدل لكن الجليد يغطي استراليا. بقية المناطق تشهد ازدهار التين والصنوبر والغار والجوز والحور. بالرغم من كل ذلك لم يتطور سطح الأرض في أوائل هذه الحقبة ليسع الكائنات فبقيت أكثر اللبونات الضعيفة على الشجر، ولم تهجر بعض اللبونات شجرها بانتهاء هذا العصر.

أهم حدث هنا هو انقسام اللبونات إلى ذوات الصرة وذوات الجيب (كنغارو)، في استراليا التي اختصت بذوات الجيب.

انتهى هذا العصر فانقرض كل ضخم عمالقه الأخطبوط والحبار وحصان البحر (كان مترين) انقرض، وبقي ما هو صغير منها. ولم تترك الزحافات إلا التمساح والحرباء والثعبان وسلاحف البر والماء.

لا نعرف لماذا انقرضت هذه المخلوقات الضخمة. عوامل كثيرة اجتمعت فحرمتها من بقاء. بدن كبير ودماغ بحجم حبة الجوز، والغباء قتال. الأوبئة والكوارث الطبيعية. نقص في صغارها إذ اهتدى اللبون الصغير إلى غذاء البيض فسرقت بيض هذه الزحافات! بقايا بيض الزحافات وجدت في فرنسا، فكانت أكبرها ٣٠ سنتمتر طولاً وقطرها ٢٥ سنتمتر، من ٨٠ مليون سنة آخر أيام هذه الكتل اللحمية الضخمة (برونتوسوروس وغيرها).

٧ ـ عصر اللبونات من ٧٠ مليون سنة حتى الآن:

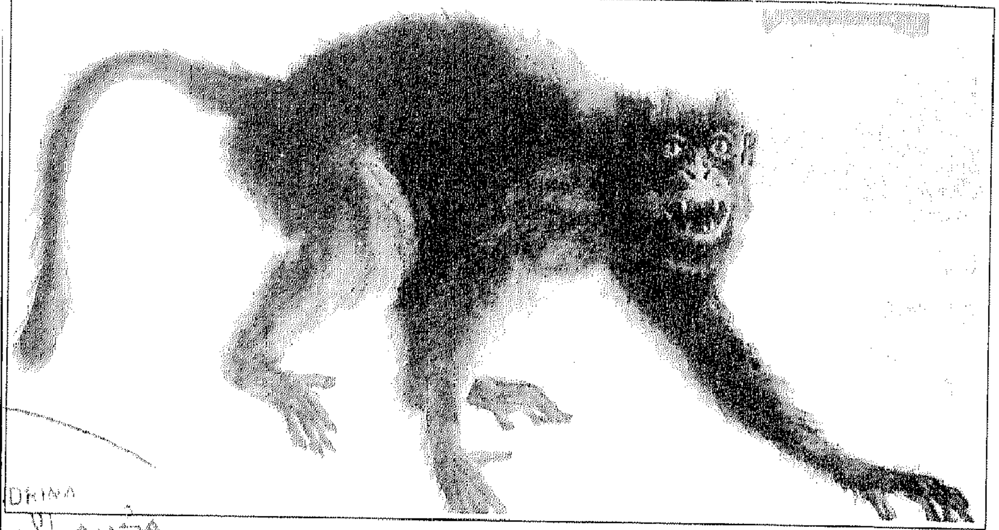
هو عصر الحياة الجديدة بحقب ثلاث بهيمنة حيوانات لها ثدي. بدأت هيمنة اللبونات بامتحان عسير ومحنة مرعبة إذ اهتزت الأرض بمراجلها وبراكينها فغاصت أوروبا تحت الماء، وأجزاء من آسيا تغرق، ويولد المحيطان الأطلسي والهندي. أما لندن فهي منطقة استوائية تنعم بظل النخيل. هذا الهول قضى على الزحافات

الضخمة كلها، لكنه عجز عن افناء اللبونات فانتشرت وازدهرت وهيمنت ولو أن الجليد يغطي بقاعاً كبيرة. الأمطار تغمر أميركا الشمالية فتكثر السهول والمراعي، والأشجار تزهر وتثمر، وهذا من حسن طالع آكلات العشب.

خلال هذا الحقبة نشأت جدود الحيوانات

الفيوم من جنتها. هو من القرود الانتقالية المهمة.

هدوء الأرض وانتشار المراعي شجع بعض لبونات الشجر بالنزول إلى الأرض. وبقي على الشجر لبونات أكثر ذكاء وتقدماً! كل اللبونات تحمل جنينها في بطنها منتشرة في الأرض إلا استراليا المعزولة بلبونات من ذوات الجيب.



القرد المصري عاش قبل ٣٧ مليون سنة، كان أذكى المخلوقات وأكثرها مهارة آنذاك. بقاياه في الفيوم اكتشفت عام ١٩٦٥

المعروفة اليوم. كان الحصان بحجم الكلب الصغير (طوله ٧٠ سم) ونشأ أولاً في مراعي أميركا الشمالية ثم تنوع وتشتت. لم يكن له قوة وجلال الجواد العصري لكنه كان جميلاً خجولاً.

بقيت الأرض هائجة مائجة ثلاثين مليون سنة. وبانتهاء هذه المدة المجنونة استقرت معالم القارات تقريباً، وكائنات البحر تقرب من كائنات اليوم.

في الحقبة التالية نعمت الأرض بهدوء دام ١٥ مليون سنة، فتتسع الأرض على حساب البحر، وتظهر جبال الألب، وجدود الدبب والقطط. لكن أعظم حدث ظهور قرد بلا ذنب، بينما انتشرت السعادين. كانت صحراء الفيوم (٤٠ كيلومتر جنوب غربي القاهرة) التي لا يطاق حرها اليوم (درجة ٥٧ مئوية) غابات ومراع قبل ثلاثين مليون سنة، ترعرعت فيها قرود متقدمة بحجم القطة (٥ كيلو). عاشت على الشجر وأكلت الفواكه وأبدت ذكاء ملحوظاً. بقاياها محفوظة في حمم البراكين التي جرفت

آكلات العشب تتضخم فيكون رايتوسيروس أكبرها. بقاياه في أوروبا وآسيا تدل على طول ٩ أمتار وعلو ٩ أمتار إلى قمة الرأس أو ٦ أمتار إلى الكتف، ووزنه ٣٢ طناً. اكتشفت عظامه في الباكستان عام ١٩٠٧. أفاعي الفيوم من ٥٠ مليون سنة مرعبة جداً. البايثون ثعبان طوله ١٤ متراً كما تدل أحفورات عموده الفقري. الضواري تزدهر أيضاً.

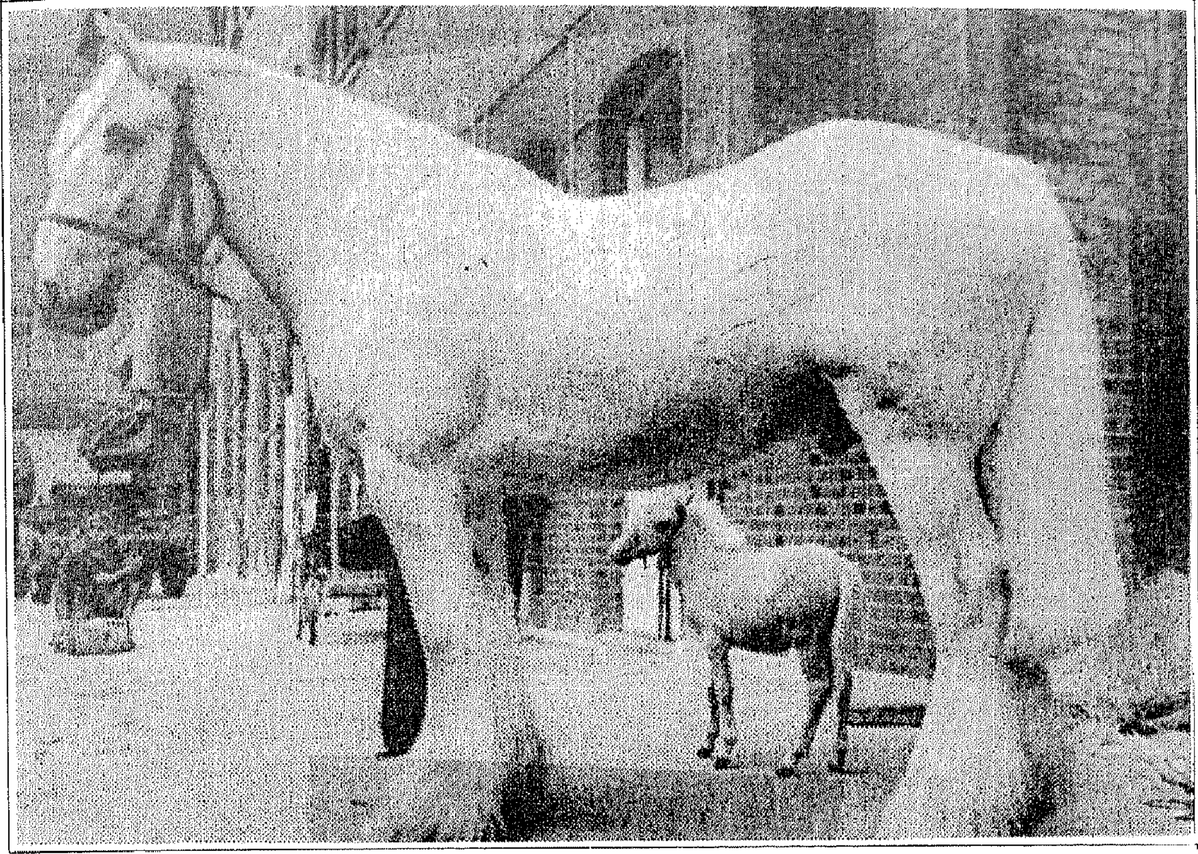
ثم بدأت حقبة ثالثة جنت خلالها الأرض لمدة ١٥ مليون سنة. غلياناً وانزلاقات، فيولد البحر الأبيض المتوسط في هذا الجنون، ولربما فسر ذلك جنون أهله!

آسيا تتفجر براكينها فترفع من قعر المحيط جبال هملايا لتعلو ٩٠٠٠ متر فوق سطح البحر!

تتصل أوروبا بآسيا نهائياً ويتم التقسيم النهائي بين القارات وتكتمل سلاسل الألب.

لا ينجو من الشجر إلا العنيد مثل الأرز والجوز والبلوط. الفيل ينتشر ويصل إلى أميركا الشمالية، الطير يكثر (بط وبطريق بطول الانسان).

أما العجائب فهي لسهول أفريقيا التي ظهر



ظهر الحصان صغيراً (طوله ٧٠ سنتيمتراً) في مراعي أميركا الشمالية قبل ٧٠ مليون سنة، الصورة اعلاه تبين جوادين مختلفين، الصغير علوه ٦٨ سنتيمتراً وهو نشأ جديد من الارجنتين، أما الآخر فهو حصان انجليزي علوه متران ووزنه طن.

فيها أول من انتصب ومشى وتنقل بين القارات. أنواع ظهرت منه متفاوتة في تطورها ومنعزلة عن بعضها بعضاً. أحدها ترك ثلاث شعب افترقت نهائياً وأقدمها انقرض. يسمى العلماء الجد المشترك (درايوبيثيكوس) الذي عاش قبل عشرين مليون سنة. إذا كان الفرع الأول قد انقرض فان الفرع الثاني فقد أعقب مجموعة من الكائنات الممثلة اليوم بالرئيسيات مثل الشمبانزي والغوريلا وأورانج يوتان. كل هذه الأنواع معزولة جنسياً عن بعضها بعضاً، وقد تم هذا العزل قبل ١٤ مليون سنة.

أما الفرع الثالث الذي وجدت بقاياه في القارة الهندية وأفريقيا الشرقية والبلاد العربية، فقد سماه العلماء درامابيثيكوس، وقد ازدهر قبل ١٤ مليون سنة. من هذا الجد خرجت فئات بشرية. مختلفة في درجة ذكائها. ومنه خرج استرالوبيثيكوس الذي انقرض لغبائه النسبي، ولو أنه صنع الأدوات. عاش غيره وأعقب أنواعاً متقدمة مثل الانسان المنتصب، ثم ظهر أعلاها المسمى (الانسان الحكيم) ولقد سمي (الحكيم) سخرية. هذا هو انسان اليوم. أما الانسان المنتصب فقد انقرض، وكان حجم جمجمته ٩٠٠ سنتمتر مكعب، بينما يتمتع انسان اليوم بحجم يبلغ ١٤٠٠.

شهدت الحقبة الأخيرة من هذا العصر هدوءاً لتسع ملايين سنة، فالقارات ثابتة! لا انشقاق! وجدت بحار البلطيق والشمال وقزوين. المعالم الجغرافية ومملكتا الحيوان والنبات هي على ما هي عليه اليوم تقريباً، الأوبئة تقضي على بعض اللبونات فتنخفض أنواعها من ١٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠. الفيل يسرح ويمرح في لندن، والقرود في غابات أفريقيا، والعناصر البشرية تطور الأدوات البدائية.



الكانجارو

٧ ـ عصر الجليد من مليون سنة:

بعد هدوء دام تسعة ملايين سنة بدأ عصر، حدوده الجليد الذي أطبق على الأرض مليون سنة. انحسر بعد هذه المدة لكنه ترك لنا القطبين الشمالي والجنوبي. بينما عاد الاتصال بين الأميركتين. يسمى هذا العصر (بليستوسين) أي العصر الجديد.

عمق الجليد في أميركا ١٥٠٠ متر وفي ألمانيا ٧٠٠ متر. زحف الجليد من الشمال جنوباً ومن الجنوب شمالاً فغطى استراليا وأوروبا وأكثر آسيا، وعجز عن تغطية أفريقيا وبلادنا. موجات أربع تشتد وترتد حتى اندثرت الأرض والمياه. المنطقة الاستوائية تعاني طوفاناً شديداً. شرقي آسيا وجنوب أميركا خالٍ من الجليد.

حبس المياه في سجن الجليد خفض سطح البحار والمحيطات ثمانين متراً فنقصت كمية المياه العالمية، فجفت الأشجار الضخمة والزهر وهربت الحيوانات جنوباً إلى أفريقيا. العطش يفني الحيوان ومنها ما غرق في وحل كثيف محاولاً الشرب، كما تدلنا أحفورات في لوس انجلوس حيث وجدت قطعان بأسرها. منها ثلاثة آلاف نمر صاحب الناب. السيف انقرض أبداً. من المفترسات ما كان طولها ٤ أمتار وتعلو عن الأرض مترين. الفيل الضخم خمسة أمتار عن الأرض يموت وينقرض. وكذلك الحوت الأزرق بثلاثين متراً من الطول وضخامة تفوق الدينوسور. بقيت الحيوانات الصغيرة نسبياً وهي ما نعرفها اليوم. كلما أرتد الجليد عادت الحيوانات إلى مرابعها لتعلق بالجليد ثانية حتى امتنعت عن مغادرة أفريقيا فاغتنت هذه القارة بأنواع الحيوانات المختلفة.

باختفاء الضواري الهائلة تحسنت فرص البقاء والتقدم لمملكة القرود على أنواعها... وأصبح البقاء لذوات الذكاء والحيل! ونجد من الجدود من أمسى يقتل بالحجر ويستعمله أدوات بدائية وتنعزل الحيوانات أنواعاً، وتقترب من صورتها الحاضرة.

٨ ـ عصر الانسان الحاضر من ١٠,٠٠٠ سنة:

انحسر الجليد فارتفعت البحار. بريطانيا التي اتصلت مع أوروبا في حقبة الجليد عادت فانفصلت عنها نهائياً. وجه الأرض ومناخاته وكائناته هي كما نعرفها اليوم. الجفاف يشتد في شمال أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط فتنشأ الصحارى. بعودة الدفء تعود الغابات وينتشر الصنوبر والصفصاف والحور والبلوط.

الانسان يدجن الحيوانات ويفلح الأرض ويخف نشاطه في الصيد. نمت الحضارات في الشرق الأوسط ما بين النهرين وعلى النيل. الكتابة بالرموز وما تلاها من خطوط ولغات. فعرف العالم أربعة آلاف لغة!

بقايا الصياد الأميركي معروفة من ١١٢٠٠ سنة، كذلك تدجين الخراف في أوروبا، أما الشرق فدجن الخراف والماعز والكلاب من ٨٠٠٠ سنة أو أكثر، وأنشأ الزراعة.

يسمى هذا العصر (هولوسين) أي عصر التمام والكمال. وبه بدأت حضارة الانسان إلى ما نعرفه اليوم!

●

المواجهة البريطانيّة العُثمانيّة في اليمن

حادثة المخا الأولى ١٨١٧

د. قيصر فرح
ترجمة: بلقيس ابراهيم الحضراني

٣٨ ـ تاريخ العرب والعالم

بدأت المواجهة العثمانية الانجليزية في اليمن بحادثة جرت في ميناء المخا عام ١٨١٧ نظراً للأهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها على مدخل البحر الأحمر إذ كانت تعتبر همزة الوصل الرئيسية للتجارة البريطانية المرتبطة بالهند. وقد استخدمت بالاضافة إلى هذا كمحطة تموين رئيسية لجميع السفن البريطانية العاملة في البحر الأحمر.

ترجع بداية الصلات التجارية مع المخا الى ١٦٢٨ عندما أقيم أول معمل لانتاج البن وظهر اسمها أول مرة في السجلات التجارية لشركة الهند الشرقية عام ١٦٦٠(١). ونشير الى هذه السجلات لأنها كانت تحظى بالأهمية التجارية في القرن الثامن نسبة الى العائدات الضخمة التي كانت تحققها الشركة، الّا أن أهميتها انحسرت تماماً بعد مرور قرن نتيجة للضرائب الباهظة التي أرهقت التجارة ولقربها أيضاً من عدن حيث انتقلت عملية شحن البن بعد ذلك الى مينا عدن والحديدة(٢).

وقد أثارت المصالح البريطانية في المخا أولاً ثم في عدن اهتمام الحكومة العثمانية وخاصة بعد الحادثة التي جرت في ١٨٢٠ حيث اعتبرت المطالب البريطانية بمثابة مخطط يستهدف جنوب الجزيرة العربية الأمر الذي يهدد سيادتها وحقوقها في تلك الأراضي.

تضافرت مشاعر الشك والريبة تجاه الدوافع البريطانية مع الكراهية التي يكنها المواطنون تجاه التجارة البريطانية ـ الهندية لتؤدي الى ما وصفه البريطانيون فيما بعد ـ الى الهجوم العنيف على معمل البن في المخا في يونيو عام ١٨١٧. اضافة الى هذا فقد اتهم وكيل الأمام في المخا بسوء معاملة المقيم البريطاني لشركة الهند الشرقية وطاقمه. فاتخذت حكومة بومباي من هذا الحدث فرصة لتحقيق المزيد من الامتيازات الاقليمية وقدمت المطالب التالية للامام:

ـ تقديم اعتذار على ما حصل.
ـ ابعاد ممثل الامام عن منصبه.
ـ معاقبة مرتكبي الهجوم على المعمل.
ـ تعويض الخسائر التي لحقت بشركة الهند الشرقية وبموظفيها من جراء نهب وتدمير المعمل.

وقام الحاكم العام بالتصديق عليها بعد اجتماع عام عقد لهذا الغرض وتم ارسالها تحت حراسة اسطول بحري بقيادة الكابتن (لومي) الذي أبحر على ظهر «توباز» في نوفمبر ١٨٢٠. وخول الكابتن بروس المقيم البريطاني في بوشهر لاجراء المفاوضات مع ممثلي الامام نيابة عن حكومة بومباي.

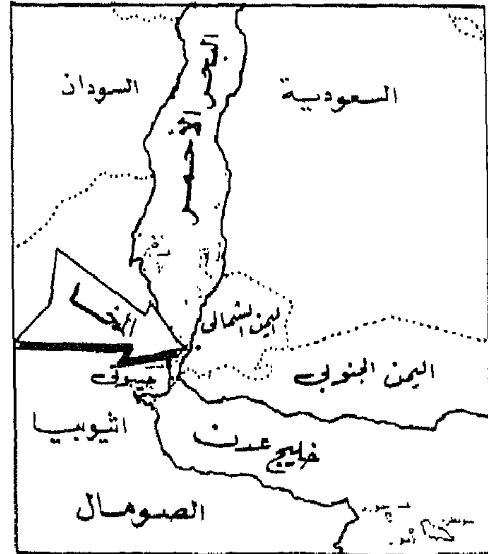
وعندما رفض الامام النزول عند رغبة الشركة في تلبية هذه المطالب قامت البحرية البريطانية بقصف ميناء المخا في ٤ ديسمبر ١٨٣٠ ليجبر الامام بعدها على التوقيع على معاهدة تضمنت الكثير من التنازلات والامتيازات لصالح شركة الهند البريطانية الشرقية.

بنود المعاهدة:

بعد أن تضمنت الافتتاحية تعهداً قدمه نائب المقيم روبسون بالاستجابة لرغبة الامام فيما يتعلق بالخدمات العامة لتتبعه الشروط التالية:

- للمقيم حق الاحتفاظ بثلاثين حارساً اسوة بالمقيم البريطاني في بغداد، والبصرة وبوشهر.
- يحق للمقيم الحصول على قطعة أرض يخصص جزء منها لرفع العلم البريطاني وآخر لدفن الرعايا غير المسلمين.
- يتولى المقيم فصل قضايا ومنازعات الرعايا البريطانيين فيما عدا المسلمين منهم الذين اختاروا المثول أمام الشريعة الاسلامية.
- السماح للمقيم باستخدام حصان وله الحق في المرور من جميع بوابات المخا والمناطق المجاورة.
- يحق له أيضاً السفر الى صنعاء والاتصال بالامام مباشرة في الأمور التي تهم الطرفين.

أما فيما يتعلق بالجانب التجاري فقد جاءت المعاهدة مؤكدة على المصالح البريطانية فمثلاً جاء في المادة (٥) اعفاء السفن البريطانية الراسية من دفع ضرائب تقدر بـ ٤٠٠ ريال



استرالي سواء كانت محملة أو فارغة.

وفي المادة (٦) يمتد هذا الامتياز ليشمل جميع رعايا التاج البريطاني من هنود بريطانيين ــ تجار «سورات» الذين يتاجرون تحت حماية العلم البريطاني حتى الهنود أنفسهم.

أما المادة (٧) فقد نصت على خفض التعرفة الجمركية من ٣,٥ ٪ الى ٢,٢٥ ٪[٤].

ردود فعل الدول الرسمية تجاه هذه الأحداث:

قوبلت هذه الأحداث بقلق كبير في أوساط القسطنطينية السياسية حيث وصفتها حكومة السلطنة بكونها مخططاً يستهدف السيطرة على اليمن. وتم نقل هذا الاتهام الى السفير البريطاني سترانجفورد الذي قام بدوره بالاتصال بمكتب الهند يطلب تفسيراً للأحداث التي أثارت قلق وشكوك الباب العالي.. فجاءه رد مبدئي من سكرتير المكتب هنالك مفسراً ما حدث بكونه استجابة للشكاوي الواردة من المخا حول عجز حكومة المخا عن تحقيق الأمن والهدوء الأمر الذي دفع بالأسطول البريطاني للقيام ببعض المناورات. كما أنكر وجود أية نوايا توسعية. لدى حكومة الهند في الخليج العربي[٥]:

الا أن مكتب الهند تلقى في غضون أسبوع تفسيراً للأحداث التي جرت في المخا بعد أن تولت القاهرة ولندن وأسطنبول متابعة القضية.

وكان حاكم مصر هو أول من تلقى أخباراً تشير الى نوايا المقيم البريطاني المسبقة والاستفزازية التي استخدمت فيما بعد لتبرير الأحداث.

أما التهم والشكاوى فقد دارت حول اتهام المقيم بالاحتفاظ بستين رجلاً مسلحاً واحتفاظه بمائتي خيمة وعدد كبير من المخازن المليئة والذخيرة التي قامت بتفريغها مؤخراً السفن القادمة من بومباي مثيرة الشكوك بأنها تهدف الى اغلاق باب المندب. كما اتهم المقيم بمحاولة رشوة الامام بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال سنوياً مقابل السماح له بمد النفوذ البريطاني على الرعايا من مسلمين وغيرهم وعند رفض الامام هذا العرض قام برحلة الى عدن محاولاً استمالة حاكم عدن الى البريطانيين ضد الامام.

إلّا أن رد حكومة الهند جاء نافياً لهذه الاتهامات ومؤكداً في الوقت نفسه لمحمد علي حاكم مصر ولحكومة السلطان عدم وجود أية نوايا توسعية لديهما في هذه المنطقة. فضلاً عن تأكيدها لهم بعدم القيام بأية محاولة لاثارة القبائل حول عدن ضد الامام والسلطان.

وقد تولى مكتب الهند بواسطة اللجنة السرية لشركة الهند الشرقية القيام بارسال المذكرات لتفسير هذه الشكاوي الى لندن لتقوم بدورها بارسالها الى القاهرة واسطنبول.

وفيما يتعلق ببنود المعاهدة وضع اللوم على حدوث أخطاء عند نقل الترجمة من الأصل الانجليزي الى اللغة العربية.

أما بالنسبة للحرس والأسلحة والذخيرة التي قام المقيم بطلبها فهي لهدف احتواء تمرد البدو الذين هددوا بقطع امدادات المياه عن المعمل خاصة وأن حكومة المخا تبدو أنها عاجزة أمامهم.

واعتبر التواجد الدائم للأسطول البحري في مينا المخا مسألة ضرورية لحماية التجارة البريطانية وخاصة وأن هنالك احتمالاً بأن تقوم قبائل «يام» بمد غزواتها الى المخا.

كذلك فسرت مطالب المقيم بمنحه المزيد من الصلاحيات للتمكن من فصل المنازعات نظراً لطبيعة الوطنيين المحبة للمشاكسة.

الى جانب هذه المنازعات الرسمية على مستوى الدول كانت هنالك أيضاً منازعات شخصية.



فقد قام المقيم باقراض وكيل الامام مبلغ ٥,٠٠٠ ريال بعد أن ضغط عليه الأخير دون استشارة الحكومة في بومباي.. فما كان الا أن تلقى خطاباً من السيد وردن لفت نظره الى عدم تكرار مثل هذا التصرف كما صدرت اليه تعليمات تقضي:

ــ بعدم اعفاء السماسرة من الرسوم في حالة عدم ارتباطهم بالعمل مباشرة مع شركة الهند.

ــ ضرورة اخضاع جميع السفن للتفتيش ليتقرر على ضوئه السفن المعفية من الرسوم.

ــ المنازعات المتعلقة بالوطنيين هي من اختصاص محاكم المخا أما تلك التي تحدث بين طرف من الوطنيين وآخر من البريطانيين فإنه يمكن للمقيم الرجوع الى حرسه الخاص لتنفيذ الحكم الصادر أو الى السلطات اليمنية.

ــ الامتناع عن تقديم القروض وخاصة

عندما لا تكون هنالك فائدة مرجوة تجنباً لتكرار ما حدث.

وفي سبيل تحسين العلاقات مع السلطات اليمنية سعى المقيم الى فصل المنشىء الهندي سيد حسين من منصبه لسوء معاملته للأهالي ولجهله لطبيعة اليمن والدول المجاورة.

من ناحية أخرى كانت قبائل يام قد تمكنت من السيطرة على زبيد بعد أن تم لها نهب اللحية وذلك عندما قام الامام بارسال أحد نوابه الى المقيم البريطاني للاستفسار عن ما ورد في بعض بنود المعاهدة.. فقد أشار في رسالته[٦] التي بعث بها للمقيم الى عزمه على توطيد سيطرته على جميع اقليم تهامه كما أخبره فيها عن زيارته التي ينوي القيام بها الى المخا في وقت لاحق.

وقام باهدائه حصانيين مع رسالة أخرى طلب فيها قرضاً بمبلغ ٢٠,٠٠٠ ريال لكن طلبه هذا قد قوبل بالرفض تنفيذاً لتعليمات سابقة[٧].

وفي الوقت الذي كانت تتولى فيه لندن نقل ردود فعل القسطنطينية الى حكومة الهند الشرقية قام وكلاء محمد علي في اليمن بنقل أنباء الى السلطات العثمانية تفيد بأن أرضاً تكاد أن تدنسها طموحات الدخلاء الأجانب.

وكان للرسائل الثلاث التي بعث بها رستم أغا أحد وكلاء محمد علي والذي وصف بكونه عامل جمارك فقط دوراً كبيراً في اثارة الباب العالي. فقد صرح ريس أفندي بعد أن اطلع عليها ولخصها بأن حكومة الهند قد اتخذت موقفاً عدوانياً تجاه النفوذ العثماني في اليمن وأن الوكلاء البريطانيين في المخا بمن فيهم المقيم يعملون على تحريض القبائل العربية للثورة كما سبق وأن قاموا بعرض مبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال سنوياً على الامام مقابل أن يصبح تابعاً لحكومة الهند.

وقد قام السفير البريطاني في القسطنطينية بنقل هذه المعلومات الى لندندري الذي كان يترأس حكومة الهند وأبلغه فحوى المرسوم الذي أصدره الديوان واصفاً فيه حكومة الهند بالالحاد والكفر والطموح.. كما ضمن رسالته مجمل ما جاء في رسائل رستم اغا من اتهامات وشكاوى منها: السلوك العدواني الذي يمارسه رجال المقيم — وصول كميات من الأسلحة والذخيرة والحديد لاغلاق المندب — شكوى رجال الجمارك تجاه السلطات البريطانية في المخا نتيجة لعدم السماح لهم بتفتيش الشحن الذي وصل مؤخراً — العرض الذي قدم للامام — محاولة استبعاد البانيان والاسماعيلية من المثول أمام القضاء في المحاكم الاسلامية واصرار المقيم على معاملتهم كرعايا بريطانيين وليس كمقيمين يخضون للشريعة الاسلامية بالرغم من تأكيدات الامام أنه لن يسمح أبداً للمسلمين أن يخضعوا لغير الشريعة الاسلامية.

وعلى ضوء هذه التقارير قام ريس أفندي بنقل مطالب الباب العالي الى السفير سترانجفورد والتي تتلخص في:

— ضرورة قيام الحكومة البريطانية بشجب الأحداث التي ارتكبها وكلاؤها في المخا والتنصل من مسؤوليتها.

— الاعتراف الرسمي بأن هذه الأراضي تتبع الأمبراطورية العثمانية وخاضعة لأحكامها القضائية[٨].

— وقد عبر سترانجفورد عند نقله هذه المعلومات عن قلقه البالغ ازاء قضية المخا وعن انعكاساتها الخطيرة على العلاقة السياسية بين الدولتين[٩].

كما تناولت رسائل سنرانجفورد موقف محمد على حاكم مصر والذي اتخذ من الموقف فرصة ليبرهن للسلطان على ولائه.

ونظراً لعدم احاطة سترانجفورد بالأحداث التي جرت في المخا احاطة تامة فقد قام بارسال خطاب الى القنصل العام البريطاني المقيم في الاسكندرية «هنري سالب» يطلب فيها احاطته بجميع تفصيلات وملابسات ما جرى في المخا.

وفي السادس عشر من أغسطس ١٨٢٢ جاء رد سالت شارحاً ومفسراً سترانجفورد جميع الاتهامات السابقة.

— فبالنسبة لتواجد الحرس فقد تضمنت المعاهدة التي أعقبت قصف المخا موافقة الامام على حق المقيم في الاحتفاظ بأربعين حارساً أسوة ببقية المعتمدين البريطانين في بغداد وبوشهر.

ــ الخيام ليست الاّ هدايا. وقد أهديت واحدة للامام وأخرى لوزيره.

ــ المخزن الكبير الذي أشار اليه رستم آغا ليس الاّ لخزن النبيذ وبقية المؤن والأثاث. وقد رويت شكوى رجال الامام عندما سمح لهم الكابتن هيتشنسون المقيم حينذاك بتفتيشها.

ــ تواجد الحديد ليس لهدف اغلاق باب المندب فهو اتهام مثير للسخرية وانما لاستخدامه للطراد العائد.

كما أشار الى أن السبب الأساسي للخلاف بين المقيم والسلطات اليمنية يرجع الى الاختصاصات القضائية. فبينما يصر ممثلو الامام على ضرورة فصل منازعات رعايا المصنع والبانيان من غير البريطانيين على حسب ما تمليه الشريعة الاسلامية في الوقت الذي يصر فيه المقيم على أن يتولى شخصياً القيام بفصل المنازعات تبعاً للامتيازات الأجنبية التي أقرتها الحكومة العثمانية.

أما بخصوص زيارة المقيم لعدن فقد كانت لهدف المملكة الصغيرة وبأمر من حكومته وهو لا يرى ثمة ما يتعارض مع هذا طالما وأن أميرها يتمتع بالاستقلال ويرتبط بعلاقات متينة مع الانجليز. وقد تمت زيارة هيتشنسون الأولى لسلطان لحج عام ١٨١٠ الذي طلب منه تأسيس مصنع تجاري في عدن. لذا فقد أصبح بالامكان بعد الصعوبات التي واجهها البريطانيون مع حكومة الامام في المخا نقل المعمل الى عدن. وهذا هو السبب لرحلته التي قام بها الى عدن والتي أثارت مخاوف الباب العالي في الوقت الذي يرى فيه ضرورة الحصول على موافقة السلطات لاقامة أية علاقات ترغب حكومة الهند أن تقيمها مع هاتين الدولتين ويعني بهما اليمن وعدن طالما وأن امام اليمن وأمير عدن يعتبران نفسيهما مستقلين.

وقد اعتبر سالت قصف ميناء المخا بمثابة العقاب الرادع للسلوك العدواني الذي أبداه الأهالي نحوهم وهو لا يتعارض مع مشاعر الود والاحترام الذي تكنه حكومة الهند للباب العالي.

وفيما يتعلق بمحمد علي فقد زعم هاستنجر أحد مسؤولي حكومة الهند بأنه قد قام بابلاغ محمد علي بعزمه على اغلاق ميناء المخا مؤكداً له في نفس الوقت نواياه السلمية.

وقد أبدى أسفه فيما بعد لما سببته الحملة من نتائج. ومع اعترافه بكونها غلطة الاّ أنه يمكن تفسيرها على ضوء الأوامر الغير واضحة التي أرسلت الى الحاكم اليفنستون الذي كان بعيداً عن الهند عند صدور الأوامر الى قائد الحملة.

هذا وقد عبر هيتشنسون عن انزعاجه من قيام محمد علي ببعث رسائل رستم آغا الى اسطنبول بالرغم من العلاقات الطيبة بين بريطانيا وحاكم مصر ومع هذا فقد وضع اللوم على أحد الأفندية من أبناء القسطنطينية والذي عمل تحت خدمة الباشا لمدة سنة ونصف(١٠) دون أن يشير الى اسمه.

باشر «سالت» القنصل العام متابعة القضية مع محمد علي شخصياً وقد أكد له الأخير بأن التقارير لم تصدر من وكيله في المخا وانما من أحد موظفي الجمارك في جدة الذي تسربت اليه الأخبار من أحد المخبرين السريين في المخا. وانتهز محمد علي هذه الفرصة ليبلغ سالت بأن حكومة السلطان تحثه للسيطرة على جميع موانىء البحر الأحمر بما فيها عدن وانه لا يزال يفكر في الأمر.

فرد عليه سالت بأن مكتب الهند يسره أن تقع هذه الموانىء تحت النفوذ العثماني مباشرة على تركها تحت أيدي سكانها البرابرة. ولكنه في خطابه الموجه الى سترانجفورد أشار الى قلقه ازاء هذه الخطوة معرباً عن وجهة نظره في الموضوع. لا أعتقد أن حكومة الهند ترضى أن يبسط العثمانيون نفوذهم على عدن لكونها محطة استراتيجية هامة ولقربها من بومباي لذا فأنا أرى أن تركها للوقوع تحت سيطرة قوة ضاربة كمصر أمر لا يعرف أحد ماذا سيؤول اليه فلسنا على ثقة بأنها ستظل دولة صديقة أم ستنقلب الى عدو لنا(١١).

الاّ أن جميع التفسيرات التي قدمتها حكومة الهند الى اسطنبول عن طريق لندن والاسكندرية لم تخفف من شكوى السلطان تجاه دوافع حكومة الهند وطموحاتها في ذلك الجزء الاستراتيجي الهام من الجزيرة.

كما لمح ريس أفندي للسفير سترانجفورد بأن

المعلومات التي وصلته مضللة وأبدى رغبة حكومته في الاطلاع على تفاصيل جميع الأحداث التي جرت منذ تأسيس المفوضية في ذلك الميناء(١٢).

وقد أبدى وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية عند تلمّسه تقارير سترانجفورد قلقه البالغ ازاء تفسيرات الباب العالي حول قضية المخا وطلب من حكومة الهند موافاته مباشرة بمعلومات وافية عن الأحداث مع تفسيرات مفصلة للصدام الذي دار بين الوكيل البريطاني وممثلي الامام وما توصلوا اليه من تسويات(١٣).

تعهد مكتب الهند القيام بتحقيق دقيق لما جرى. إلّا أن التفسيرات التي جاءت كانت غير مقنعة فقد وضع معظم اللوم على الترجمة العربية للنص الانجليزي..

فعلى سبيل المثال تضمنت المعاهدة اعفاء التجار البريطانيين فقط من الضرائب بينما فهم من الترجمة العربية لها أن هذا الامتياز يمتد ليشمل جميع من يتاجر تحت العلم البريطاني..

وبالرغم من ضعف الحجج التي قدمتها حكومة بومباي والتي قام بنقلها مكتب الشؤون الخارجية في لندن الى القسطنطينية والاسكندرية فقد تمكنت من تهدئة الوضع الّا أنها لم تتمكن من ازالة شكوك السلطان نهائياً ومع ذلك فقد استطاعت التأكيدات التي صدرت من الحكومة البريطانية بعدم وجود أية نوايا توسعية اقليمية في المنطقة ان تنهي الأزمة.

أما بالنسبة لمحمد علي حاكم مصر فقد كان على وشك خوض معركة «التحديث» وقد أدرك عدم جدوى معاداة الغرب خاصة وأنه سوء تفاهم نتج عن معلومات خاطئة تمّ نقلها الى محمد علي ومنه الى القسطنطينية عن طريق أحد المتهورين مثيراً بذلك قلق السلطان وحكومته(١٤)..

وهكذا انتهت الحقبة الأولى من الصراع الانجليزي العثماني في اليمن.

●

الهوامش

(١) جورج. و. يرى اليمن التعيس أو الاتراك في اليمن «لندن، ماكميلان، ١٩١٥. ص ١١٩.

(٢) أنظر ص ٢٤.

(٣) أنظر الرسالة الموجهة من وليام بروس الى هنري سالت، المخاء، ١٦ يناير ١٨٢١-١٠٣-٧٨ وزارة الخارجية..

(٤) المعاهدة مؤرخة في ١٥ يناير ١٨٢١ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٣..

(٥) خطاب موجه من ب. س. جونز من مكتبه الهند الى جوزيف بلاتانا» ٧ سبتمبر ١٨٢٢. تقرير نقله كالوش في ٦ سبتمبر وزارة الخارجية ٧٨/١١٢..

(٦) نسخة من خطاب الامام مؤرخة يوليو ١٨٢١ وزارة الخارجية ٧٨/١١٢.

(٧) أنظر مقتطف الرسالة من وزير الخارجية البريطاني و. وردن الى حكومة الهند في بومباي ومنها الى «المقيم» في المخاء ٢٦٠ سبتمبر ١٨٢١ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٩.

(٨) أنظر رسالة «سترانجفورد» من القسطنطينية رقم ١١٧ الموجهة الى ماركيز لندن بتاريخ ٢٥ يوليو ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٩..

(٩) أنظر رسالة سترانجفورد رقم ١٢٠ التي بعثها بتاريخ ١٠ أغسطس ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٩.

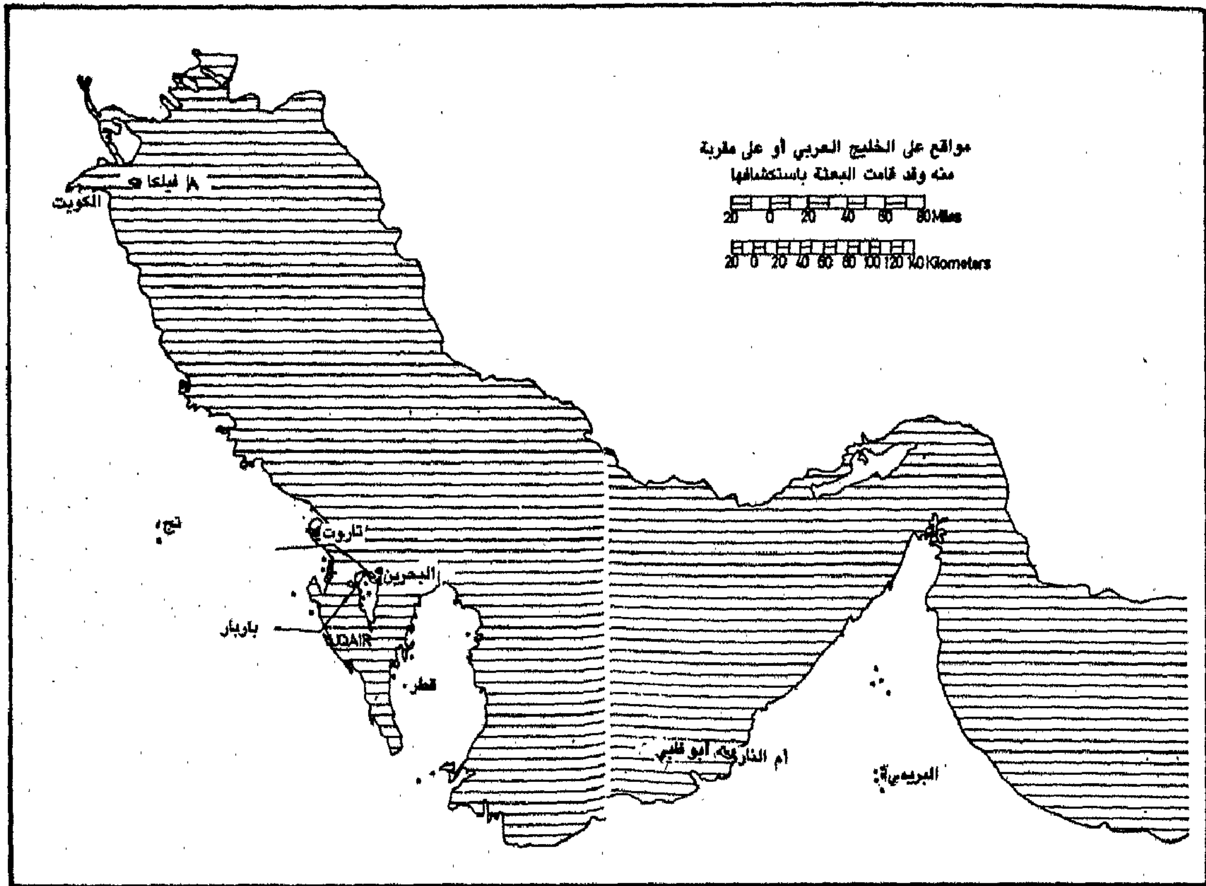
(١٠) أنظر مقتطف الرسالة الموجهة من القنصل العام سالت الى السفير سترانجفورد، الاسكندرية ١٦ أغسطس ١٨٢٢ كذا رسالة هاملتون الموجهة الى كانتج من القسطنطينية بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١١١.

(١١) أنظر مقتطف الرسالة الموجهة من سالت الى سترانجفورد في ١٧ أغسطس أيضاً رسالة هاملتون رقم ٢ الى كانتج في ٢٥ أكتوبر وزارة الخارجية ٧٨/١١١.

(١٢) المذكرة الصادرة في ١٠ سبتمبر وقد بترجمتها «كابرب» بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٢٢ وهي تحمل رقم (٩) في الرسائل الموجهة من سترانجفورد الى وزارة الخارجية لحكومة الهند والمخاء».

(١٣) أنظر الرسالة السرية الموجهة الى حاكم بومباي بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٨٢٢ والنسخ التي بعثت الى سترانجفورد والمقيم البريطاني في المخاء وزارة الخارجية ٧٨/١١٢.

(١٤) الرسالة الموجهة من هاملتون الى جورج كانتج بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١١١.



جوانب من الترابط والانقطاع بين أجزاء منطقة شرق الجزيرة العربية قبل الإسلام على ضوء أعمال البعثة الأثرية الدنماركية

الحلقة الثانية

احمد عبيدلي

بدأت البعثة الأثرية الدنماركية أعمالها سنة ١٩٥٣ في منطقة شرق الجزيرة العربية، وقد اكتشفت قبوراً على هيئة آكام استثارت بيبي وكلوب المشرفين على أعمال البعثة وجعلتهما يعملان من أجل اكتشاف أكبر مقبرة لعصور ما قبل التاريخ في العالم، ومنها انطلقا في محاولة للبحث عن «ديلمون» ذات الأهمية الأسطورية والدينية في الحضارات الرافدية المتعاقبة. وقد اطلعنا في الحلقة الأولى على حضارة العبيد وحضارة ما قبل «ديلمون» وفي الحلقة الثانية والأخيرة نطلع على نتائج البعثة في «ديلمون» و «فيلكا»...

ثالثاً ـ دولة ديلمون:



يصف تقرير البعثة المدينة الثانية ضمن سياق المدن السبع على النحو التالي:

المدينة الثانية: «ديلمون»: ربما تراوح زمنها حول ٢٣٠٠ق. م. وأصلها يعود الى المدينة الأولى. ولربما لم يحدث أي تغيير عن نمط الفخار، بالرغم من احتمال وجود تغيير أكبر. لقد استمرت المدينة الثانية لزمن معين طال بحيث مكنها من مراكمة خمس طبقات في الأكمة التي جرى حفر المجسات بها، وللقيام ببناء معبد باربار وإعادة بنائه، وإعادة بنائه مرة ثالثة، ولكي يتراكم ما يقارب مائة ألف قبر. ثم يتساءل التقرير عن الفترة التي استمرت فيها وهل امتدت لمائة سنة أو ثلاثمائة أو خمسمائة سنة.

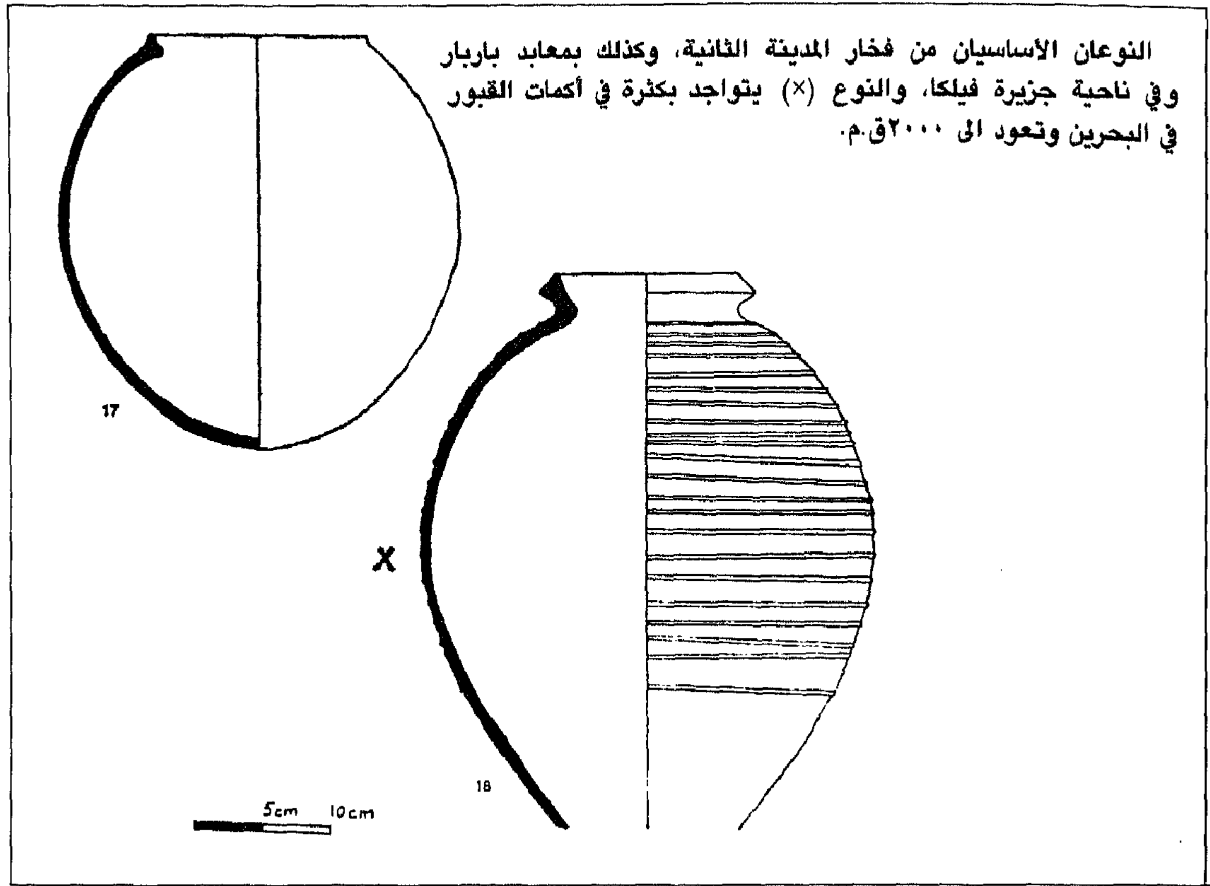
وحسب النتائج العامة لتنقيبات البعثة الأثرية الدنماركية فإن المدينة الأولى والثانية تقابلان فترة ديلمون المبكرة. وتعود المدينة الثالثة والعائدة للكاشيين الى فترة ديلمون الوسيطة، بينما تشمل الفترة التي سميت بالمدينة الرابعة على القصر الذي اكتشف هناك، وبالتوابيت المكتشفة أيضاً. وتتوافق هذه الفترة مع عهود سرجون الأشوري وسنحاريب الأشوري وآشوربانيبال، وكذلك مع الحملات التي شنت من قبل بلاد الرافدين على حدود ديلمون، ويرد آخر ذكر لديلمون جرى توثيقه في السنة الحادية عشرة لنابونيدوس ملك بابل، والتي توافق العام ٥٤٤ق. م.، حين تذكر وثيقة ادارية لقب «حاكم ديلمون». وتشكل المدينة الرابعة فترة ديلمون المتأخرة.

لقد امتدت ديلمون على طول المنطقة الواقعة على الساحل من البحرين الحالية وحتى الكويت الحالية محتوية على نقاط على الساحل مثل ثاروت الواقعة على جزيرة دارين. ولقد تساوت في الحجم مع بابل وآشور مجتمعتين، وشكلت سوقاً مزدهرة، زودت بلاد الرافدين بالنحاس وبسلع الترف من الشرق، وشكلت خامس أمبراطورية عظيمة في العالم القديم، تقف جنباً الى جنب مع أمجاد الخمسة آلاف سنة لمصر وبابل وسومر ووادي السند.

لقد أسس تجار ديلمون وكالاتهم في القرن العشرين ق. م. ولقد تمكنت البعثة من أن تزيل الغطاء عن مدن ومعابد مؤرخة وموثقة عبر مائتين وخمسين ميلاً من الساحل الممتد وعلى الجزر الواقعة بين الكويت وحتى البحرين وعلى عمق ستين ميلاً داخل السعودية وحتى واحة الهفوف. لقد تركز بحث البعثة على البحرين في البداية، بحيث أضحى وجود ديلمون واضحاً وجلياً على أرض البحرين الحالية، ولم تكن البعثة يدور بخلدها أن البحرين أنما تشكل عاصمة لامبراطورية تمتد كل ذلك الامتداد.

في العام ١٩٥٨، كانت البعثة تنقب في جزيرة فيلكا باتفاق مع الحكومة الكويتية. وبينما كان أعضاؤها يقومون بجولاتهم الأولى في مكان يدعى سعد وسعيد وهو عبارة عن أكمتين متجاورتين، عثروا على موقع استيطان ذي أهمية متميزة. يصف بيبي ذلك قائلاً أنهم لم يبق لديهم شك في أن الأكمتين كانتا عبارة عن تلي استطيان حينما اقتربوا منهما. ويواصل سرده على النحو التالي. فما أن صعدنا منحدر أعلى الأكمتين وهي الغربية منهما، تاركين مسافة عشرين ياردة بيننا، وقد تركزت أعيننا حتى رأينا كسر فخار لا تعد، والتي تشير الى موقع استيطان. ورأيت قطعاً كبيرة لآجر مسطح محروق، بمظهر يشابه كثيراً آجر بلاد الرافدين، الى درجة أني أخذت في تقليبها علّي أعثر على دمغات مسمارية اعتاد ملوك بابل وآشور أن يسموا بها الآجر الخاص بمبانيهم العامة. ولم يكن هناك مبان من الآجر، وتوارد الى خاطري أولاً أننا لا بد أن نكون قد دخلنا ضمن النطاق الحضاري لبلاد الرافدين. ولكن لم يكن هناك أي نقوش مسمارية، فعدت الى كسر الفخار. وفي اللحظة، أخذ بيترفيلهلم جلوب يمشي مبدياً لا مبالاة مدروسة، والتي أصبحت أعرف الآن أنها تعني أنه قد عثر على شيء ذي أهمية. وفتح يده، وعرض، ثلاث كسر من آنية «باربار» الرقيقة الحمراء ذات الحواف.

وحينما أخذنا ننظر أكثر وأكثر، استطعنا أن نميز كسر باربار مختلطة بالطبع مع كسر لأزمنة تتأخر عنها، واشتملت حتى على الأسمال البالية



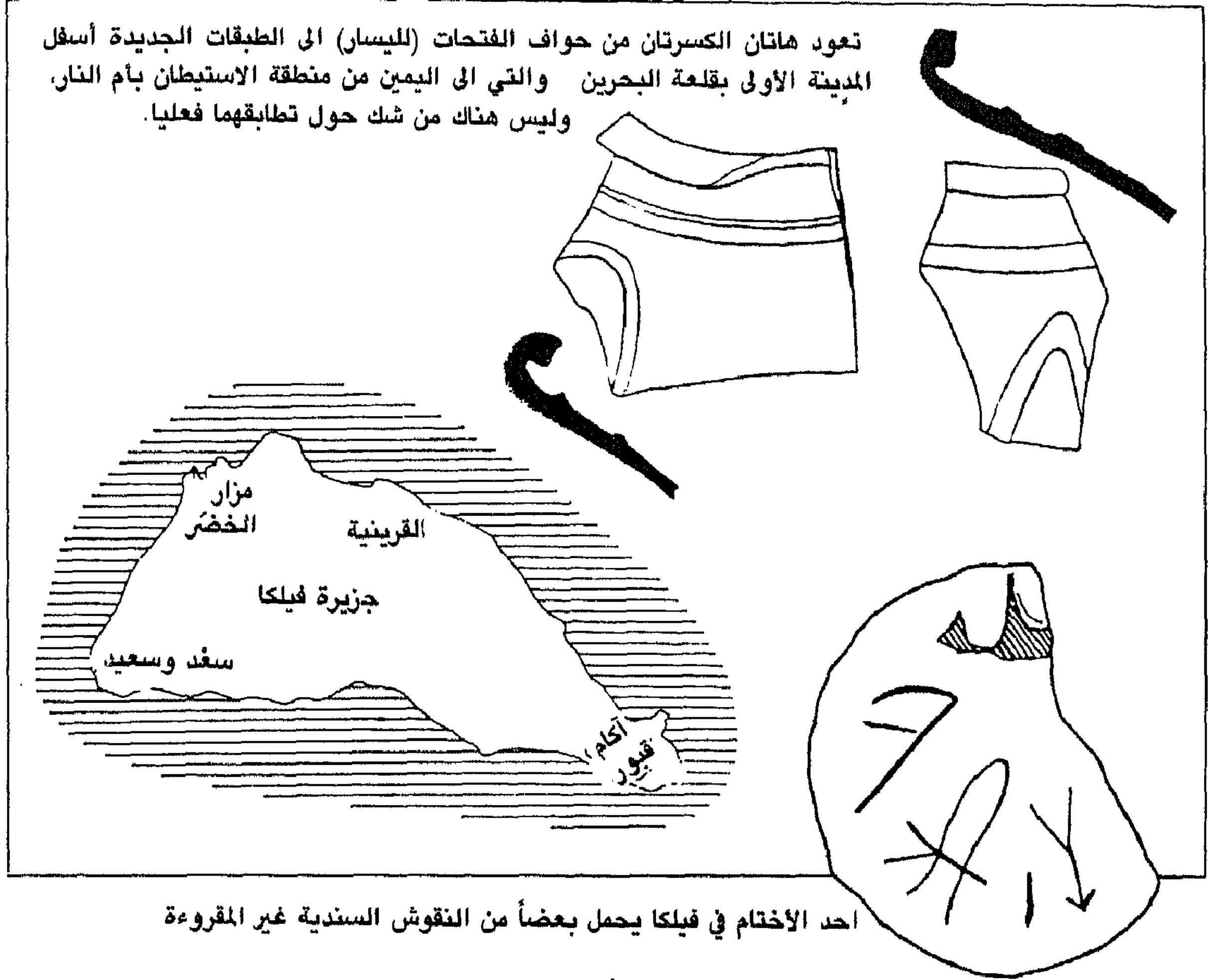
النوعان الأساسيان من فخار المدينة الثانية، وكذلك بمعابد باربار وفي ناحية جزيرة فيلكا، والنوع (×) يتواجد بكثرة في أكمات القبور في البحرين وتعود الى ٢٠٠٠ق.م.

وكسر زجاج الكوكاكولا، وبعضاً من كسر فناجين القهوة، وذلك لأن الزاوية الجنوبية للجزيرة، كانت هي المكان المفضل للرحلات. ولكننا تذكرنا أننا لم نجد أبداً كسرة باربار على السطح، في كل ظهر التل بقلعة البحرين. أما هنا فقد تواجدت بكثرة لا تبقي الّا القليل من الشك في كون كل التل يعود الى زمن باربار، ولم يغطّ بأي استيطان فيما بعد.

ثم أخذت الصدمة في التصاعد ــ فهذا ما لم نتوقعه. فقد كنا على مبعدة مائتين وخمسين ميلاً عن البحرين، وفي الحقيقة أننا أقرب الى أور مِنّا الى البحرين بمسافة مائة ميل. لقد توقعنا تأثيراً من بلاد الرافدين، ولربما استيطاناً من بلاد الرافدين، ولم نتوقع تأثيراً بحرينياً أو استيطاناً بحرانياً. وعلى ذلك يبقى اذا ما كانت «حضارة باربار» هي التعبير المادي لديلمون، فإن فيلكا اذاً كانت أيضاً جزءاً من ديلمون. وعلى ذلك فإن ديلمون هي أكبر بكثير مما حلمنا به. فالمسافة بين البحرين وفيلكا تعادل المسافة بين إيريدو، وهي أقصى مدينة جنوبياً في بابل، الى أشنونا، وهي أقصى مدنها شمالاً. ويمكن لديلمون على ذلك أن تكون قد امتدت جغرافياً على مساحة تقرب من مساحة بابل نفسها.

ويعود بيبي ليتذكر ما حدث لهما في سنة أخرى حينما استدعتهما ــ هو وجلوب ــ مجموعة الكويت التي تركاها تنقب بالكويت، وذلك لكي يطلعا على مجموعة من النقود الملتصقة معاً، وكذلك نقشاً أغريقياً وجد في جزيرة فيلكا. وبعد أن اطلعا على الاكتشافين وذلك حينما كانا يجلسان بقاعة الطعام بمقر البعثة بالجزيرة التفتا الى أوسكار وهو المسؤول عن الحفريات وطلباً منه أن يخبرهما عن تنقيباته. ويسرد بيبي الحادثة. أشار أوسكار بيده نحو ورقة علقت على جدار فوق طاولة الطعام.

وللوهلة الأولى، تبدو الورقة على هيئة تقويم صنع منزلياً، وهي عبارة عن قائمة بالتواريخ منذ بداية حملة التنقيبات. ولكن برز قبالة كل يوم رسم رقم، واحد واثنان، أو ثلاثة وفي بعض



احد الأختام في فيلكا يحمل بعضاً من النقوش السندية غير المقروءة

الأحيان أربعة، وبرز في أحد الأيام رقم سبعة وقد أحيط بدائرة حمراء. وكانت هناك فراغات في بعض الأيام. وبسطنا استفسارنا. فأجاب أوسكار بتواضع «انها أختام» وحملقنا وسط علامات الشك، وقد أخذنا نحصي مجموع الأرقام بهدوء.

لقد كنا نعلم أنه سيعثر على أختام فوق أف ٣، كما أخذنا نطلق على التل الغربي لسعد وسعيد. فمنذ اللحظة التي وجدنا فيها كسر «باربار» على السطح قبل سنتين مضتا، توقعنا أن تكون هناك منطقة استقرار من الحضارات التي تستخدم الأختام. لقد وجدت الأختام الأولى بنفسي، في المجسّ الأول بالتل، والذي حفرته من العام ١٩٥٨ وكانت عبارة عن ثلاثة من أختام المهر، وكان اثنان منها من نوع جديد مختلف ــ وكان الأول من نوعه الذي يتم العثور عليه ــ كان على شكل العدسة وبوجهين.

وادلت السنة التي سبقت التنقيبات الأولى الواسعة الحجم بأولى الدلائل التي توحي بأن الأختام موجودة هنا بوفرة تفوق وفرتها بالبحرين. ولقد وجد خمسة وثلاثون ختماً في ذلك العام، وهو ما يفوق ضعفي ما وجد بالبحرين كلها حتى ذلك الوقت. ولكن المجموع الذي يظهر بالتقويم على الجدار كان أكثر بكثير، وبما لا يقارن. فقد بلغ المجموع الأولي ٨٥ ختماً ولم يكن الموسم حينئذ قد شارف على منتصف فترته بعد. وها قد بدأ أوسكار يحضر صينية بعد أخرى مليئة بعلب الكبريت، وقد رقم كل منها بعناية واحتوى على أحد الأختام. ولم يكن بامكاننا ضمن الوقت المتاح لنا أن نقوم بفحص كل منها بالتفصيل الذي يتطلبه، ولكنه اختار لنا العينات الأكثر اثارة: ختم ذووجهين حمل نقوشاً مسمارية، وختم حمل صورة امرأة تعزف على قيثارة مزخرف برأس ثور يشبه الثور النحاسي الذي وجدناه في معبد باربار،

وختم يحمل على واجهته نقوشاً، حسب الطبيعة التي تقرأ لمدن وادي السند. وعدا عن الأربعة أو الخمسة أختام ذات الوجهين، وعدا عن الختم ذي النقش السندي ــ ولربما ارتدى ذلك أهمية معينة ــ فلقد كان كل ختم يعود الى «النوع الثالث»، وهو آخر مجموعة الأنواع، والذي يحمل أربع دوائر وثلاثة حزوز. ولم يكن النوع ذو النقوش السندية معروفا، فلقد كان رقيقاً ومسطحاً وبه حدبة قليلة العلو.

ثم أحضر أوسكار صينيات أخرى، ملأى بأشياء أخرى أحضرها من تنقيباته. لقد احتوت على خرز أحضرها من تنقيباته. واخرى أحتوت على خرز وتمائم، وأبر نحاسية تعلوها مسكات عظمية، وقطع من سلطانيات حجرية من نفس الحجر الصابوني المستخدم في الأختام، زين العديد منها بصور نافرة لرجال وحيوانات. وكانت بينها كسرة تظهر أجزاء من جسمين بشريين واقفين، وبينهما نقش ذو طبيعة مسمارية.

ولم تكن قدراتي تؤهلني لقراءة النقش من نظرة واحدة بسهولة، ولكن ما أن وجّهت نظرة نحو هذه الكسرة، حتى عرفت أن ذلك لم يكن ضرورياً، لقد كانت متطابقة مع أول سطر للنقش الذي حصل عليه الكابتن دوران في البحرين قبل ثمانين سنة.

«معبد الإله انزاك»:

ولم يكن هذا النقش بأقل أهمية عن نقش التكريس للمعبد الاغريقي. وذلك يعني أن تلك السلطانية كانت جزءاً من ذخيرة معبد أبكر، والذي ربما كان موجوداً تحت تل أل أف ٣، وقد كرس لإنزاك، وهو الإله الخامس لديلمون. بل وتوغل بعيداً تجاه تفسير ظاهرة تعداد الأختام التي وجدت في التل، والذي لم يظهر حتى الآن سوى بقايا بعض البيوت المتواضعة.

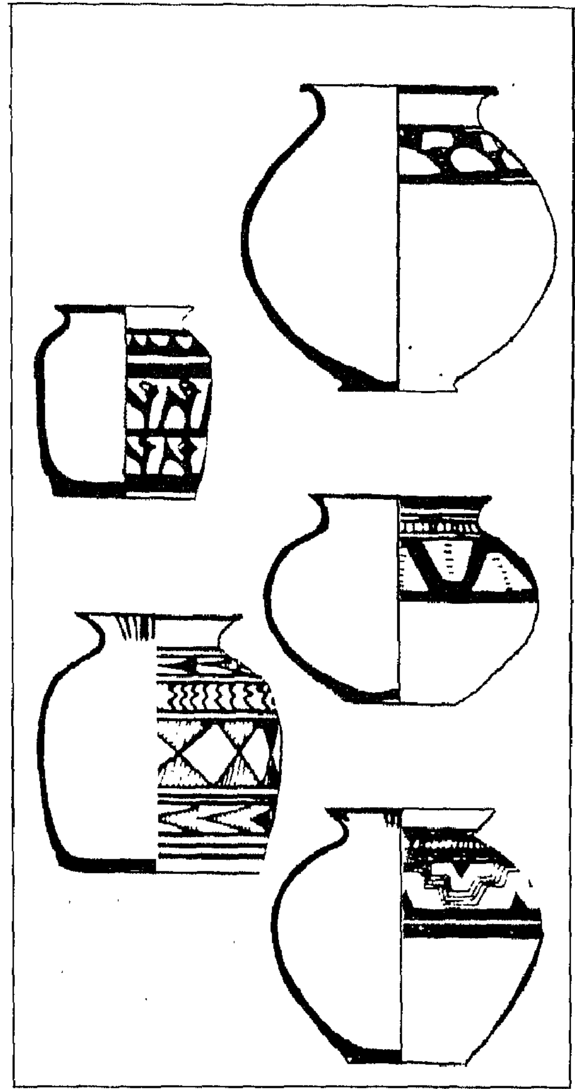
وعلى ذلك فلقد كان هناك معبد لإنزاك في فيلكا، وكان هناك معبد لأرتميس قبل ألفين من السنين وكذلك مصنع لانتاج التماثيل النذرية للآلهة والآلهات الاغريقية. وبدا كما لو أن فيلكا كانت لآلاف من السنين جزيرة مقدسة، ومكاناً يحج اليه. وحينما عادت الفكرة الى مستقرها، تذكرت فجأة أن فيلكا لا تزال جزيرة مقدسة، ولا تزال مكاناً يحج اليه. هل يمكن أن يكون هنا جسر يمتد عبر خليج يتمطى لمدة أربعة آلاف سنة؟

ويتوقف تقرير البعثة الدنماركية هنا ليركز بحثه على محاولة اكتشاف العلاقة القائمة بين هذا التاريخ من التقديس المستمر لجزيرة فيلكا والمستمر الى اليوم غير قيام مزار لولي الله الخضر، وكذلك بين أسطورة البحرين كجزيرة ينبع فيها ماء اللج المقدس، وبين أسطورة جلجاميش وزهرة الخلود المفقودة. وينتهي بيبي الى القول:

ولربما لم يعد الطريق بدون ملامح الآن تماماً. وذلك لأن قصة الخضر في القرآن قد دونت على يد أناس كانوا أقرب زمنياً الى معبد أرتميس مما هم الينا. وبمنتصف الطريق بين معبد أرتميس ومعبد أنزاك تبدو التضحيات بالثعابين في القصر البحريني، وايماؤها الواضح بأن أسطورة جلجاميش وزهرة الخلود المفقودة لم تنس في ذلك الحين.

ويضيف بيبي قائلاً أنه ليس هناك من ريب في أن المرأة التي تقضي مساء الثلاثة ساهرة في الصلوات في مزار الخضر، من أجل الحصول على ولد انما كانت تسعى للخلود بنحو ما. ولا ريب بأن الايمان بأن الدعوة ستستجاب، كان المحرك الذي أدى بجلجاميش إلى عبور البحار لخادم ذي القرون، إلى زيوسودرا، وهو الخالد المقيم بديلمون.

ويلخص بيبي ما وجدوه بفيلكا قائلاً أنه في ضاحية «حضارة باربار» الصغيرة العائدة لأوسكار وبول على مرمى حجر بفيلكا، كانا قد تمكنا بحلول ١٩٦٢ من العثور على ما مجموعه مائتين وتسعين ختماً بين أختام المهر الدلمونية. ولقد أعطت تلك الضاحية أيضاً ما مجموعه دزينة أوما يقاربها من النقوش المسمارية، على الأختام وعلى الألواح أو على أجزاء من سلطانيات من حجر الصابون وعلى حواف الفتحات للآنية الفخارية. ولقد برز على اثنين من تلك النقوش نفس النقش الذي عثر عليه سابقاً «معبد الاله انزاك» ولقد ذكرت أربعة من



الآنية الفخارية من مدافن أم النار بأبو ظبي، كان لون تلك التي شابهت البرميل رمادياً بينما كان لون الأخريات أحمر.

النقوش الأخرى هذا الاله الراعي لديلمون. بل ان أحد تلك النقوش فوق حجر صابوني كان مكسوراً، وأمكن فكه بالكاد، قد ذكر اسم ديلمون نفسه. وعلى ذلك فإن استنتاجاتنا بأن «حضارة باربار» كانت هي ديلمون، قد بات ثابتاً، دون أي شك.

هذا ما ذكره التقرير بخصوص الآثار التي تظهر العلاقة على ما يطلق عليه حالياً الكويت والبحرين. ويسرد التقرير أيضاً ما وجدته البعثة في زيارة من خمسة أيام تمت للسعودية، وحينما عبروا الى جزيرة تاروت فيقول، لقد رأينا التل هذه المرة ونحن على الأرض: ولقد بدا واعداً جداً، ولكنه مستحيل تماماً. لقد كان شديد الانحدار وكان مطوقاً من ثلاث جهات بالمساكن، وقد بنيت على التل وحفرت فيه، الى حد أن جانب التل يجري في الحقيقة مقارباً أعالي جدرانها الخلفية. وحينما حاولنا الذهاب الى الجانب الرابع، والذي بدا أنه منطقة مفتوحة قليلاً، أرجعنا بحزم على يد رجال المدينة. فلقد كان المكان حراماً، ومحظراً، حسبما قالوا لنا. لقد كان مقتصراً على النساء، حيث يستحممن ويغسلن الثياب ولا يحق لنا النظر الى النساء.

ولقد وجدنا زقاقاً ضيقاً بين البيوت يؤدي عالياً، في جانب التل المسموح، فتسلقنا عالياً وحتى الشريط الضيق من المنحدر، لجانب التل العاري بين أعالي البيوت الى الأسفل، وبين سفح الجدران الكبيرة لخرائب القمة. وعلى الفور التقطت كسرة حافة من آنيتنا الفخارية النموذجية «لباربار»، وانتشرت كسر فخارنا الحمراء ذات الحواف المعروفة لنا في كل مكان. وها نحن مرة أخرى في ديلمون.

وعادت البعثة لتبحث وبترخيص رسمي من الحكومة السعودية، عن الآثار لعصور ما قبل الاسلام وذلك في العام ١٩٦٨. ولقد تمكنوا بعد محاولات من الحصول على رخصة من رجال تاروت بالتجول في القرية، وبعد أن نبهت النسوة للابتعاد. وذلك لمدة ساعتين. يقول بيبي انهم نادراً ما اشتغلوا بهذه السرعة. ولقد تمكنوا من أن يثبتوا بأن الاستيطان بالبلدة يمتد لفترة زمنية تفوق الأربعة آلاف سنة قدماً. لقد التقطوا من قعر الطبقات التي حفروها كسرة صعب تصنيفها من اناء فخاري صغير، وثلاث قطع من الصوان المصنع، تحتوي على شفرة سكين لا يرقى اليها الشك في كونها كذلك. وقد أعادهم ذلك الى العصر الحجري الحديث. ويعلق بيبي على ذلك قائلاً أن ذلك كان دليلاً هزيلاً، يمكن من دفع تاريخ ديلمون الى ذلك المدى. ويواصل القول: لقد كنا نعلم القليل عن تاروت لنعتقد أنها كانت موضعاً خلفياً منعزلاً، ولكنها لا تميل الى أن تكون كذلك. ففي الواقع أن أحد معتقدات ايماننا الأساسية كان أن ديلمون المبكرة لم تكن منطقة خلفية منعزلة،

وانما على العكس حيث امتطت صهوة التقدم الرئيسية وبالتحديد خلال الوقت الذي كانت فيه بلاد الرافدين تمد نفسها بالبرونز. واذا كـان هناك أي بلد يتوقع أن تكون قد تركت العصر الحجري للعصر النحاسي بوقت أبكر من بلاد الرافـدين فستكـون تلك البـلاد التي زودت الرافدين بالنحاس.

... وعلى حين غرة بدت لي منطقة تل تاروت أنها ليست مجرد أقدم منطقة بالسعودية، وانما أقدم موقع ــ مدينة في الخليج.

وكانت تلك المعضلة هي التي ستقوده فيما بعـد الى البحث والتنقيب في مسألة حضـارة العبيد والتي سبق لنا الحديث عنها.

رابعـاً ــ حضـارة وادي السـنـد، والكاشيون، والاغريق:

وسط سياق التنقيب الذي قامت به البعثة الدنماركية، برزت بعض المؤثرات القادمة من خـارج منطقـة الخليج (تـأثيرات الحضـارات الرافدية والعربية الجنـوبية لا تـدخل بـالطبع ضمنهـا)، وهي المؤثـرات القادمـة من وادي السنـد وما جـاورهـا من حضـارات، وهنـاك الكاشيون القادمون من مناطق فارس، والاغريق الذين قدموا بصحبة الاسكندر، ومن خلفه.

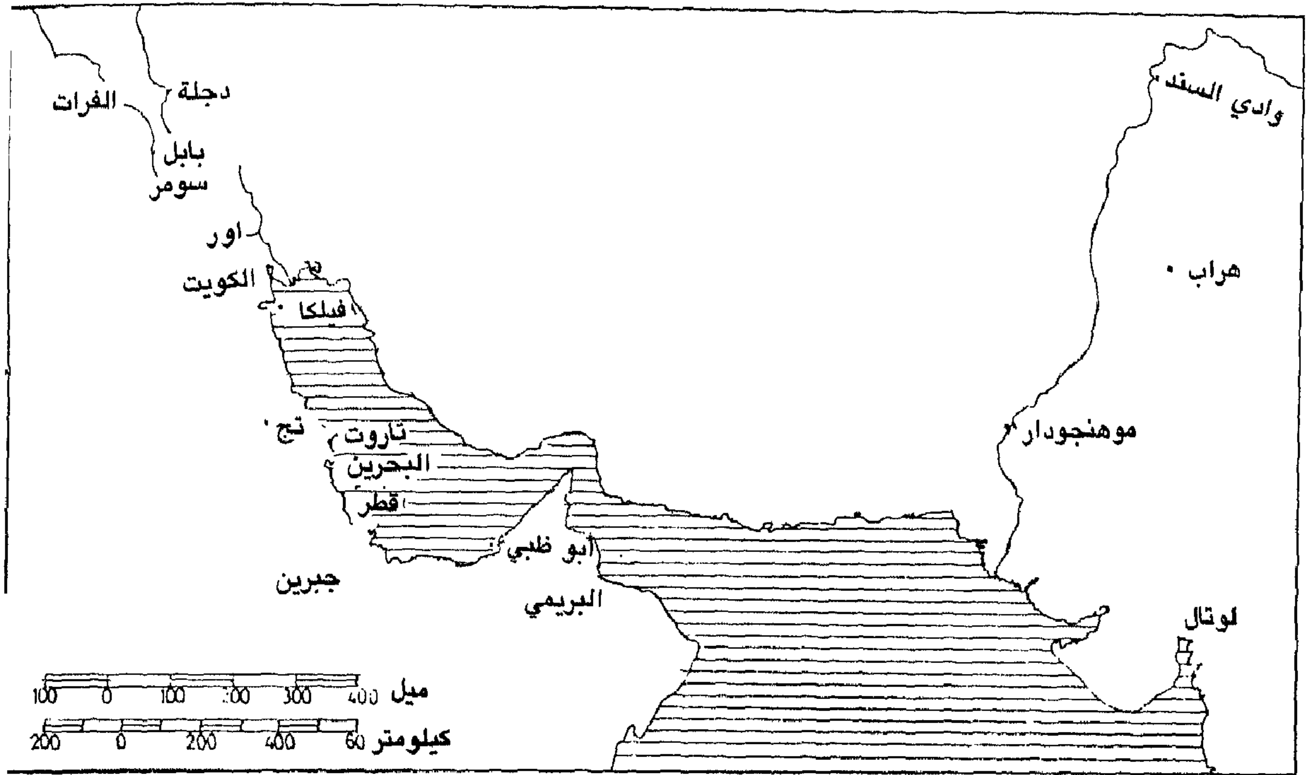
لقد كانت تأثيرات حضارة وادي السند هي الأقدم والأشمل، وان تبين أنها لم تأت مصحوبة بالفرض والقسر العسكري. ولكن ربمـا قدمت بسبب الرقي الحضـاري الذي فـرض نفسـه سلمياً. لقد عثرت البعثة على عينات من بضائع تشير على الأكثر الى مصدر سندي أو مناطق مجاورة، مثل الفيروز والعقيق الأحمر والعاج، كما يرد ذكر الأبنوس. كمـا أن ديلمون قـد استخـدمت مقـاييسـاً للأوزان هنـديـة وليس مقاييساً رافدية. وأظهرت مدن البحرين التليدة تخطيطاً وتنظيماً في رسم مخططاتها يظهر قرباً ما الى تخطيط مدن مـوهنجودار وهراباً بالهند أكثر مما يشير الى التأثيرات الرافدية.

أشار بيبي أثناء بحثه وسط فخار أم النار الى تأثيرات قادمة من الشـرق، وحينما كـان يصف بعض الفخار المجلوب من أم النار قال: ان الانسان لم يكن ليخطىء حين النظر للميزات

المنطقة الشرقية من السعودية

العـامة لتلك الآنيـة الرقيقة الجميلة بـأنمـاط تلوينها السوداء المتمثلة في المثلثات الناتجة عن الخـطوط المتقاطعـة، وسلاسـل شبه الدوائـر، والأطواق المتمـاوجة، وقـد رسمت على خلفيـة مصقولة، ذات لون بني محمر. فهي تنسب الى مجموعة من الآنية توجد بايران وبلوشستان، وقد صنفت نوعياً تحت اسم العصر الحجري المعـدني (Chalcolithitic). ولقد امتـدت تلك الآنية زمنياً ــ ضمن حدود غير معروفة، وذلك لمحدودية التنقيبات التي جرت في تلك المناطق ــ وذلك حتى الألف الثاني ق. م.

... وكانت هناك جرتان صغيرتان رماديتان، غـطيتا بـأطواق من التشكيلات الســوداء من الكتف للقـاعدة المسـطحـة، والتي كـان حتى بامكاني أنا أن أتعرف عليها كفخار نموذجي من حضارة كولى، بينما حملت كسرة اناء أكبر بلون بني محمر شكل الثور ذي السنام وقد تم طلاؤه، وهو نور البراهما في الهند، والذي كان بدوره شيئاً نموذجياً من حضارة الكولي.



هذا باختصار شديد، ما أورده بيبي عن التأثيرات الهندية والمناطق المجاورة لها. أما فيما يخص الكاشيين فلقد تمثلوا في البداية ضمن سياق السبع مدن، عبر «حفرة نفايات مليئة بآنية الكراميل». ويقول بيبي أن آنية الكراميل كانت معروفة جيداً وعلى نحو كبير، فلقد كانت هي الآنية الكاشية في بلاد الرافدين. لقد كان الكاشيون شعباً قادماً من جبال لورستان الفارسية حوالي ١٧٥٠ ق. م. ، ومدوا حكمهم تدريجياً حتى امتلكوا أمر كل وادي دجلة والفرات من أقصى شمال بغداد الحالية وحتى الخليج العربي. ولقد وضع الغزو الأشوري الواقع في ١٢٠٠ ق. م. تقريباً النهاية التامة لحكم الملوك الكاشانيين. وخلال كل تلك الفترة التي امتدت لمدة خمسمائة عام، فان الفخار المستخدم في جنوب بلاد الرافدين، وحتى المناطق التي لم تكن تحت حكم الكاشانيين، كان الفخار متماثلاً تماماً و«آنية الفخار» العائدة لنا، على حسب قول بيبي.

ولقد اكتشفت البعثة فيما بعد مبنى يقع تحت مبنى اسمته «القصر» الأشوري، والذي نسبته البعثة للمدينة الرابعة، والذي يعود بدوره الى الفترة الكاشية، وكان عبارة عن مخزن للمؤن احتوى على كميات من التمر والذي يؤكد الطبيعة التجارية لديلمون في ذلك الزمان.

أما بخصوص الأغريق فأن وجودهم كان أكثر تحديداً وارتباطاً بغزو الاسكندر الذي وصل حتى الهند. لقد وجدت البعثة الآثار الاغريقية على نحو أو آخر في البحرين وفي سواحل جزيرة العرب الشرقية، وبفيلكا بالكويت. ولكن الحضور الأكبر لتلك الآثار كان بفيلكا، حيث سبق أن عثر على نقش سابق قبل مجيء البعثة. وبعد ذلك عثرت البعثة على معبد يوناني أقيم في زمن السلوقيين وعلى مكان لصنع التماثيل النذرية، وعلى بضعة نقود تعود الى فترة الملك السوري (أنطياخوس الثالث) والذي حكم الأمبراطورية السلوقية من سنة ٢٢٣ ـ ١٨٧ق. م. ولقد تمكنت البعثة من مماثلة جزيرة فيلكا وجزيرة ايكاروس التي ذكرتها النقوش والمراجع اليونانية المكتوبة عن الكتاب الكلاسيكيين. ونقتطف فيما يلي ما أورده بيبي في وصفه

لعثورهم على المستوطنة الاغريقية، وفي الفصل الذي عنونه باسم ايكاروس:

لقد امتلكنا سبباً يدعونا للاعتقاد حتى في ذلك الوقت أنه ربما أعطى التل الشرقي مستوطنة لاغريق الاسكندر وحينما أنظر الى المعبد استطيع تبين أنه لم يعد هناك أي شك حول الموضوع.

وعندما أشرت ملاحظاً بسرعة أن الشبه مع البارثنيين كان ظاهرياً أكثر مما كان حقيقياً، أخذ كريستيان يحاول جاهداً أن يثبت أن التشابه كان حقيقياً أكثر منه ظاهرياً. لقد كان هناك نقش «السيلا» أو الفناء الداخلي بقاعدته التي تخصص لتمثال اله المعبد. وكان هناك نفس ردهة المدخل: وقد بدتقاعدتان لعمودين في المدخل مما يثبت وجود واجهة أعمدة سابقاً تنتهي بجملون حقيقي. واتجه ليشير مميزاً أحد الأعمدة، والذي تمكنت، حتى أنا نفسي من تبين أصله الأيوني ومجموعة من القواعد أو الدعامات (Acroters)، وهي الزخارف المستقلة والتي تعلو الجملون، والزوايا التي تحدد انحدار السطح. وارتفع المعبد في ناظري، حسبما وصفه كريستيان وهو عبارة عن مزار صغير ـــ مساحته خمس وعشرون قدماً في أربعين قدماً ـــ وقد بدا بمسحة اغريقية خالصة (بالرغم من أن كريستيان قد تمكن من تحديد تأثيرات فارسية عليه) وكل ذلك على مبعدة خمسة عشر ألف ميل بعيداً عن أثينا.

...ولم يعد هناك من شك أن هذه المدينة، مدينة أغريقية. لقد أوحت بقوة بذلك في السنة الأولى حينما حفرنا البيت القرميدي الكبير بين التلال وظهر أنه كان ورشة لانتاج تماثيل من الطين المحروق. لقد عثرنا على التنور الذي كانت تحرق فيه التماثيل، وعثرنا على قطع كبيرة من القوالب التي كانت التماثيل تشكل بها. ولقد تمكنا من اعادة تركيب بعضها، وتمكنا باستخدام جبس باريس من أن نصنع بأنفسنا نسخاً من منتجات القالب. وحصلنا على صنف اغريقي كامل. كانت هناك تماثيل مزينة لنساء وأخرى غير مزينة، ولم تكن احداها لتختلف عن فينوس ميلو، وكان أحدها نموذجاً صغيراً كاملاً لنصر ساموثريس. وكان هناك تمثال رأس رجل نحت ببروز محدود، استطعنا أن نتعرف اليه جميعاً على أنه الاسكندر الأكبر نفسه، ممثلاً كاله الشمس، وقد برزت الأشعة من رأسه.

ويواصل بيبي سرده في الكتاب عن جوانب ذلك المعبد والمستوطنة، والتي تبرز الوجود الاغريقي فوق تلك الجزيرة.

خامساً ـــ العلاقات مع بلاد الرافدين:

شكلت العلاقات بين مناطق شرق الجزيرة، وبالتحديد ديلمون محوراً كاملاً للتقرير، وخاصة بالنظر الى طبيعة العلاقة التي قامت بين بلاد الرافدين بحضاراتها المتعاقبة، وديلمون كموقع ذي أهمية تجارية واستراتيجية بسبب وقوعها في وسط الخليج واحتوائها على الماء العذب، وأهمية دينية، حيث أضحت ديلمون هي الأرض التي تنبعث منها مياه اللج العذبة دون أن تختلط بمياه البحر المالحة، وهي الموقع الذي استقر فيه الرجل الفاني الوحيد الذي حصل على الخلود الدائم وهو أوتونبيشتيم أو زيوسودار، بعد أن نجا من الطوفان وأسبغت عليه الآلهة نعمة الحياة الدائمة. ولقد ذهب إليه جلجامش إلى ديلمون لكي يعرف من سرد الخلود في قاع البحر حيث تنمو قريباً من ينابيع المياه العذبة. وما ذلك الا لآلىء البحرين الشهيرة منذ ذلك الوقت والتي اكتسب جودة وصفاء معيناً بسبب نموها في قاع البحر المالح الذي تنبع منه المياه العذبة.

لقد شكلت البحرين الموقع الذي تتجمع فيه البضائع، وبالذات النحاس القادم من ماجان، ليتم نقله فيما بعد الى بلاد الرافدين. وهكذا فإن علاقتها مع بلاد الرافدين هي علاقة شاملة. بل ان بلاد الرافدين بتطوراتها المختلفة وبآثارها المكتشفة، ورقمها ونقوشها ومحطاتها التاريخية شكلت الخلفية التي سهلت اكتشاف التحديدات الزمنية المختلفة لديلمون. ولذلك فإن تبيان العلاقات القائمة بشيء من التفصيل سيعني بالضرورة العودة الى مقتطفات مطولة من التقرير. فالتقرير ينطلق من ماذكر في النقوش العراقية عن ديلمون، ومن الرؤي الرافدية للمدينة لكي يبدأ في البحث والتنقيب عنها على جزر البحرين، ويترافق

البحث والتنقيب مع العودة للحضارات الرافدية المتتالية لكي تبدو أبعاد ديلمون بوضوح في تلك الأزمنة.

أما العلاقات مع جنوب الجزيرة العربية فترد حينما يبدأ الحديث عن البحث عن مدينة جرها ودورهـا التجاري وغنـاها الأسـطوري والذي انعكس في كتابات المؤرخين اليونان والرومان. ويذكر بيبي أنهم حينما ذهبوا الى مدينة ثـج ودخلوا الى أحد البيوت المظلمة أشـار دليلهم وهـو مقدم القـرية الى الزاويـة العليـا لأحـد الجدران، وأنهم بعد أن اعتادت أعينهم الظلمة تمكنوا من رؤية أحد تلك الأحجار تحمل نقشاً محفوراً، وتمكنوا من تبين كون تلك الحروف تعود الى العربية الجنوبيـة. ويقول بيبي أنـه اختلف وجلوب حول تحديد موقع جرها التي أقامت علاقة واسعة مع جنوب الجزيرة العربية متاجرة في البخور والمر، والتي اشتهرت بها تلك المنطقة. فجلوب يعتقد بأن ثـج هي جرها. الاّ أن البعثة توقفت أعمالها دون أن تتوصل الى نتيجة محددة حول الموضوع.

بقيت أحـدى الحضـارات التي تم تتمـكن البعثة من تحديدها بشكل حتى بأشكالها الدنيا وهو موقع ماجان والتي كانت المنطقة التي يرد منها النحاس لبلاد الرافدين. وهناك الكثير من الاحتمالات والتي تشير الى عمان بكونها الموقع المؤهل لذلك للعديد من الأسباب أولها وجـود النحاس بكميات وافرة والى يومنا هذا. الاّ أن التقنيات لاتزال محدودة بهذا الاتجاه.

الاّ أن ما يلفت الانتباه الى الاستنتاج الذي انتهى اليه التقريـر في سطوره الأخيـرة وعلى ضوئه، حول علاقات عمان ببلاد الرافدين، حيث يشير الى امكانية أن يكون هناك قادمون من عمان ادخلوا الحضارة الى وادي الرافدين، وهو يشبه في ذلك الاستنتاج بحضارة العبيد والدور الذي قامت به في ترويض حوض دجلة والفرات الأدني، واكتشـاف آثـار للعبيـد في سـواحل الجزيرة العربية الشرقية. يقول التقرير متحدثاً عن آنية وسيف اكتشفا في آكام للقبور موجودة في البريمي، أي. في داخل عمان:

وبدأ أن عدة آنية قد طليت بـأشكال من الأحمر الخوخي، والأبيض والأسود وبدا على الفور بأنها معروفة بكونها تنتمي الى حضارة جمدة نصر، والتي سادت على بلاد الرافدين في الفترة بين ٣٠٠٠ و ٢٨٠٠ ق. م.

وعلى ذلك فان الآكام بعد كل شيء أقدم كثيراً من السيف، وقد جرى استعمالها مرة أخرى للدفن بعد خمسة عشر قرناً من السنين من بعد بنائها الأصلي. وها نحن نرى أن الرافديين كانوا في أبوظبي حتى من قبل نصف زمان جلجاميش الأسطوري. أو أن الوضع كان بالعكس؟ هـل كان شعب عمان هنا الذي أدخل حضارة جمدة نصر لبلاد الرافدين؟

وبهذا السطر، والعبارة ينتهي الكتاب

* * *

عبر هذه المقتطفات المطولة من تقرير البعثة الدنماركية، أمكننا أن نطل على جوانب كبيرة من العلاقات التي كانت تقوم وتنسج عراها بين منـاطق شرق جـزيرة العـرب وبالارتبـاط مع الحضارات الرافدية الى حد كبير وكذلك مـع جنوب الجزيرة. ولقد كانت تلك العلاقات تقرب، بـين المناطق، وتصهـرهـا، وتشكـل الأرضيـة الصالحة والمهيئـة لبروز شيء يعبـر عن هذه العلاقات وينطلق منها ويرتقي بها. وكما نرى أنه في الفترة التي أرخت لها البعثة الدنماركية، وردت تأثيرات هندية واغريقية وفارسية عـلى المنطقة الاّ أن سياق تطور تاريخ المنطقة، كان يمتلك قوة حركته الذاتية الفاعلة بحيث كانت تلك التي يمكـن أن نـطلق عليـهـا تجـاوزاً انقطاعات، انما هي عبارة عن أحداث لم تلجم سياق الحركـة العام، وتـطورها نحـو التبلور والتشكل. وما أن شارف القرن السـابع عشر الميلادي حتى كانت الروابط بين المنـطقة قـد استكملت كثيراً من درجات التفاعل والشمول والتداخل. ●



تمهيد:



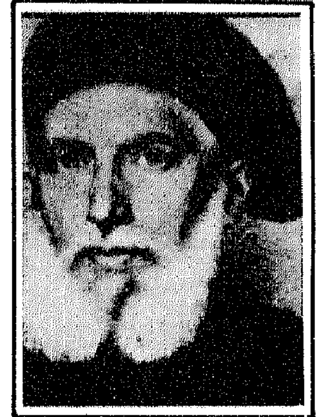
كان الفساد والتدهور قد أصاب معظم مؤسسات الدولة العثمانية، خصوصاً في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ورغم قيام حركة الاصلاح والتجديد منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، إلّا أن مظاهر الجمود والركود ظلت هي البارزة، غير أن القضاء العثماني كانت صفحته أكثر بياضاً وأنفع للناس وذلك، احقاقاً للحق ورداً للباطل، ولعل مرجع الأمر إلى أن أحكام هذا القضاء، في معظمها، كانت تستند إلى نصوص الشريعة الاسلامية، وإلى أن يد الاصلاح تناولت نظام القضاء ورجاله، قبل غيره من مؤسسات الدولة العثمانية.

وكان هذا القضاء، في مطلع القرن التاسع

■ الدكتور طلال المجذوب
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية ـ الفرع الخامس

عشر، بسيطاً في أجهزته وأسلوبه، إذ كان بمستطاع القاضي أن يستمع للدعوى، وأن يصدر حكمه فيها في جلسة واحدة، كما أن القضاء كان يطبق أحكام الشريعة الاسلامية على المذهب الحنفي، أو لا يخالفها على الأقل.

وكان على رأس القضاء قاضيان كبيران يشرفان على كافة القضاة في الدولة العثمانية، أولهما قاضي عسكر الروم ايلي، وكان مسؤولاً عن القضاة في الولايات العثمانية في أوروبا، وثانيهما قاضي عسكر الأناضول، وكان مسؤولاً عن القضاة في الولايات العثمانية في آسيا وأفريقيا. أما الاشراف العام فكان من صلاحية قاضي اسطنبول الذي عرف فيما بعد بشيخ الاسلام. وكان قاضيا الروم ايلي والأناضول يعقدان ديواناً لتعيين القضاة أربع مرات في السنة ومنذ سنة ١٨٥٤ صار يعقد في أول المحرم وأول رجب(١).


ابراهيم باشا

وعند مجيء ابراهيم باشا إلى بلاد الشام أدخل بعض القوانين الأوروبية إلى جانب القضاء الشرعي(٢)، وبعد عودة العثمانيين مجدداً أصدروا عدة قوانين تنظم أحوال القضاء وتحدد صلاحيات محاكمه المختلفة، ولم يكد منتصف القرن التاسع عشر ينصرم حتى كان القضاء العثماني قد أصبح فرعين رئيسيين لكل منهما صلاحياته وتشكيلاته، وهما القضاء الشرعي والقضاء النظامي(٣)، وفي دراستنا للقضاء في صيدا في هذه الفترة، نقدم نموذجاً لحالة القضاء في بلادنا، تكاد تكون هي نفسها في معظم بلاد الشام، في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين.

(أ) القضاء الشرعي:

تمثل هذا القضاء بالمحاكم الشرعية، وكان أبرز رجاله القاضي والنائب والمفتي، وكان يعقد مجلس امتحان مرتين في السنة لقبول القضاة الجدد. وكانت المحاكمة الشرعية تنظر في كافة الدعاوي الشخصية والحقوقية والجنائية، فلما قام القضاء النظامي، اقتصرت المحاكم الشرعية على النظر بالدعاوي الحقوقية و الأحوال الشخصية، أما القضايا الجنائية والتجارية فقد حوّلت إلى المحاكم المختصة.

وكان لغير المسلمين محاكمهم الخاصة للنظر بأحوالهم الشخصية، ورغم صدور قوانين القضاء النظامي فإن المحاكم الشرعية ظلت تنظر بقضايا البيع والشراء المختصين بالأراضي والأملاك، وحتى بعد صدور قانون الطابو (سنة ١٨٦١) فان كثيراً من المسلمين ظلوا يسجلون حجج أملاكهم في المحاكم الشرعية إضافة إلى سندات الطابو.

وفي سنة ١٨٥٩ صدر نظام تحصيل الرسوم في المحاكم الشرعية، وقضى بتنظيم ثلاثة سجلات في كل محكمة لتدوين الرسوم المستوفاة، على أن لا يجري عليها شطب أو حكّ أو إتلاف. وكانت السجلات تضم صفحات مرقّمة، يوضع للمعاملات أرقام متسلسلة، وقد تذيّل بالتاريخ الهجري، وفي الفترة الأخيرة من العهد العثماني صار يضاف إليها أحياناً التاريخ الرومي، ويسجل على أول صفحة من السجل اسم القاضي الذي جرت الأحكام في عهده، وتاريخ البدء في التدوين على السجل، وتاريخ انتهاء العمل به. ومثال ذلك في محكمة شرعية صيدا «هذا سجل الوقايع والدعاوي الصادرة بمدة مولانا عمدة العلماء الكرام نايب المدينة حالاً مكرمتلو السيد محمد نشئت أفندي المفخّم نشر الله له من خير ما شاء بمنّه وكرمه آمين. سنة ١٢٩٠ هـ. (١٨٧٣ م)».

وكانت أبرز الجهود في تنظيم القضاء الشرعي وضبط أوضاعه العمل الذي قامت به لجنة من كبار الفقهاء العثمانيين برئاسة جودت باشا(٤)، في عهد السلطان عبدالعزيز، حين قامت بجمع الأحكام الشرعية وترتيبها وتبويبها

واستغرق ذلك سبع سنوات من غرة محرم ١٢٨٦ (١٨٦٩) إلى شعبان ١٢٩٢ (١٨٧٦) ثم أصدرتها في ستة عشر باباً، اشتملت على ١٨٥١ مادة في كافة الأحكام الفقهية، حسب المذهب الحنفي، وإن كان في أحكامها مزيج من القوانين الأوروبية والشريعة الاسلامية[٥]، وقد عرفت باسم «مجلة الأحكام العدلية» واشتهرت فيما بعد باسم «المجلة» فقط. وأصبحت المصدر الرئيسي للأحكام القضائية، واستمر العمل بها حتى سقوط الدولة العثمانية، وظلت سارية المفعول في لبنان حتى سنة ١٩٤٣، وفي سوريا حتى سنة ١٩٤٩[٦]. أما أبرز رجال القضاء فكانوا القاضي والنائب والمفتي.

١ ـ القاضي:

كان من أبرز الشخصيات المهمة في النظام العثماني، وكان يأتي في المرتبة التالية للوالي، وأبرز القضايا التي كانت من اختصاصه ما عرف بالوقوعات الخمس وهي المناكحات (الزواج) والطلاق والتولد (الولادة) والوفاة ونقل مكان (تبديل مكان الاقامة)؛ بالاضافة إلى أمور الأحوال الشخصية الأخرى، كالهبة والوصية والنفقة والميراث وغيرها.

وكان القاضي يبقى في منصبه سنة واحدة غالباً، وكان القضاة على المذهب الحنفي[٧]، ويتم تعيينهم بموجب قرار رسمي يسمى «مراسلة» يصدر عن دار الفتوى المرتبطة بالمشيخة الاسلامية. ومنذ تأسيس معهد القضاة الشرعي في اسطنبول سنة ١٨٥٥ صار القضاة يعينون من خريجيه.

وكان يشرف على القضاة، ويدقق في أحكامهم، ديوان تمييز أقيم في كل ولاية في عهد السلطان عبدالعزيز، لكنه ألغي في عهد السلطان عبدالحميد الثاني، وأصبح «مجلس التدقيقات الشرعية» في دار الفتوى هو المرجع الوحيد لتمييز الأحكام الشرعية[٨].

٢ ـ النائب:

كان حاكم الشرع الذي يقوم بالقضاء في غير مركز الولاية يدعى «النائب» باعتبار أن القاضي يعينه لينوب عنه في فرض الأحكام الشرعية، لكن صدور نظام تعيين النواب سنة ١٨٥٥ جعل تعيينهم مرتبطاً بامتحان، وصنّفهم خمس فئات: الأولى هي الموالي الدورية والمدرسين، وثانيهما الذين لم يسبق استخدامهم في الخدمة الشرعية سابقاً، وأظهروا مقدرة لدى امتحانهم، وثالثها ورابعها وخامسها هم الأقل استعداداً على التوالي.

وبموجب هذا النظام حصرت النيابة الشرعية في مقر الولاية بالفئة الأولى، وفي القائمقاميات بالثانية، وفي القائمقاميات البعيدة بالثالثة، وما دونها بالأهمية بالرابعة والخامسة، وجعلت مدة النائب في القضاء القريب من مركز الولاية ثمانية عشر شهراً، وفي القضاء البعيد سنتين.

كان النائب على المذهب الحنفي عادة، ولكن تعيين نواب أو أئمة صلاة من المذاهب السنية الأخرى (كالشافعية والحنبلية وغيرهما) ممكن إذا كانت غالبية السكان على ذلك المذهب، ففي سنة ١٣٢٠هـ. طالب بعض الصيداويين السلطات بتعيين إمام للشافعية لأداء صلاة الجمعة في جامع البحر، فقام رشيد وهبي بهذه المهمة بالاضافة إلى وظيفته واعظاً في ايوان وقف بني حمود.

وكان على النائب (القاضي) تنظيم وتدوين سجلات محكمته. وكان يحق له النظر في كافة قضايا الأحوال الشخصية من زواج وطلاق، وما يلزمه من عدة ونفقة، والقضية التالية نموذج لذلك «... حضر المجلس الشرعي الأنور بمدينة صيدا المحروسة صاحب العرضحال أحمد بن عمر الشامي، الوكيل الشرعي عن شقيقته الحرمة خديجة بنت عمر المذكور، المثبوتة وكالته شرعاً بشهادة شعبان بن عبدالله وبكري بن الحاج طه البابا، وأدعى الوكيل على الحاضر معه بالمجلس الشرعي أحمد بن محمد الجويدي، كلاهما من أهالي صيدا، قائلاً بدعواه عليه أنه كان متزوجاً بموكلته شقيقته خديجة، ومن برهة خمسة أيام طلقها، ولم يدفع مؤخر صداقها وقدره أربعمائة قرش، وهي ناقلة منه، وفرض على نفسه نفقة لمنزلها وسكناها، في كل يوم خمسة وأربعين فضة عبارة عن كل شهر ثلاثة وثلاثون غرشاً وثلاثون بارة، وابتداء الفرض والتقدير من تاريخ هذه الوثيقة في

الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٠ هـ».

كما نظر في قضايا الارث للمسلمين وغير المسلمين كذلك فعند وفاة سوسان الزهار الأرثوذكسية انحصر أرثها بأولادها قيصر وسليم ومريم، فاعتبر من خمسة أشهر، لكل ولد سهمان وللبنت سهم واحد.

وعندما أبلغ عن وفاة ابراهيم الشماس (اليهودي الصيداوي) توزعت تركته إلى ثماني حصص لابنه حاييم، وحصة لزوجته نظلة تطبيقاً للفريضة الاسلامية.

وعند وفاة درويش حسين أبوصالح (من بعاصير) توزعت تركته التي بلغت ألف قرش على زوجته مريم (مهرها وربع الباقي ٤٠٠ قرش) وعلى أمه مريم أيضاً (السدس ١٣٣ قرشاً و١٣⅓ بارة) وعلى شقيقته فاطمة ٩٥ قرشاً و٩ بارات ولكل من أشقائه محمد ومرعي وعلي ١٩٠ قرشاً و٩ بارات.

كما نظر في قضايا الوصية والهبة وغيرها.

كما كان ينظر بكافة القضايا الحقوقية، حتى بعد إنشاء المحاكم النظامية، ومثال ذلك هذه القضية «حضر الشيخ محمد السقا وكيل منويل بربارة، وأدعى على حنا منياس، أنه استخدم موكله منويل عنده كصبي حلاق، على أن يعلّمه الصنعة ويقدم له في كل يوم جمعة بشليكين، وأنه متجمد له الآن أجرة أربعة عشر شهراً أي ٦٣٠ قرشاً، كما أن له فراشاً ولحافاً ووسادة حيث كان ينام بالمحل، وردّ المدعى عليه أنه عمل على تربية هذا الصبي وتعليمه الصنعة منذ أن كان عمره أربع سنوات، حيث هو بلا أب أو أم، وأنه منذ أربعة أشهر عين له كل يوم جمعة بشليكين، وأنه كان يدفعها له كل جمعة بجمعتها، وبعد تكليف المدعي الاثبات وعجزه، طلب القاضي منه حلف اليمين الشرعية للسير بالقضية».

وفي القضايا التجارية ظلت المحاكم الشرعية تنظر بها، حتى بعد انشاء المحاكم التجارية، ويبدو أن ذلك راجع إلى تعوُّد الناس على المحاكم الشرعية أو لثقتهم الشديدة بقضائها، فقد اشتكى خليل محمد جرادي وأحمد عثمان اليمن على ابراهيم حبلي لأنهم اشتركوا في عملية تجارية لشراء ليمون وكبّاد من قرية حامول، وأن خليل وأحمد ساهما بمبلغ خمس ليرات فرنسية، وساهم ابراهيم بليرتين، كما أنهم اقترضوا مبلغ ١٥ ليرة فرنسية ذهباً من محمد الترك لاتمام الصفقة، وتسلم المبالغ كلها ابراهيم حبلي لتنفيذ الصفقة، لكنه أدعى بعد أنه لم يتسلم شيئاً، وطرحت القضية على المحكمة الشرعية وكان الشيخ محمد السقا وكيل المدعيين».

وفي أمور الأراضي والعقارات ظل الصيداويون يسجلون معاملاتهم في المحاكم الشرعية رغم وجود المحاكم النظامية وتأسيس دوائر الطابو (العقارية) والقضية التالية نموذج لذلك: «حضرت فاطمة الكلش، وباعت إلى ولدها لصدرها عبدالغني الحاج أحمد الطرابلسي جميع حصة البستان المعروف ببستان بني الكلش في محلة القناية المشتملة على أشجار متنوعة الثمار وعلى بيت وايوان تسقى من ماء قناة الخاسكية[9]. يجري جلبها بالناعورة للبستان المذكور، ويحدها قبلة الطريق السالك، وشمالاً دار مرجان معتوق يوسف آغا الجوهري، وشرقاً حصة حسن ولد البائعة المذكورة وغرباً ملك المشتري المذكور بقيمة ألفين من القروش الأسدية».

٣ ـــ المفتي:

كان موجوداً في كل الولايات، وكان يأتي بعد النائب في الأهمية، وكان عمله مستقلاً عن النائب، لأنه مختص بالمسائل الفقهية، وإن كانت تُحال إليه أحياناً قضايا حقوقية وجزائية ليصدر فتواه بشأنها، ويكون استفتاؤه بصيغة محددة قاطعة، ليسهل عليه اصدار فتواه التي تكون غالباً، اجابة مقتضبة سلباً أو ايجاباً.

كان المفتي عضواً دائماً في مجلس الادارة (في الولاية أو اللواء أو القضاء). ويشارك في الأحداث العامة، وكان المفتي على المذهب الحنفي، ويمكن تعيين مفتين على المذاهب السنية الأخرى، ومن قضايا الافتاء في صيدا: «ادعى حنا أسطة الرومي الصبحي على محمد بن قاسم حمادي بمبلغ ثلاثة آلاف قرش ثمن كبابيت (معاطف) وغيرها وأبرز صكاً



صيدا القديمة

مؤخراً في ١٦ ذي القعدة ١٢٧٠ لكن المدعي عليه أجاب بأن الدعوى لا تقبل، لأنه مضى عليها الزمن بمرور خمس عشرة سنة عليها ولم يطالبه خلالها بدفع المبلغ، وأنه حتى لو قبلت فيجب أن تختص بها محاكم جبل لبنان لأن المدعى عليه ووالديه مقيمون فيها، ولما أعجز الأمر القاضي، رفعه إلى مفتي صيدا، فأفتى بأنه إذا كان السكوت عن رفع الدعوى كل تلك المدة بلا مسوّغ شرعي فلا تسمع منه، وإذا ثبت المدعي وجود مانع شرعي فتسمع منه، ويجوز أن يكون ذلك أمام محاكم جبل لبنان. لأن القضاء يتخصص بالزمان والمكان والأشخاص والحوادث، وعند ورود الفتوى، سئل المدعي عن بيّنة تثبت طلبه المبلغ خلال تلك الفترة، فعجز عن ابرازه، فحكمت المحكمة بردّ الدعوى».

(ب) القضاء النظامي:

كان هذا القضاء وليد الاصلاحات التي جرت في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان حجر الأساس فيه صدور قانون الجزاء الهمايوني «قانون العقوبات العثماني» سنة ١٨٥٨، وتعديلاته سنة ١٨٧٠ ثم القوانين التي تلته(١٠).

وكان قانون تشكيل الولايات الصادر سنة ١٨٦٤ أقرّ إنشاء ديوان تمييز في كل ولاية يتألف من ستة أعضاء، ثلاثة منهم مسلمون، وثلاثة من غير المسلمين، ويدعى كل منهم «مميّزاً» ووظيفة هذا الديوان الفصل في الدعاوى الجزائية والحقوقية، ويصدق الوالي على أحكام الديوان، وما يخرج عن صلاحياته يرفعه إلى اسطنبول لتبت به.

أما في اللواء فيشكل مجلس حقوقي يرئسه حاكم الشرع (النائب) ويتألف كذلك من ستة أعضاء، وله نفس الصلاحيات المعطاة لديوان تمييز الولاية، ويصدق المتصرف على أحكامه، وما يخرج عن صلاحياته يرفعه إلى الوالي لينظر فيه.

وفي القضاء انشىء «مجلس دعاوي القضاء» ويرئسه حاكم الشرع في القضاء، ويتألف من ستة أعضاء كذلك، وينظر بكافة الدعاوي عدا الجنائية منها، ويصادق القائمقام على أحكامه، وما يخرج عن صلاحياته يرفعه إلى المتصرف.

وطبقاً لقانون تشكيل المحاكم النظامية لسنة ١٨٧٢ خوّلت مجالس القضاء بالنظر بالدعاوي بداية، ومجالس التمييز في الألوية

تراها بداية واستئنافاً، وفي دواوين التمييز لمراكز الولايات ترى الدعاوي استئنافاً فقط.

كما أوجد في كل قرية وناحية مجلس اختيارية مهمته تسوية القضايا صلحاً، ولا يصدر حكماً بل يأخذ سنداً من الطرفين بأنهما تصالحا فإذا لم يقبل أحد الطرفين الصلح تحوّل الدعوى إلى المحاكم المختصة.



جندي عثماني

وكان قانون الجزاء الهمايوني اعتبر الجرائم ثلاثة أنواع: جناية وجنحة وقباحة. أما الجناية فهي أفعال تستلزم المجازاة الارهابية أي الاعدام والوضع في الكورك[١١] مؤبداً أو مؤقتاً، مع التشهير[١٢] والسجن في القلاع والنفي المؤبد والمحرومية من الرتب والوظائف. وأما الجنحة فأفعال تستلزم المجازاة التأديبية، أي الحبس أكثر من أسبوع والنفي المؤقت والطرد من المأمورية والجزاء النقدي، وأما القباحة فهي أفعال أو حركات تستلزم المعاملة التكديرية، أي الحبس من أربع وعشرين ساعة إلى أسبوع، والجزاء النقدي حتى مائة قرش.

والقضايا الحقوقية التي كان ينظر بها مجلس دعاوي القضاء لا تتجاوز قيمتها خمسة آلاف قرش، ولا يتعدّى ايرادها السنوي خمسمائة قرش، ومن أمثلة هذه القضايا «... حكم على الخواجة جرجس بن ابراهيم نخلة، من أهالي صيدا المتوطن الآن في بيروت بمبلغ ألفين وسبعمائة قرش للخواجة بشارة زهار الصايغ العثماني من أهالي صيدا المرهونة على ذلك المبلغ نصف دار لجلة الشارع بصيدا محتوية على (أودتين) ومطبخ. بناءً عليه وحيث المحكوم عليه الراهن المحرر تمنع عن دفع المبلغ المذكور، لذلك وجب طرح المرهون بالمزاد، فالذي له رغبة لمشترى نصف الدار فليراجع دائرة الاجراء في محكمة بداية صيدا»[١٣].

وكانت محكمة البداية في القضاء (مجلس الدعاوي) تنظر في الجرائم من نوع القبائح، وتصدر بها حكماً قطعياً، أما في جرائم الجنح فيكون قابلاً للاستئناف، أما في الدعاوي الجنائية فترسل المحكمة في القضاء بنتيجة تحقيقاتها إلى مجلس التمييز في اللواء ليحكم بها.

وكان انتخاب أعضاء المحكمة يجري بمعرفة لجنة فرز خاصة، مؤلفة من أعضاء مجلس الادارة الاصليين (وهم القاضي ومدير المال والمفتي ومدير التحريرات) ورؤساء الطوائف المسيحية ويرئس اللجنة القائمقام، وترسل النتيجة إلى المتصرف الذي يختار أحد الأسماء الثلاثة كي يكون عضواً في المحكمة، أما أعضاء محاكم الألوية فيقوم باختيارهم الوالي، ويتم اختيار أعضاء محاكم الاستئناف في الولاية بواسطة وزير الداخلية في العاصمة، وتدوم فترة عضوية كل منهم سنتين[١٤].

وكانت محكمة بداية صيدا تتألف عادة من عضوين مسلمين وآخرين مسيحيين، وكان أحد العضوين المسلمين سنياً والآخر شيعياً، أما العضوان المسيحيان فكانا بالتناوب بين الطائفتين الأكثر عدداً في صيدا، طائفة الروم الكاثوليك، وطائفة الموارنة[١٥]. ففي سنة ١٨٧٥

مثلاً تألفت محكمة بداية صيدا من النائب رئيساً ومن الأعضاء عثمان الزين وعلي الحر، والياس زكّا، ومخّول أفندي، ومن الكاتب يوسف رفعت. وفي سنة ١٩١٢ كان رئيسها محمد علي التميمي، والأعضاء مارون الوزير والحاج سعيد البزري، والباشكاتب كامل كزبر، والمستنطق نجيب الأسطة، والكاتب صبحي الددا، ووكيل الدعاوي داود الزهار.

ولم تكن انتخابات أعضاء المحاكم تتم بحريّة دائماً، إذ كان القائمقام يتدخل أحياناً ضد بعض المرشحين، أو لمصلحة البعض الآخر، كما حدث سنة ١٨٨٠ عندما رفض القائمقام احسان بك طلب الترشيح لعضوية المحكمة للحاج محمود المجذوب وجبور نمور واثنين من آل لطوف (مسيحي) والحرّ (شيعي)، فحدث شغب في صيدا، وقام محمود المجذوب بإرسال عريضة احتجاج ضد القائمقام التركي وسانده أقرباؤه من آل الجوهري، وفي النهار نفسه صدف أن تجمع المزارعون الذين تضرّرت بساتينهم من مشروع فتح الطريق بين صيدا والنبطية، أمام مقر القائمقام للاحتجاج، كما ظهرت منشورات ثورية على جدران شوارع صيدا مناوئة للأتراك، وتدعو إلى تعيين قائمقام عربي، فاعتقد القائمقام أن محمود المجذوب ورفاقه سبب كل ذلك، فاعتقله مع رفاقه، وأبرق إلى بيروت بالحادثة، ولما حاول آل بيهم، وكانوا أصدقاء لمحمود المجذوب، التوسط للافراج عنه لدى الوالي حمدي باشا رفض وساطتهم(١٦). وبعد فترة أطلقت السلطات سراح المجذوب ورفاقه المعتقلين من عائلات الجوهري ونمّور ونحّول وقدورة(١٧).

وبعد تسلّم الاتحاديين الحكم، في مطلع القرن العشرين، فرضوا معرفة اللغة التركية على أعضاء المحاكم، وعندما تبين للسلطات أن اثنين من أعضاء محكمة بداية صيدا يجهلان التركية، عزلتهما، وأعلنت عن قبول الترشيح لعضوية المحكمة بدلاً عنهما، مما حدا ببعض الصحف إلى التساؤل عن الهدف من ذلك، سوى الاساءة لمشاعر العرب بفرض التتريك عليهم(١٨).

وكان يوجد للمحاكم الشرعية والنظامية محامون (وكلاء دعاوي) وممن برز منهم في صيدا: سليمان مصوبع، والشيخ محمد السقا، وعثمان فوزي، وبشاره نمور، وحبيب فارس، ومحمد كامل المغربي، ومحمد آغا حمود وغيرهم.

هذا وكانت رواتب أعضاء المحاكم في أواخر العهد العثماني كما يلي: رئيس محكمة البداية ألفا قرش شهرياً، وأعضاء المحكمة ألف قرش، ورئيس الدائرة الحقوقية في محكمة الاستئناف ثلاثة آلاف قرش شهرياً، ورئيس الدائرة الجنائية ألفا قرش، أما أعضاء محكمة الاستئناف فراتب كل منهم ألف وخمسمائة قرش شهرياً(١٩).

محاكم التجارة:

فيما بين سنتي ١٨٥٩ و١٨٦٣ صدرت عدة قوانين تنظم أصول التجارة البرية والبحرية في الدولة العثمانية، ومن ثمّ في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٢٨٧ (١٨٧١) صدر قانون أصول محاكم التجارة، وبموجب هذا القانون اختصت هذه المحاكم بالنظر في كافة القضايا التجارية وتم انشاؤها في كل مكان كانت تدعو الحاجة إليه من مدن الولايات المختلفة، أما محاكم الاستئناف التجارية، فقد اختصت بها عواصم الولايات وحدها.

وتألف نصف أعضائها من غير المسلمين، وكانت معظم قوانينها منقولة عن القوانين التجارية الفرنسية. وفي سنة ١٨٨٢ جرى انشاء المحكمة التجارية في صيدا وانتخب لعضويتها يوسف المجذوب، واسماعيل النقيب وميخائيل بسترس وعبدالله النقاش «... لرؤية المصالح التجارية في محكمة بداية صيدا الخالية من محكمة خاصة، وذلك تطبيقاً للمادة العاشرة من قانون تشكيل المحاكم. وكذلك المادة ١٦ من ملحق ذلك القانون...»(٢٠).

غير أن اعتياد الناس، من شتى الطوائف، على الركون إلى المحكمة الشرعية في حل قضاياهم، وتساهل القانون في هذا المجال، أضعف كثيراً من دور المحكمة التجارية في صيدا، حتى في الشؤون الاقتصادية البحتة،

جدول رجال الافتاء في صيدا:

الشيخ مصطفى المغربي ١٨٦٠
الشيخ محمد البزري ١٨٧٥
الحاج عثمان الزين ١٨٧٧
محمد نائلي أفندي ١٨٧٩
الحاج عثمان الزين ١٨٨٤
الشيخ مصطفى المجذوب الملا ١٩٠٢
محمد بهاء الدين الزين ١٩٠٦
الشيخ كمال المغربي ١٩١٤

وظلت المحكمة الشرعية تستأثر بنصيب الأسد من النظر في هذه القضايا، واصدار الأحكام فيها «... حضر الياس نخلة أبيلا وادعى على حبيب مخول الصهيوني من محلة القناية في سقي صيدا أنه اشترى منه حنطة وفولاً، وبقي له في ذمته من قيمتهم مبلغ ٢٢٧ قرشاً عملة رايج بندر صيدا، وبعد سؤال المدعي عليه واقراره بالمبلغ، حكم القاضي بأن يؤديه إليه مقسّطاً».

وبعد انهيار الحكم العثماني، وقيام سلطة الانتداب، جرت تغييرات قضائية عدة، ولعل أولها كان قيام محكمة شرعية شيعية كان أول قضاتها في صيدا القاضي منير عسيران. ●

الهوامش والمصادر:

(١) نوفل نعمة الله نوفل، الدستور، ج ١، ص ١٤٢.
(٢) سليمان أبو عز الدين: ابراهيم باشا في سوريا، بيروت، ١٩٢٩، ص ١٤١.
(٣) صدر نظام توجيهات مناصب القضاة ونواب القضاة سنة ١٨٥٥، وقانون العقوبات سنة ١٨٥٨، ونظام مجلس الأحكام العدلية سنة ١٨٦١، ونظام دعاوي التجارة سنة ١٨٦٨، وقانون المحاكم النظامية سنة ١٨٧٢، ونظام تعيين نواب حكام الشرع في سنة ١٨٧٢.
(٤) Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, 1961, p. 120.
(٥) شفيق جحا: مجلة الأبحاث، المجلد ١٨، الجزء ٢، ص ١١٤.
(٦) يوسف الحكيم: سوريا والعهد العثماني، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢٣.
(٧) عبدالكريم غرايبه: سوريا في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٦٤.
(٨) يوسف الحكيم، ص ٣٠.
(٩) قناة تمر شرقي صيدا وتسقي بعض بساتينها، وينسب بناؤها للسيدة خاسكية زوجة الأمير فخر الدين المعني الثاني.
(١٠) مثل نظام ديوان الأحكام العدلية سنة ١٨٦٧، وقانون المحاكم النظامية سنة ١٨٧٢، وتعرفة رسوم الأحكام العدلية سنة ١٨٧٠، وتعرفة الرسم في المحاكم النظامية سنة ١٨٨٧، وقانون أصول المحاكمات الجزائية سنة ١٨٨٩.
(١١) الكورك وضع القيود الحديدية في أقدام المحكوم، وتكليفه بالقيام بالأعمال الشاقة.
(١٢) التشهير هو كتابة خلاصة الحكم بخط كبير، ووضعها على صدر المحكوم، وايقافه في الساحة العامة ساعتين ليراه الناس.
(١٣) ثمرات الفنون، العدد ٤٠٤ في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٨٨٢.
(١٤) يوسف الحكيم، ص ٢٩.
(١٥) مطرانية الروم الكاثوليك، صيدا.
(١٦) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، تقرير القنصل الفرنسي في بيروت برقم ٤٨ وتاريخ ٢ كانون الثاني ١٨٨١.
(١٧) ثمرات الفنون، الأعداد ٣١٣ و٣١٥ و٣١٨ في ١٠ و ٢٤ كانون الثاني و ١٤ شباط ١٨٨١.
(١٨) لسان الحال، العدد ٧٥٨٠ في ٢٣ حزيران ١٩١٤.
(١٩) Public Record Office ف.و. ٢٣٤٢/١٩٥ تقرير قنصلي ملحق برسالة رقم ٧ من القنصل البريطاني كومبرباتش للسفير سير جيرارد لوثر، بيروت في ١٢ شباط ١٩١٠.
(٢٠) ثمرات الفنون، العدد ٣٧٥ في ٣ نيسان ١٨٨٢.



أسرار فتنة الجزائر ١٩٦١

د . رياض الصالي



فشلُ المحاولة العسكرية، خلال ربيع ١٩٦١، ضد سياسة الجنرال دوغول في فرنسا، كرس الطلاق بين فرنسيي فرنسا المؤيدين لرئيس الدولة، وفرنسيي الجزائر. بدأ كل ذلك في ٢١ نيسان، عند منتصف الليل، على مطار بليدا قرب الجزائر، حين حطت طائرة نزل منها ثلاثة هم: قائد الطيران شال، وقائد الجيوش البرية رئيس الأركان السابق زيلر، وكلاهما متقاعد، والكولونيل بروازا، المساعد السابق للجنرال ماسو في جيش فرنسا في الجزائر. لقد تلخص موقف هؤلاء وموقف من ساهم في المحاولة العسكرية بما يلي: «لن يكون للجزائر استقلال أبداً!». وكان قد تفاقم الوضع بين أقطاب المحاولة والسلطة منذ عام ١٩٥٨.

زمن الضيق:

لقد اتخذت خلال ثلاث سنوات تدابير سياسية ادارية، يضاف اليها خطاب الرئيس دوغول، كان من شأنها أن تغير من معطيات المسألة. فبينما كان دوغول يؤكد في حزم، في جولاته المتعددة، أنه سيقضي عسكرياً على التمرد بمساعدة الجماهير المسلمة والأوروبية، كانت مشاريعه السياسية تنأى تدريجيا عن نواياه العسكرية. فبدل «الجزائر الفرنسية» حل عام ١٩٥٨ في خطبه مصطلح «حق تقرير المصير» بل «الاستقلال» كذلك.


Le Monde

DANS LA NUIT DE VENDREDI A SAMEDI AVEC L'APPUI DES PARACHUTISTES

COUP DE FORCE MILITAIRE A ALGER

- Les généraux en retraite Challe, Jouhaud et Zeller s'emparent du pouvoir
- Les généraux commandant à Oran et à Constantine refusent de les suivre
- Le gouvernement prend des mesures « pour que force reste à la loi »

L'AVENTURE

ولم تكف تطمينات ميشال دوبري رئيس الوزراء المتكررة، لتخفيف ضيق الفرنسيين تجاه المعارضة، منذ كانون الثاني ١٩٦٠.

وحين اعلن دوغول في تشرين الثاني ١٩٦٠ امكان قيام «جزائر جزائرية» بدأ بعضهم يحضر للتمرد. ووجدوا في الزيارة التي كان يزمع دوغول القيام بها فرصة لاعلان تمردهم. ودعي الجزائريون الى الاضراب واعلان غضبهم ضد المتمردين، وجرت بين الطرفين صدامات ساخنة، وكان المتظاهرون يهتفون «يحيا دوغول. تحيا الجزائر جزائرية!»: ففاجأوا «الأقدام السوداء» وجد المتمردون في ذلك فرصة لاثارة الجيوش الفرنسية، وتكتيلها حول اهداف قادتهم. في هذا الوقت كان سالان وجان جاك سوزيني في مدريد ينتظران تطور الأحداث. وفوجئا باعلان الاذاعة الفرنسية، السبت ٢٢نيسان، ما يلي: «أتم الجيش مراقبة الأرض الصحراوية الجزائرية حسب الخطة المرسومة».

مجلس العقداء:

كانت هذه الخطة قد وضعها فريقان: الأول مكون من عقداء وزعتهم السلطة على كل مدن الحامية، آرغون وغارد في متز، بروازا في شالون سورمير، غودار في تيغر، دوفور في فوري نوار. وكان هؤلاء يرقبون الأحداث بانتباه، محاولين تبين الانطباعات وردود الفعل على النقباء والملازمين الذين كانوا يزورونهم، الذين كانوا غاضبين وقليلي الصبر. وعلموا عندئذ ان الشركة الفلانية رفضت الاسهام، وان الضابط الفلاني قرر الهجرة الى كاتانغا، وان الجنرال الفلاني يهدد السلطة. التف الفريق الثاني حول الجنرال فور. ومن بينهم العقيد لاشروي الذي حول المدرسة الحربية الى مكتب للجنة فانسين التي شكلت لمقاومة سياسة دوغول الهادفة الى اعطاء الاستقلال للجزائر. وقد جرت الظروف الفريقين الى الاندماج بتأثير العقيد بلينيير، والملازم ديغلدر اللذين ربطتهما صداقة حميمة منذ كانا في الهند الصينية. وقد قرر الفريقان: «ان اللحظة الحاسمة حانت».

ولكن كان لا بد من قائد، ذي رتبة عالية، ونفوذ في الجيش ولدى الشعب. فكر العقداء بالجنرال ماسو المنتصر في «معركة الجزائر». وفكروا بالماريشال جوان المحترم لدى الجميع، ولكنه كان كبيرا في السن. أما الجنرال سلان فمتهم لدى الشعب لعدة مظاهر غامضة خلال خدمته العسكرية والسياسية. وحده اسم الجنرال شال، فرض نفسه. فهو معروف بمطامحه الشخصية، وبتعلقه بالجزائر، وبأنه استقال من منصبه في حلف شمال الاطلسي، وقد شهد الاجتماعات التي دعا اليها بيدو وسوستيك ولاكوست ولوجون. واقترح مقاومة سلمية وعسكرية ضد شعب الجزائر. مع ذلك فقد لزم عدة اجتماعات لإقناعه بقيادة الحركة. واستطاع جوهو، قائد طيران الأقدام السوداء اقناعه اخيرا.

ضمائر مضطربة:

في شباط، كان لا بد من وضع اليد على الجيش لاستبدال الجنرال كريبان بالجنرال غامبييز، الذي كان ديغوليا فكرس وقته لحل قضايا العسكريين الوجدانية، مسهلا بذلك مهمة المندوب الجنرال موران.

وفي مناخ ينقصه الصفاء، تحاشى غامبييز ان يجبه الخواطر المشغولة باشاعات وقف اطلاق النار، واعادة الوحدات الى الوطن أو الى المانيا.

غير أن وضع اليد على الجيش سهل عدم الرقابة الدقيقة، التي استغلها المتآمرون. فسربوا اوامر تفيد مخططهم: في النقليات، والاجازات، وتسريب اخبار من اصدقاء خارج الجزائر. وحدث حدثان مهمان. ففي ٣٠آذار اعلنت تونس وباريس بدء محادثات في ايفيان.

الجنرالات الأربعة:
اندريه زيلر — موريس شال
ادموند جوهو — راوول سالان







بعد ايام صرح جان لارتيغي للصحافة عزم جبهة تحرير الجزائر ان تفيد من وقف اطلاق النار لتأخذ مبادرة الهجوم. وكان ذلك قاسيا على اناس فقدوا ذويهم في المعركة، مما أثار غضبهم.

كان من الصعب تحاشي الصدمة. وكان اثر ذلك شديدا على وحدتين: كوماندوس الطيران والفرقة الأولى. وكانت العلاقات بين الجنود والضباط وبين الضباط والقادة الكبار حميمة بسبب المعارك التي خاضوها معا. لذلك لم يصعب اشتراك الوحدتين في المؤامرة. ووضعتا تحت امرة المقدم ايلي دونوا دوسان مارك. وانضم للعملية الفرقة السابعة والعشرون، بقيادة بوغا، والفرقة الأولى وقائدها العقيد شابل، والرابعة وقائدها العقيد ماسولو، والثامنة عشرة بقيادة العقيد لوكونت، والثانية، وقائدها العقيد كويتفوردون والخامسة. ليست هذه كل الجيش ولكن العقيد بروزيي، وفرقة سيدي بلعباس، سينضمان. أما شال فيبدو أنه كان على قناعة من أن اسمه وحده كان كافيا لضم جميع العناصر.

لقد اراد شال، وهو على رأس المجلس الأعلى في الجزائر، والى جانبه جوهو وزيلر وسالان ان يحقق نصرا اكيدا خلال ثلاثة اشهر، على دوغول لاجباره على الاحتفاظ بالجزائر بعد اخضاعها نهائيا.

وقد علم شال من دوبلينيير ان حركة معارضة مدنية نشأت في فرنسا ضد دوغول. واذا كان تأثير لجنة فانسين على الرأي العام ضعيفا، فان الاتصالات مع الأوساط السياسية المستقلة، والمركزية، والراديكالية، والصناعية والزراعية، كانت مريحة وواعدة. وسرت اشاعات ان اتفاقا تم على القيام بالحركة.

من جهة ثانية اصبحت القضية الجزائرية عالمية، فقد نشأت لجبهة التحرير الجزائرية تحالفات وعلاقات واسعة على الصعيد العالمي. كما ان بعض الأوساط العالمية كانت تتحرك سرا لايجاد مخرج، ذلك انها كانت معنية



المظليون والفرقتان: الرابعة عشرة، الثامنة عشرة... يوم ٢٢ نيسان ١٩٦١

بثروات الجزائر (خاصة البترولية)، وقيام قوة في الجزائر منفصلة عن فرنسا، قد يغير الكثير من المواقف. فاسبانيا وعدت «الانقلابيين» بالمساعدة، وجوها نسبورغ اغدقت الوعود.

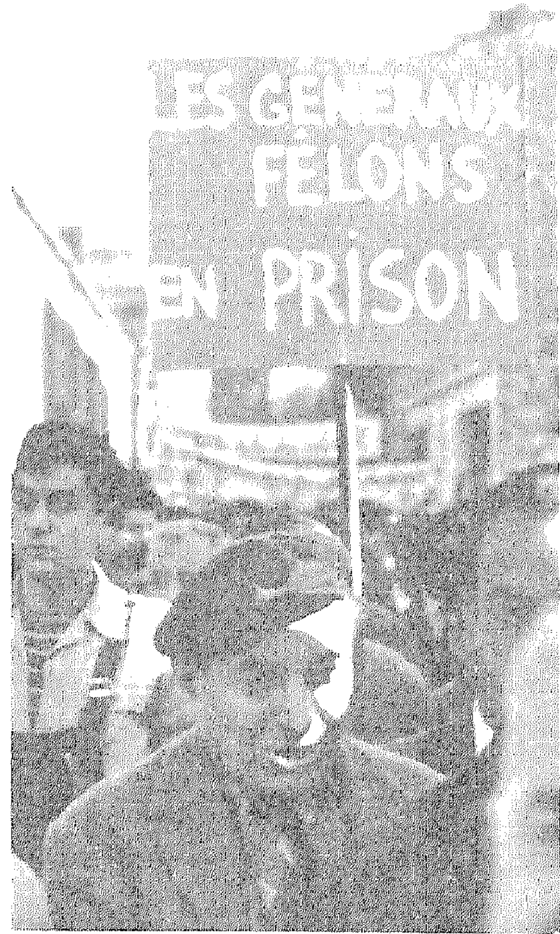
الوفاء بالقسم:

حين دعا رئيس الدولة في ١١ نيسان الى تحالف فرنسا «والجزائر المستقلة» ازال اخر شكوك الجنرال شال.

وكرد على الجنرال دوغول، اكد شال في ٢٢نيسان، من الاذاعة، انه موجود في الجزائر ليفي بقسمه. وفي الليل سقطت كل الاهداف دون ان تستطيع السلطة اعداد اية مقاومة. وكان المخطط قد درسه وراجعه شال نفسه، فيما حرسه لا يعلمون شيئا عما يحدث.

لقد اتخذ عدة احتياطات تحسبا للمفاجآت، ومنها ان طائرته حطت في غير المكان المتوقع. كذلك رسا الجنرال غاردي والعقيد غودار في مرفأ غير الذي انبأ رفاقهما عنه.

وبمبادرة من غودار، رئيس الأمن السابق في الجزائر، والنقيب بايت سقطت المدينة خلال ساعتين وسلمت لقادة روبان الأربعة وشركات سان مارك الثلاث. واوقف في القصر الصيفي موران، اوبير، بورون وزير النقل. وفي حصن الامبراطور، اوقف مدير البوليس، وفي ثكنة بيليسيي أوقف الجنرال ميزينه واركانه. واعتقل من الشارع الجنرال غامبييز والجنرال سان هيليي. وحوصرت الموانىء جميعا وقطعت الاتصالات الهاتفية. ولكن موران استعمل خطا لاسلكيا ليعلم باريس والمفتشين العاملين في الادارة، والمفوضين في وهران وقسنطينة ومحافظي منطقة الجزائر. الساعة الثالثة



مظاهرات مضادة للانقلاب

صباحا كان كل شيء قد نفذ.

رفض وتردد:

مضى شال، يساعده زيلر وغـاردي يتصل بالضباط ليقنعهم بصواب الحركة، وتلقى تأييد قطعات الجيش في وهـران وقسنطينة. اما الجنرال غورو فأيّد على الهاتف ثم تراجع في النهـار، واعلن ذلك عـلى النـاس مسـاء. ولم يتحالف مع زيلر الا في الغد. ولكن احد ضباط غورو لم يشايعه هـو الجنرال بـويي. فكلف غاردي باقناعه، أو باعتقاله، ولكن بويي كـان قد انتقـل الى تلمسان. كما ان بعض القطعات اعترضت على العملية، مما عقد الموقف. كما ان الاتصالات بالصف الثاني من القيادات خيبت امل المتآمرين. وقد شعر شال بمـواقف محدثيه على الهـاتف الذين كـانـوا يكـرهون محـاولات اغداق الوعـود، بمناصب وغيره. كما ان بعض الجنـرالات (ميزونـروج مثلا) تمارضوا او زعموا انهم متغيبون وامروا مسـاعديهم بـالرد عـلى شـال. وكـانت بعض الأجـوبة متحفـظة، او متهمـة: «من وراءكم؟ والاجانب؟ ما هو مخططكم؟»".

مساء السبت ٢٢، لم يكن البيان مقنعـا. وتوالت الامال والخيبات. جنرال يؤيد، واخـر يرفض، وقطعـة تستسلم، ثم يقوم منهـا من يسيطر على الوضع ويعتقل اعوان المتآمرين.

لم يتطور الوضع غداة الانقلاب. كثيـرون كانوا يؤيدون الانقلابيين ولكنهم كانوا مترددين. وادرك شال ان الموقف ليس سهلا، خاصة وان بعض الجنـرالات المعروفـين رفضوا الحـركـة رفضا قاطعا ومنهم: فوركيه آيوريه.

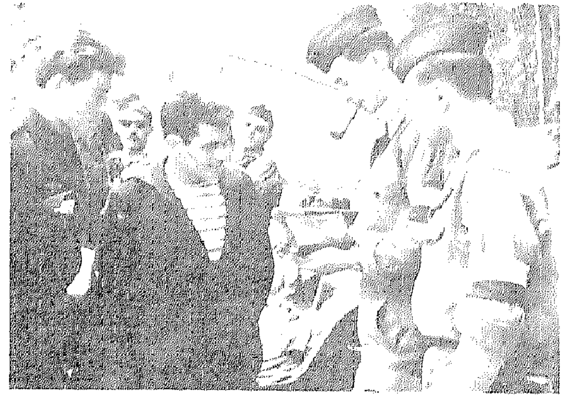
وكـان على شـال ان يحاول عبر التلفون، وسيلته الوحيدة، اقناع المترددين «والمنتظرين»، يساعده عدد قليل في غرفة عملياته.

اما زيلر فكلف بمهمة صعبـة وهي تـأمين المؤن لعشرة ملايين من السكان وخمسمائة الف جندي.

قدم سالان وسوزيني من اسبانيا يوم الاحد، فلم يبدآ اسهامهما في العمليات الا بعد تكتم شـديد. وقضى كثيـرون الوقت عـلى الطرقـات للاتصـال بهذه القـطعة او تلك، وكـان نقص الرجال العاملين واضحا ومعرقلا. لذلك احتاج اقناع الاخرين الى كبير وقت. مما حدا ببعض القادة مثل كوستو وبواسيو الى التشاؤم. كما ان بعضهم تخـلى عن المتـآمرين في اللحـظة الاخيرة لانهم كانوا راغبين في انقلاب على ارض فرنسا.

دوغول يرد:

في بـاريس، اطلع ميشيل دوبـري الرئيس دوغـول على احـداث الجزائـر الخطيـرة، ليل ٢٢ نيسان. وبرباطة جأش بـدأ دوغول يتخـذ الاحتياطات الضرورية لتحطيم المؤامرة. وحدد خطابه المتلفز في ٢٣، طبيعة رده على المؤامرة، واعلن حالة الطوارىء وتطبيق البند السادس عشر من الدستـور الذي يعطي كـل السلطات لرئيس الجمهورية. ووصل وزير الجزائر لوي



سماع الأنباء الأخيرة



الفشل الأخير ـ اعتقال زيلر

جوكس الى مسرح الاحداث، يرافقه رئيس الاركان الجنرال اوليي، ليحل مؤقتا محل غامبييز.

كان دوغول على قناعة من ان معظم قوات الطيران وقطعات الجيش لن تؤيد الانقلابيين، وان بعضهم سيمارس الرفض السلمي حتى لا تقوم مذابح بين الفرنسيين انفسهم. كذلك الامر بالقياس الى عدد كبير من الموظفين المخلصين لمؤسسات السلطة. ثم كان خطاب دوغول واضحا وحاسما، مما شجع هؤلاء على الوقوف في وجه المؤامرة، وعدم تنفيذ اي امر يصدر اليهم من المتآمرين الذين اعلن دوغول انهم سيقدمون الى المحكمة العسكرية. واوقف بعض الجنرالات كالجنرال فور. وفي الوقت ذاته حاول المتآمرين نقل تحركاتهم الى قلب فرنسا.

ولكن السلطة اتخذت المبادرة. فقد كانت العاصمة تتوقع غارة جوية. لذلك دعا ميشيل دوبري الى التطوع لمقاومة اية محاولة للانزال المظلي او الغارات. وامضى المتطوعون طوال الليل يراقبون. ولكن خوفهم لم يكن في محله، ذلك ان شال الذي لم يستطع جعل قوات الجزائر تلتف حوله، لم يكن قادرا على القيام برد سريع على تدابير دوغول.

على عتبة اليوم الثالث، لم يبق شك لدى المتآمرين ان حظهم في النجاح قد ولى. فقد بدأ التمرد عليهم في الثكنات. وتخلى المظليون عن المعركة بعد تردد رؤسائهم، وعادوا الى مراكزهم. ورفض مظليو وهران الاستيلاء على قاعدة المرسى الكبير. ويئس الجمهور يأساً كبيراً، وبدا واضحا ان قوات الانقلابيين غير قادرة على تحقيق شيء. ولم يظهر الانقلابيون للجمهور الا الاثنين في الملعب، ولكن الميكروفونات كانت سيئة الى حد لم تسمع معه اصوات القادة.

وفشل الانقلاب. وكلف الجنرال هوبلو «بتنقية» الجيش، فحلت فرق من الجيش بكاملها وسجن قادتها (الاولى، الرابعة عشرة، الثامنة عشرة). وطلب من رجال الاركان جميعا ان يقدموا اعترافا كاملا مكتوبا بكل ما فعلوا خلال الساعات المائة السابقة. وزج شال وزيلر في سجن المجرمين.

ولم يبج افراد الادارة المدنية، مع انهم كانوا اقل تورطا في الانقلاب. فقد فرضت عليهم القيود ذاتها. فقد استدعي اربعة من كبار موظفي المفوضية، ونقل اخران. واعتقل ستة مفوضي شرطة، واوقف مئتا موظف، واربعمائة اتهموا بمساندة المتآمرين. وجمّد سبعة وعشرون مدعيا عاما، واثنا عشر رئيس بلدية. ومنعت الصحف الصادرة في الجزائر من الصدور. وقامت قوات الشرطة العسكرية بتفتيش دقيق في بعض المدن بحثا عن اسلحة بيعت او خبئت، وللقبض على كل اعضاء منظمة الجيش السري (O.A.S) التي شكلت بعد فشل الانقلاب. وضمت قادته، لتحول بالقوة دون توقيع الاتفاق بين جبهة التحرير والسلطات الفرنسية. ومن هؤلاء القادة (سالان، جوهو، غاردي، غودار، بروازا، غارد، فودري، سرجان، وديغلدر).

ولكن معركتهم كانت يائسة. ونفي معظمهم وسجن الاخرون. ونالت الجزائر استقلالها.

●

الحضارة

تعريف وبداية

أنطوانيت أديب باسيلي

تاريخ العرب والعالم ـ ٦٩

أولاً: مفهوم الحضارة.

عند دراسة حضارة أمة من الأمم، يتجه فكر الباحث إلى جوانب عديدة من حضارتها، وكتب حضارات الأمم المختلفة كثيرة، ومن كَتَبَ بهذا الخصوص كثيرون أيضاً، ولكنهم لا يتفقون على نهج واحد في تعريف الحضارة، ولا في أسلوب دراستها.

وقد وقف بعض المؤرخين والباحثين الكبار، الذين أصبحوا مصدراً أو مرجعاً بهذا الخصوص عند الدراسة التاريخية لهذا الموضوع لم يتخطوها.

وتتألف الحضارة من عناصر أربعة:

أولاً: الموارد الاقتصادية.
ثانياً: النظم السياسية.
ثالثاً: التقاليد الخلقية.
رابعاً: العلوم والفنون.

يجدر بنا أن نوضح إنه قد تستعمل كلمة ثقافة للتعبير عن الحضارة أحياناً، ولو أن الفرق شاسع بين المعنيين، وهذا المعنى المادي البسيط (الحضارة) أصبح أصلاً لكل ما تعنيه هذه الكلمة.

والمجتمع هو القاعدة التي تستند إليه الحضارة، فليست هناك حضارة في فراغ، وكل عناصر الحضارة مرتبطة بالمجتمع فليس هناك من ابداع في أي مجال إلا وهو موجه إلى المجتمع.

وقد نشأت الحضارات المتواضعة في بادىء الأمر بتواضع المجتمعات وبدائيتها. ولم تكن الحضارة مختصة بجنس واحد من الأجناس ولا نتيجة حتمية للبيئة، فالبيئات المتشابهة ليس من الضروري أن تنتج حضارات متشابهة.

وليست هي ثمرة مباشرة للظروف الاقتصادية، بل هي نتاج عوامل وظروف متعددة تتجمع معاً لتخلق تلك الحضارة.

ومن هذه العوامل، البيئة والدين، الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية، الاحتكاك بالخارج والتأثر به والتأثير فيه، وغيرها كثير، من هذه العوامل مجتمعة تولد الحضارات.



جيوب في اميركا اللاتينية لم تطاها الحضارة بعد

والحضارة بالأساس هي حضارة المدن قبل حضارة الدولة لأننا كما نعلم هناك في فجر التاريخ حكم المدينة، ولم تُعرف حضارة الدول إلا في عصر الامبراطوريات، وحضارة المدن (كأثينا مثلاً) عمت العالم أما حضارة الدول فقد بدأت تعم حضارتها وثقافتها وتنتشر تبعاً لانتشار نفوذها السياسي، فغزوات الاسكندر بدأت مع ما يسمى بالعصر الهليني‌ستي، ومحاولته توحيد العالم في ظل حكومة واحدة هي الثقافة اليونانية، وقد يحصل العكس أيضاً ويسيطر المغلوبون بثقافتهم وحضارتهم على الغالبين (مثل تغلّب الحضارة اليونانية المغلوبة على الغزاة الرومان) أو كما تغلب العرب بثقافتهم على غُزاتهم من المغول.

ولكي يكتب للحضارة الاستمرار والحياة لابد أن تُعطي وتأخذ، تؤثر وتتأثر.

أما الثقافة فهي تشمل ألواناً من عناصر متعددة، وهذه العناصر هي **ثقافة الفرد، وثقافة الطبقة وثقافة الأمة.**

فالفرد يكون بالعادة حاملاً لجزء من ثقافة أمته ولكن ليس من الضروري أن يكون كل مثقف ممثلاً لثقافة بلاده، فقد يكون مثقفاً بثقافة أمة أخرى، والطبقة تنشأ عادة في



رسوم جدرانية من افريقيا الغربية (٤٥٠٠ق.م.) تمثل السلوك الانساني اليومي في أشكال مختلفة

المجتمعات الطبقية التي يتاح لها امكانية ثقافية لا تتاح لسواها كما في أوروبة في العصر الوسيط. فقد كانت الفنون والآداب تدور في طبقات معينة، وعندما قامت في العصور الحديثة نزلت بالفن والآداب إلى متناول الشعوب.

وجاءت وسائل الأعلام الحديث لتنقل الثقافة وتوفرها لكافة طالبيها من أبناء الشعوب.

أما ثقافة الأمة: فهي الثقافة التي لا تندثر مطلقاً وقد يصل خبرها إلى أقصى الأرض.

ان هذه الثقافة كانت النواة الأولى والصورة المشرقة لحضارة العالم في القرون الوسطى والتي تسمّى بالقرون المظلمة في أوروبا.

لقد أتيح للعرب أن ينشئوا دولة امتدت من حدود الصين إلى حدود الأطلسي، ضمت شعوباً متعددة الأجناس واللغات والحضارات، فأية حضارة وأية ثقافة قبل الثقافة والحضارة العربية نجحت في جمع شعوب مختلفة اللغات والعادات والحضارات في ظل كيان ثقافي واحد مترابط ومثل عليا؟ إنها الحضارة الوحيدة التي حفظت ما وصل إليها من حضارات وثقافات العالم القديم وأضافت إليه المعطيات الجديدة، بخاصة بعد انتشار الدين الاسلامي الذي أسهم في صهرها وإغنائها، فكانت حضارة اسلامية عربية متوثبة شكّلت قاعدة أساسية للحضارة الحديثة.

ثانياً: عوامل الحضارة.

تبدأ الحضارة بانتهاء قلق الانسان، فعند تحرر الانسان من الخوف، تتحرر في نفسه دوافع الابداع والاعمار.

والحضارة مشروطة بطائفة من العوامل التي تحثّ خطاها أو تعوق مسيرها وهي تتألف من:

١ ــ العوامل الجيولوجية.

(أ) الحضارة مرحلة متوسطة بين عصرين من جليد، فتيار الجليد قد يعاود الأرض في أي وقت ويغمرها من جديد، يغمر منشآت الانسان.

(ب) الزلازل ربما تحركت حركة خفيفة

فتبتلع في جوفها كل ما بناه الانسان في غفلة عن هذا المارد الجبار.

٢ ــ العوامل الجغرافية.

تعارف العالم على أن الحضارات تنشأ في أودية الأنهار أو فوق التلال المشرفة على البحار.

واستبعد في الأساس نشوء حضارات في الصحاري المقفرة الفقيرة، وهذا حال الجزيرة العربية ولكن الواقع غير ذلك، فهذه الجزيرة المترامية الأطراف قد خضعت لعوامل مختلفة من التأثيرات التاريخية والحضارية.

فبالنسبة لمكانها الجغرافي كانت مسرحاً للهجرات من الشمال إلى الجنوب ومع تلك الهجرات كانت هجرة الثقافة والحضارة التي حملها معهم المهاجرون، وكانت مسرحاً لأسرات حاكمة مستقرة دام حكمها قروناً طويلة، وكانت لها آثارها التاريخية والحضارية والثقافية. ولو أن الجزيرة العربية كانت فقيرة بالزراعة لفقرها للأمطار إلاّ أن سواحلها كانت تشهد حضارة كبيرة وهيأت لها فرصة الاتصال بالعالم الخارجي، إذ كانت ترد إليها وتخرج منها أفواج كثيرة من البشر على شكل تجار أو بدو رحل ينقلون معهم في ايابهم وذهابهم الثقافة والحضارة.

ودولة اليمن التي عاشت على أطراف الجزيرة العربية وفي جنوبها والتي ازدهرت بها ثلاث حضارات من الحضارات القديمة وهي الدولة المعينية (١٢٠٠ ــ ٦٥٠ق.م) ودولة سبأ وكانت مجاورة للمعينية وعاصرتها (٩٥٠ ــ ١١٥ ق.م) وسد مأرب في عاصمة سبأ هو دليل كاف لفن العمارة والهندسة في تلك الأجيال السحيقة، وقد اعتبر سدها من احدى العجائب وقد ورد ذكره في القرآن الكريم. أما قصور الدولة السبئية فقد كانت مجال غزل لكثير من المؤرخين.

ثم قامت الدولة الحميرية (١١٥ق.م ــ ٥٢٥ ب.م) وورثت الدولتين السابقتين وكانت دولة حربية إلى جانب أمجادها العمرانية، وأنشأت علاقات تجارية وثقافية بينها وبين روما ثم بيزنطة وايران والحبشة جيرانها ولكل من هؤلاء ثقافته وحضارته.

وقد عرفت في جنوب الجزيرة العربية أبجدية تختلف عن أبجدية شمالها، إلا أن تغلغل الأبجدية الشمالية كان أسرع لظهور الاسلام بها.

وإذا ما انتقلنا من الجنوب إلى الشمال نجد حضارة اللخميين بالحيرة شمال شرقي الجزيرة وعلى حدود فارس صاحبة الحضارة العريقة وقد اتخذ الفرس اللخميين حراساً لحدودهم ضد البدو وغاراتهم وقد قدم اللخميون الحضارة والثقافة الفارسية إلى العرب عبر احتكاكهم التجاري.

أما في الشمال الغربي فهناك دولة الغساسنة وكانت أيضاً حارسة لحدود الدولة البيزنطية ضد غارات البدو وقد نقل الغساسنة للعرب حضارة وثقافة الاغريق بواسطة التجارة واحتكاك العرب المباشر باليونان التي جمعت إلى حضارتها حضارة الرومان.

فهاتان الدولتان اللتان قامتا على الحدود الشرقية والغربية لشمال الجزيرة ساهمتا أيضاً بنقل حضارة وثقافة أكبر دولتين في ذلك الوقت على مسرح التاريخ إلى الجزيرة العربية.

والبتراء في الشمال التي قدت من الصخر دليلاً على حضارتها وما بقي بها من أنقاض هياكل ينم على أنها كانت محجة يحج إليها العرب لحين ظهور الاسلام.

ومن المدن الصحراوية أيضاً والتي كانت ملتقى للقوافل التجارية دولة تدمر في الشمال أيضاً وقد شهدت عصر ازدهارها أبان القرن الأول الميلادي وفي عام ٢٧٠ أصبحت مستعمرة رومانية.

نخلص إلى القول أن هذه العوامل الحضارية ساعدت على قيام حضارة في وسط الجزيرة العربية وأطعمتها بحضارة جيرانها من دول كبيرة ومما حوت تلك الدول من ثقافة لشعوب مختلفة ضمنها.

وقد حدد المؤرخون عوامل جغرافية أخرى لا تهيىء للمدنية أسبابها. مثلاً:

١ ــ الحرارة الاستوائية وما تحتويه من طفيليات مما يمنع المدنية عن شعوب تلك المناطق لما يسودهم من خمول وأمراض وما يصاحب ذلك من نضوج مبكر وانحلال خلقي غريزي.



٢ ـ الجفاف وقلت الطعام لا يدعون الناس يفكرون بالكماليات، فالعيش أبدى من الفن فلا استمرارية والعوامل الجغرافية مساعدة على خلق الحضارة ولكنها لا تضاهي العوامل الاقتصادية بأهميتها.

٣ ـ العوامل الاقتصادية.

الزراعة أهم ركن من أركان العوامل الاقتصادية وهي ثورة ثقافية ضد الجهل والتخلف.

قلنا أن الاستقرار يولد الحضارة.

والزراعة هي الحياة المستقرة

وعند توفر الماء والطعام، يستطيع الانسان أن يبني دوره ومعابده ويستأنس الحيوان ويشحذ تفكيره في اختراع الآلات التي تساعده على شق الأرض وتساهم معه في حفظ حياته أمداً طويلاً، وهذه الاكتشافات البدائية تورث للأجيال المقبلة بأمانة.

إن الثقافة ترتبط بالزراعة كإرتباط المَدَنِيَة بالمدِينَة، فالمَدَنِية هي رقة المعاملة والتهذيب ففي المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار وبتلاقي طرق التجارة تتلاقح العقول ويرهف الذكاء ويصبح مهيئاً للخلق والابداع.

٤ ـ العوامل الجنسية.

لا تتوقف المَدَنِية على جنس معين، فليس الجنس العظيم يصنع المَدَنِية بل المَدَنِيَة العظيمة هي التي تخلق الشعب العظيم، فالظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق الثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه، فالظروف المادية هي التي تساعد على خلق المَدَنِيَة.

٥ ـ العوامل النفسية.

لا بد أن يسود الناس نظام سياسي، ينظم حياتهم ويصونها، ولا بد لهم من عقائد دينية وبعض الايمان بما هو كائن وراء الطبيعة، ولكل

بدعة قديمة، عادات وتقاليد وأخلاق تربط الناس بعضهم ببعض، وقوانين تنظم حياة المجتمع.

وهذه مجتمعة هي سبيل لتحويل الانسان من مرحلة الحيوان في تعامله إلى طور أرقى.

ثالثاً: تطور الانسان.

١ ــ ابتدأت حياة الانسان بالصيد وكان الصيد عند الصائد والمصيد معركة تتعلق بالحياة أو الموت، فالصيد كان طلباً للقوت، ومن ثم أصبح حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة، وما يزال الانسان في الغابة يقاتل في سبيل الحياه حتى سيطر على حيوانات الغابة كلها.

٢ ــ وتطورت انسانية الانسان حتى ترقت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأعني بها حياة الرعي، التي اقتضت استئناس الحيوان، ولا ندري تاريخاً محدداً أو زمناً محدداً لاستئناس الحيوان ولكنه أتى وبصورة عفوية بعد الصيد ويغلب الظن أن استئناس الحيوان جاء وفق لعبة عفوية بأن يصحب الصياد معه إلى داره صغار الحيوانات ليلهو بها أطفاله.

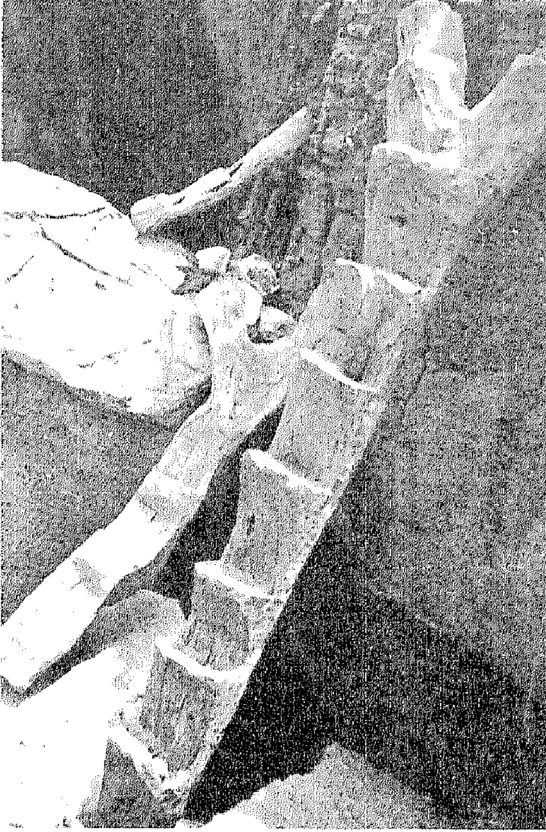
٣ ــ وشاركت المرأة حياة النضال مع زوجها وكانت مهمتها الاعتناء بالأطفال وشؤون البيت وطهو الطعام، وعلى يد المرأة جاء أكبر كشف اقتصادي بين تلك الكشوفات وهو الزراعة، فبينما الرجل بصيده فاذا بها هي تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ حيث مسكنها.

واختلف المؤرخون في تحديد تاريخ صحيح لزمن الزراعة أو لزمن أي منطقة عرفت الزراعة قبل الأخرى، فهناك فئة تقول أن تاريخ الزراعة يعود إلى ٥٠٠٠ قبل الميلاد وأول منطقة عرفته هي وادي الرافدين، والفريق الآخر ينسب الزراعة إلى وادي النيل.

بعد معرفة الزراعة جاءت معرفة الفلاحة تتمة لها، واستعمل بها في بادىء الأمر العصا لقلب التربة ومن ثم الفأس، وباستعمال الفأس عرف الحديد في صناعة الأدوات.

ومع طور الزراعة عرف الانسان السكينة والاطمئنان إلى الغد الذي كان يقلقه.

وبقي الصيد صناعة الرجل والزراعة صناعة المرأة.



درج بدائي يصل الأرض بالكهف

وابتدأت مع الزراعة عملية حفظ الأكل أو اختزانه.

وعملية الطهو مرت بمراحل كثيرة من التجارب، فقد واصل الانسان الأول تجاربه على مزج الحبوب والنباتات مع اللحوم والأسماك أجيالاً كثيرة حتى وصل إلى استقصاء الأفضل والمفيد للانسان في عملية استمراره بالحياة والتطور.

اكتشاف النار

لئن بدأت انسانية الانسان بالكلام، وبدأت المدنية بالزراعة، فقد بدأت الصناعة بالنار، والنار ليست من اختراع الانسان كما يقال فحسب بل أيضاً من اختراع الطبيعة، باحتكاك أوراق الشجر أو غصونها أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية.

واستعملت النار في بادىء الأمر لاخافة الحيوانات ثم للتدفئة ومن ثم لتليين المعادن.

وبلغت النار درجة المعجزات عند الانسان الأول حتى أنه أخذها الهاً له وتعبد لها، وأقام لها الحفلات التعبدية وجعل منها مركزاً لحياته وبيته وموقداً لا تنطفىء ناره مطلقاً.

وتعلم الانسان التقليد من الحيوانات، فقد شاهد القرد يكسر جوز الهند ومحار البحر بالحجارة، ورأى كلاب البحر تبني لنفسها السدود، والطير يبني الأعشاش، والشمبانزي يقيم بيوتاً شبيهة بما يقيم الانسان من أكواخ، فحسدها لصلابة مخالبها ومتانة أجسادها، فأخذ يعد لنفسه الأدوات التي تساعده على تلك الأعمال.

يعني هذا أن مدنية الانسان مستمدة من غريزة الحيوان الطبيعية.

ولم يبق أمام الانسان الأول إلا ثلاث خطوات في طريق التطور ليتم له ضروريات المدنية الاقتصادية كلها.

١ ــ آلات النقل.
٢ ــ عملية التجارة.
٣ ــ التبادل.

١ ــ آلات النقل:

الانسان نفسه، الحيوان، مراكب للأنهر.

(أ) استغل الانسان قوته في حمل أثقاله في بادىء الأمر ومن ثم استغل زوجته في حمل متاعه أينما حل.

(ب) تعرف على قوة الحيوانات في جرّ أشيائه ومن ثم ابتكر شرائح من الأشجار يضع عليها أدواته ويجرها بواسطة حيوان ما.

(ج) ومن ثم قطع جذوع الشجر ووضعها تحت هذه الشرائح وكأنها عجلات فكانت صورة بدائية للعربة التي يجرها الحمار أو الحصان فيما بعد.

ووقف حائراً أمام مجاري المياه والبحيرات الضحلة وشاهد كيف يطفو على وجه مائها نشرات الخشب، فربط الأغصان ببعضها البعض وصنع منها طوافة صغيرة ليجتاز بها المياه، ومن ثم قاده تفكيره إلى حفر جذع الشجر الكبير وتجويفه ليصنع منها ناقلة له في الأنهار فجاءت صورة للزورق في وقتنا الحاضر.

وشق لنفسه الطرق البرية عبر المروج والتلال بواسطة علامات وضعها لنفسه واستدل بالنجوم لمعرفة طريقه المجهولة.

٢ ــ عملية التجارة والتبادل:

حمل الانسان الأول مصنوعاته عبر الطرق والمسالك التي حددها لنفسه واهتدى إلى الطرق التي لم يطرقها قبلاً بالنجوم، وراح يطوف على جيرانه يعطيهم ما فاض عنه ويأخذ منهم ما هو بحاجة إليه، لأن الثروة الطبيعية ليست متساوية التوزيع في الأرض وهذا التبادل هو أصل التجارة.

ونشأ نظام التبادل رويداً رويداً وأقيمت مراكز تجارية بغير نظام في بادىء الأمر.

ومن ثم أصبح لكل صنف من الأشياء سعر يقابله من صنف آخر.

فأربع بنادق تساوي جواداً.
وثمانية أمهر تساوي زوجة...

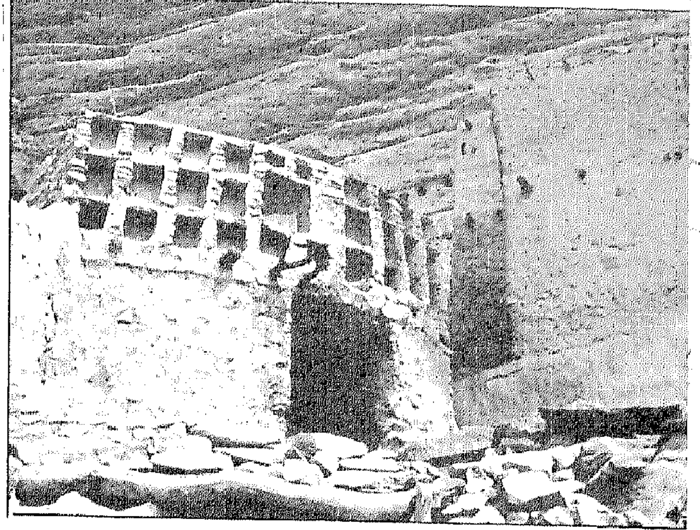
التنظيم الاقتصادي البدائي:

الأرض في كل الشعوب البدائية ملك للمجتمع بأسره فجماعة يحرثونها وجماعة يقتسمون الثمار، وهي كالهواء والماء لا يمكن أن تحصر ملكيتها بإنسان معين.

وشيوعية القوت معروفة فمن يملك طعاماً يتقاسمه مع من لا يملك وكان من المألوف أن تستعين الجماعات التي يحل بها القحط بجيرانها، حتى الجائع ما عليه إلا أن يسأل فيجاب طلبه بالعطاء ولو بقدر يسير، ولم تعرف كلمة (ملكي وملكك) إلا مع دخول المدنية إلى تلك الشعوب وقد صنعوها بأيديهم فيما بعد.

إلا أن هذه الشيوعية ماتت عقب الشعور بالاتكال على الغير، فالنشيط لا يصيبه من ثمرات الأرض إلا نصيب الخامل منها، لذلك خمد الشعور بالنشاط والهمة عند الجماعة، وبموت هذا الشعور اندثرت شيوعية الأرض عند البدائيين.

وبدلاً من أن تكون الأرض ملكاً للمجتمع، أصبحت ملكاً لبعض الأفراد، وبدلاً من أن يتمتع الانسان الأول بحريته في استغلال الأرض لحسابه، أصبح عبداً مقيداً باستغلالها لحساب الغير.



بيت جماعي لدى قبيلة افريقية

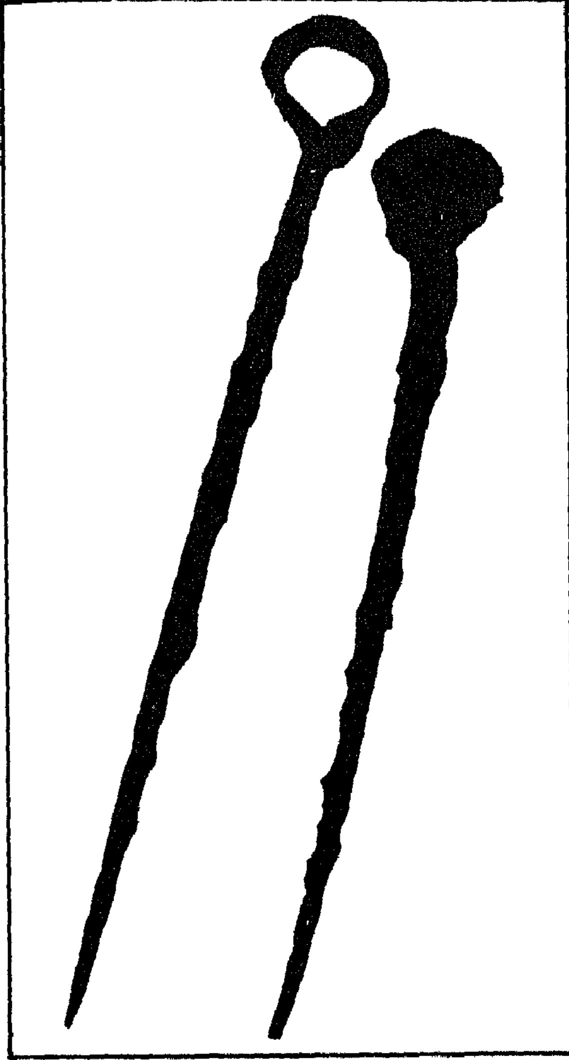
وفكرة ملكية الأرض برزت للوجود مع بروز فكرة العائلة الأبوية، وتتركز هذه السلطة في أكبر الذكور سناً، ومن ثم تركزت في أيدي الأفراد، وكانوا يدافعون عن وجودهم بقوة مما ثبت هذه البدعة، وجعلها مجالاً للاعتراف بها مع مرور الزمن.

أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم هي القبيلة، والقبيلة جماعة من البطون (الأسرات) ترتبط بأواصر القربى والمصاهرة، وتشغل بقعة من الأرض على سبيل الشيوع ولها طوطم مشترك، وقوانين معينة وعادات وتقاليد موحدة، ومن ثم العشيرة وهي الصورة الثانية نحو تكوين المجتمع.

والعشيرة هي اجتماع أكبر عدد من القبائل ولها مجلس يمثل برؤساء القبائل وكان يسمى (مجلس العشيرة) وهو صورة مصغرة للحياة البرلمانية في وقتنا الحاضر، ومن هذا نستخلص بأن الديمقراطية ليست من مزايا عصرنا هذا بل من مزايا العصور البدائية.

والحروب هي التي تخلق الرئيس والملك والدولة، ويعود هؤلاء ليخلقوا الحرب. ومن رئيس العشيرة، إلى رئيس دولة، تطور الحكم ومر في مراحل عديدة حتى وصل إلى الصورة التي نراها اليوم.

ندرك بأن سبب الحروب وجذورها عمل اقتصادي بحت، فالبدائي كان يقاتل من أجل الصيد والراعي يقاتل في سبيل المراعي الجيدة،



بدء حضارة «الآلة»

والمزارع يقاتل للاستيلاء على التربة العذراء الغنية، وقليلاً ما يحارب هؤلاء وأولئك من أجل عقيدة أو دين، حتى القتل كان له عندهم أوقات وفي هذا الوقت من الأيام والأسابيع أو الشهور لا يجوز القتل بها، وحددوا مواقع لا يجوز أن تتعرض للاعتداء فكانت حروب القبائل ميدانها خارج حدود القبيلة وبعيدة عن مساكن المدنين.

ومن هذه الحروب عرف الرق، فقد كانت الغارات تنتهي باسترقاق أكبر عدد ممكن من الأعداء ولا يُفرّق بين الرجل والمرأة والطفل، والكل ينتج والكل يسترق ولكل منهم وظيفته.

مصادر الدين الأولى:

أول البوادر لوجود الآلهة هو الخوف من الموت، من هنا لم يصدق الانسان الأول أن

الموت ظاهرة طبيعية، وعزى هذا الفعل إلى الكائنات الخارقة للطبيعة، ففي القديم عزا الانسان الأول الموت إلى خطأ من أخطاء الآلهة ونسج حول هذا الموضوع الأساطيروالخرافات، حتى أن بعض الأجناس البشرية كانت تترك المكان الذي يكون به الميت لأن ملك الموت جاءه فيه، وأجناس أخرى كانت تخرج الميت من ثقب في كوخها ولا تخرجه من الباب وتدور به حول الكوخ ثلاث مرات لكي تنسى الروح أين المدخل، وفي الشرق الأدنى كان أهل الميت يتركونه في الخلاء حتى تأكل الطيور لحمه ومن ثم يطلون العظام بمادة حمراء اللون ويحملونها إلى مكان معين من المنزل يحفرونه لها ويعمرون فوقها مصطبة.

أما عملية دفن الجثة فقد تعلموها من الحيوانات والطيور، بعد أن وقفوا حيارى أما الجثة ماذا يصنعون بها.

وتطورت العملية حتى بات يدفن مع الميت أشياؤه الخاصة في بادىء الأمر ومن ثم أصبحوا يدفنون معه ألوان الطعام والحبوب والماء والطيوب والثياب وغيرها الشيء الكثير، فقد بدأ عندهم التكهن بعودة الميت للحياة فيما بعد، وفكرة الخلود، ونرى أثر هذه الفكرة في الأديان السماوية.

وقف الانسان الأول حائراً أمام عدة عوامل منها الأشياء التي تأتي صدفة، ثم الأجرام الفضائية والليل والنهار والبرق والرعد والنار، كل العوامل الطبيعية وقف أمامها الانسان الأول مدهوشاً مفكراً باحثاً عن تعليل لها، فجاء تعليله الميتافيزيقي وهذه المرحلة هي المرحلة الوسيطة بين الايمان واللإيمان.

وسمّى تلك الظواهر آلهة، فجعل الأغريق آله السماء هو أورانوس، وآله القمر سلين، وآله الأرض أجي، وآله البحر بوسيدون.

واستغرب الانسان الأول الأحلام فكان يقوم فزعاً إذا ما شاهد أحد الأموات وهو يدري أنه دفنه بيديه، وعلل هذه الظاهرة دون أن يدري كنهها إلى سلطة عليا تسيطر على الانسان، وعللها أيضاً بالروح التي تفارق الجسد النائم كمفارقتها جسد الميت، وفي الهند القديمة كتب (يوبانشاد) يقول:

«لا توقظن النائم أيقاظاً مفاجئاً عنيفاً، لأنه من أصعب الأمور علاجاً، أن تضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها»[1].

هذه العوامل السابقة أقنعت الانسان بأن كل كائن حي له نفس أو حياة دفينة في أعماقه، يمكن أنفصالها أثناء المرض والنوم والموت، وليست الروح قاصرة على الانسان فقط بل أن لكل شيء روحاً.

من هنا كان تقديس الأشياء المبهمة بالنسبة للانسان الأول كالشمس والقمر والصواعق والبحار والنار ولا ندري أي من هذه القضايا كان مجال تقديسه الأول، وأغلب الظن كما قال الاغريق بأن أقدم الآلهة هي آلهة السماء والأرض وأننا نحن البشر من صنيع هاتين الآلهتين، ففي المساء تنطبق السماء على الأرض بحنان وعطف ليتفاعلا وقد أنجبا أبناء صورهم الأقدمون بصورة بشعة للغاية مبهمة الشكل والتكوين وأضافوا إليهم قوة غريبة ووضعوهم في مصاف آلهتهم وما عشتروت وأفروديت وفينس وأدونيس وأيزيس وايزوريس إلا صوراً متأخرة لآلهات الأرض الأولى.

وما الموت والبعث اللذان تكلمت عنهما الأساطير القديمة إلا استمرارية لحياة بين الخريف والشتاء والربيع والصيف.

لم يخل من القدسية شيء ما وُجد على الأرض شوهد في الفضاء، فالقدسية شملت الحيوان والنبات والجوامد أيضاً.

ولكي يتبركوا بهذه المقدسات وضعوا آلهاً طوطماً يتعبدون له ونشيداً يترنمون به في صلاتهم...

هكذا تعرّف الانسان الحضارة.. بل هكذا بدأها...

---

(١) قصة الحضارة ــ ول ديورانت ــ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ج ــ ١ ــ ٢ ــ الطبعة الثالثة.



نصف قرن مع مخطوط واحد



بقلم: كرانشكوفسكي
ترجمة: محمّد منير مرسي

هناك مخطوطات تشعر بنفسك أمامها وكأنك تلميذ لساحر قام في أسطورة باستدعاء الأرواح ثم لم يستطيع أن يسخرها، وعندما نتذكر هذه المخطوطات ونبدأ في الحديث عنها، تقوم سلسلة من الأشخاص، وتتداعى القرون البعيدة الماضية والأعوام القريبة التي عاصرتها، ومن هنا كان عليك أن تكتب عنها إما رواية وإما كتاباً كاملاً.

ولما كانت حياتنا لا تسمح بإعطاء كثير من الوقت لموضوع واحد، وتراك بقوة الارادة تحاول جاهداً أن تطرد الأفكار التي تقف أمامك لا سيما ما يتعلق منها بمخطوطات أو موضوعات معينة تتعايش معها وتحتل مكانة عزيزة في نفسك. لكن أحياناً ما تكون المخطوطات عنيدة وتشعر بنفسك عاجزاً أمامها عندما تسألك بقوة واصرار: ومن بعدك سيواصل الحديث؟ هل أعطيناك الحق في أن تحمله معك إلى القبر؟

إن إرادات العلم الخالد على مر العصور تتسم بالجبرية. وأن أرادتك الشخصية تنحني أمامها في نهاية النهاية.

تمر في ذاكرتي المخطوطات القديمة التي كانت مرتبطة مع عالم معاصر مثل ارتباط مخطوط ديوان الأخطل الموجود في ليننجراد مع الصلحاني العالم البيروتي الدمشقي ناشر الديوان، ولقد سمعت عن هذا الناشر أول مرة من البارون «روزن»، عندما اقترح على أن أدرس معه مخطوط ديوان الأخطل الذي كان أساساً لتلك الطبعة.

وكان هذا المخطوط موجوداً آنذاك في القسم التعليمي بوزارة الخارجية بعد ان وصل إليه من مجموعة ايتالينسكي الذي كان طبيباً وسفيراً وعالم آثار قديمة وحفظ لنا مخطوطات تاريخ الدينوري.

وكان مخطوط ديوان الأخطل جوهرة مجموعة القسم التعليمي. وفي سنة ١٨٦٧ قام مهاجر عربي هو رزق الله حسونة مترجم كربللوف، الذي كان يعيش آنذاك في بطرسبرج بنقل

نسخة لنفسه من المخطوط، ووقعت النسخة في بيروت بعد عشرين عاماً وكان لها الفضل في اعطاء الدفعة الأولى للمطبعة وكان المستعرب الانجليزي ف. رايت قد فكر قبل هذا في نشر مخطوطنا لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. ولم يستطع رايت أن يحقق خطته فقد انتهى طريق حياته سنة ١٨٨٩.

وحقيقة أن «روزن» هو الذي كشف عن هذا المخطوط في فهرسه لكن قبل ذلك كان يعرف مؤرخنا الروسي أنه توجد لدى الأخطل أقدم إشارة تاريخية عند العرب عن الصقالبة في بيته الذي يقول فيه:

عوادل عوجا عن أناس كأنما
يزين بهم جمع الصقالبة الصهب

ولقد اتفق أنه في نفس السنة التي مات فيها رايت وقعت نسخة حسونة في بيروت، وهناك غيرت مجرى حياة عالم كبير ولغوي قدير وعارف دقيق بآثار أدبه القومي وأعني به الصلحاني، الذي أصدر طبعة من خمسة أجزاء «لألف ليلة وليلة»، وهي الطبعة الوحيدة التي انتشرت بين القراء.. ولقد تحول اهتمام الصلحاني إلى الأخطل أحد مواطني بلده الأقدمين، على أن الصعوبات لا سيما الفنية منها لم تكن بالقليلة فقد كان من غير الممكن آنذاك أن يرسل مخطوط بطرسبرج إلى بيروت.

ولم تكن قد شاعت بعد الصور الشمسية وأخيراً وبناء على اقتراح روزن، قام الصلحاني باعداد طبعة المخطوط على حسب نسخة حسونة، وأرسل صورة الطبعة إلى بطرسبرج حيث قارنها روزن مع أصل المخطوط وأضاف إليها كل الملاحظات التكميلية وخرجت الطبعة في بيروت بسرعة وكانت قد بدأت الطبعة سنة ١٨٩١، وبعد عام تم طبع أربعة أجزاء.

وبدأ العمل على اعداد الفهارس وجمع الاقتباسات من شتى المصادر وابتدأت تظهر مواد جديدة.

فقد وجد مخطوط في بغداد وآخر في اليمن وكلاهما في الحقيقة ناقص ومعيب ويتشكل من أوراق غير مسلسلة لكنهما يحملان الكثير من التفسيرات والتوضيحات الجديدة. وقد نشرهما الصلحاني في عامي ١٩٠٥ ــ ١٩٠٧ واستعان في ذلك بخدمات تقدم فن التصوير الزنكوغرافي. وقد عمل الصلحاني دون كلل لكن الأخطل وضع أمامه مشكلات جديدة وأخذ يجذبه بعيداً بعيداً بالجديد من المخطوطات.

وفي سنة ١٩١٤ سافر هذا الناشر إلى استانبول من أجل دراسة ديوان نقائض جرير والأخطل الذي كان موجوداً هناك. وكان اشتعال الحرب سبباً في تعطيل خطته لمدة طويلة.

ولم يستطع الصلحاني أن يخرج طبعته عن ديوان استانبول إلا سنة ١٩٢٢ وبعد ثلاثة أعوام ظهر القسم الثاني من الجزء الخامس من ديوان الأخطل، ولكن لم ينته بهذا عمل الصلحاني عن الأخطل.

* * *

فقد حدث في احدى مقالاتي أنني أشرت بطريقة عابرة إلى مخطوط للأخطل اكتشفه في طهران صديقي الأصغر المستشرق في الفارسية راماسيكفتش الذي هلك سنة ١٩٤٢ أبان محاصرة لينينغراد. وبعدها بشهر تسلمت من الصلحاني خطاباً يطلب مني اخباره عن بعض التفصيلات الخاصة بالمخطوط الجديد. وفي نهاية سنة ١٩٣٨ فوجئت بوصول طبعة مخطوط طهران مع اهداء الناشر وكلمات رقيقة مؤثرة، وظهر أنه بعد خطابي بدأت جامعة بيروت محادثات عن بيع المخطوط مع صاحبه الطهراني، وامتدت المفاوضات الخاصة بثمنه مدة أربع سنوات لكن في النهاية في سنة ١٩٣٧ رحل المخطوط من طهران إلى بيروت.

وظهر أن مخطوط طهران أقدم المخطوطات المعروفة حتى الآن عن ديوان الأخطل.

وكان ما أثار تعجبي في هذه الطبعة الجديدة للصلحاني هو أن مخطوط طهران بالذات كان قد درسه التبريزي العالم اللغوي عندما كان له من العمر ٨٠ عاماً. وهكذا ظهر أن العالم ضيق بالناس الذين تلتقي معهم صدفة وعلى غير انتظار بل إنك لو عشت طويلاً مع المخطوطات فانك كثيراً ما تلاقي الصديق القديم في موقف جديد. ●

فرانسوا مورياك



د. سامي زكي

لمحات من حياته وفنه

مات كاتب فرنسا الكبير فرنسوا مورياك (عام ١٩٥٧) وانبرت الأقلام تكتب عنه، وتستعيد مجداً طوته السنون ولم يطوه النسيان. وهذا حال الكثير في عالم الفن والأدب، عالم حي يتجدد دوماً، ينظر إلى الأمام، ولا يلتفت إلا هنيهة إلى الوراء عندما ينطفىء اسم مرموق. وها نحن ذا نخضع لهذه القاعدة العامة، ونقدم لمحات سريعة عن حياة مورياك وفنه، راجين أن نحمل من لم يقرأ له بعد على التعرف على وجه من أبرز الوجوه التي لمعت في سماء الأدب في القرن العشرين.

حياته:

ولد فرنسوا مورياك في بوردو، في ١١ أكتوبر سنة ١٨٨٥، وشب وسط أسرة من تلك الأسر البورجوازية التي تملك الأرض وتشتغل بالتجارة.

نشأ الصبي نشأة مسيحية، وتفتح ذكاؤه وتطور على وقع الأعياد الدينية، وجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن أباه كان ملحداً. عندما مات الأب، خلف أبناً في عامه الأول، تربى بين أخت وأشقاء ثلاثة، ربته أم كاثوليكية صارمة متزمتة في جو كذلك الذي صوره فيما بعد في «سر فرنتناك». التحق الصبي بمدارس الرهبان — ومن بينها العائلة المقدسة — في أول الأمر، ثم دخل ليسيه بورو بعد حصوله على البكالوريا. كان مورياك تلميذاً نابغة قرأ مؤلفات راسين، وبسكال، وبودلير، ورمبوه، وكلهم من المؤلفين الذين كانوا يستبعدون من المقررات المدرسية آنذاك لخطورة أفكارهم. التحق فرنسوا بعد ذلك بكلية الآداب. وبعد حصوله على الليسانس عام ١٩٠٦، قدم الى العاصمة، ونجح في مسابقة «ليكول دي شارت» التي تؤهل طلابها للعمل في المكتبات. لكنه استقال بعد بضعة شهور، لأنه كان يود أن يكرس حياته للأدب.

بدأ بالكتابة في بعض المجلات الصغيرة، وعام ١٩٠٩، نشر أول كتاب له، ديوان من الشعر بعنوان «الأيدي المتشابكة»، حياه استاذه موريس باريس بمقال حار، متنبئاً لكاتبه بالنجاح وقائلاً له: «ستكون حياتك الأدبية حافلة مجيدة».

تزوج موریاك في ٣ يونيو ١٩١٣، بعد نشر روايته «الثوب الحجة» بقليل. ونشبت الحرب العالمية الأولى وجند موریاك، وعمل ممرضاً، وأرسل الى سالونيك عام ١٩١٥. وبعد الهدنة عاد إلى ممارسة نشاطه الأدبي فكتب «اللحم والدم» (١٩٢٠) حيث يتصارع كل من الحب، والدين، والآراء الاجتماعية المسبقة. لكنه لم يعرف الشهرة إلّا عندما نشر روايته «قبلة الى أبرص» (١٩٢٢) وهو في السابعة الثلاثين. كشفت هذه الرواية عن موهبته ككاتب روائي يتسم أسلوبه بالأمانة والصدق. كما مهدت لفوزه بجائزة الأكاديمية الفرنسية عن «صحراء الحب» (١٩٢٥). وفي أول يونيو سنة ١٩٣٣، استقبلته الأكاديمية ضمن أعضائها. بعدها، نشر موریاك ديواناً جديداً: «أعاصير» (١٩٢٥)، ومذكرات، وكتباً في النقد الأدبي: «لقاء مع بسكال» (١٩٢٦)، و«حياة جان راسين» (١٩٢٨)، و«الرواية» (١٩٢٨)، و«بداية حياة» (١٩٣٢). و«الكاتب الروائي وشخصياته» (١٩٣٣)، وتأملات دينية: «آلام المسيحي وسعادته» (١٩٣٠)، و«حياة يسوع» (١٩٣٦). خلفت هذه المؤلفات أثراً عميقاً في الجمهور. وجدير بالملاحظة أنها لم تؤثر على الجمهور الكاثوليكي فحسب.

كتب موریاك عدداً كبيراً من الروايات، نذكر من بينها، على سبيل المثال لا الحصر: «نهر النار» (١٩٢٣)، و«جنتركس» (١٩٢٣)، و«تيريز ديكيرو» (١٩٢٧) ــ نجد نهاية هذه الرواية في «نهاية الليل» (١٩٣٥)، «ومصائر» (١٩٢٨)، و«ما كان ضائعاً» (١٩٣٠)، و«عقد الأفاعي» (١٩٣٢)، و«سر فرنتناك» (١٩٣٣)، و«الملائكة السود» (١٩٣٦)، و«طرق البحر»، (١٩٣٩)، الخ..

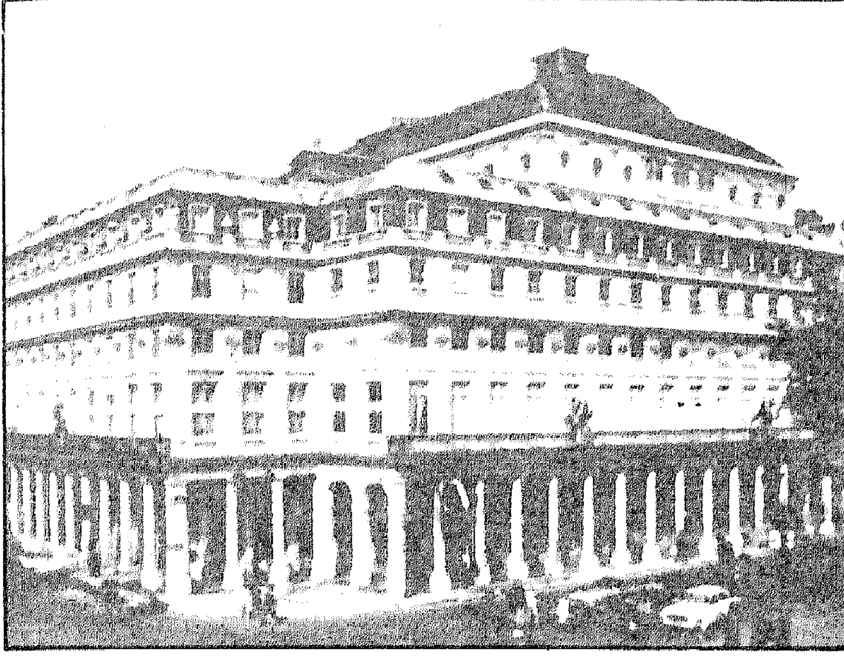
قبل ١٩٣٦، ظل موریاك بعيداً عن السياسة كل البعد. لكنه رأى، بعد هذا التاريخ، أنه يستحيل على الكاتب الكاثوليكي أن يظل محايداً ازاء الأوضاع السياسية السائدة في أوروبا آنذاك. ندد، على سبيل المثال، بقسوة الحرب الأهلية في اسبانيا، واتخذ منها موقفاً صريحاً. وكتب المقال السياسي، وأثناء الاحتلال، اتخذ مواقف سياسية واضحة. انضم الى الجبهة الشعبية، وكتب في الصحف التي كانت تصدر سراً تحت اسم مستعار. وهكذا اكتشف في نفسه موهبة جديدة: موهبته كصحفي يكتب في السياسة ــ مما قد يجعل البعض يتساءل: أو لم يصبح هذا الميل أعزّ الى نفسه من كتابة الرواية، الّا أن موریاك لم ينضم الى أي حزب، أياً كان. ولم يهتم بالسياسة إلّا ارضاء لمتطلبات روحية بحتة وخدمة لما يرى انه حق وعلى هامش هذا النشاط السياسي الذي استغرق جل وقته، ظل يتابع نشاطه الأدبي: كتب ثلاث روايات أخرى ومقالات عدة في النقد والدين. وكتب للمسرح عندما شجعه مدير الكوميدي فرانسيز آنذاك على ذلك: فكانت «أسموديه»، وتلتها «اللامحبوبون» (١٩٤٥)، و«النار على الأرض» (١٩٢٩). وفي ٦ نوفمبر (١٩٥٢)، فاز بجائزة نوبل للأدب، من أجل تحليله النافذ للنفس البشرية والقوة الفنية التي عبر بها عن حياة الانسان. لقد قال كل شيء في كلمات قليلة مركزة. ولن يسع الأجيال القادمة الّا أن تؤيد هذا الرأي، وتعترف بأن لرواية موریاك خواص ثلاثة تضفي عليها جلالا وعظمة: الاهتمام بمعرفة الحياة، وسبر أغوار النفس البشرية، ونبض قوي يجعلها أقرب الى الشعر منها الى النثر.

* * *

فلسفته:

موریاك كاتب مسيحي بتربيته والتقاليد التي ورثها عن أسرته. الّا أن النقاش بينه وبين ربه لم يتم على مستوى الأفكار، بل تم في تلك المناطق الواسعة الملآنة بالشك، حيث الشعر والجسد. لقد أحس وهو شاب بنداءين متناقضين تردد بينهما طويلاً. أحس بعجزه عن الانتماء الى هذا العالم، وعجزه عن الانفصال عنه نهائياً. طرده الله وطارده. فحاول الهرب، وان استحال عليه. لكنه واصل السير. وكان أول كاتب فرنسي عبر، منذ بسكال، عن مأساة المسيحي الموزع بين نقيضين. لا بد من وهب كل شيء، لله أو للدنيا، أياً كان الحال. وتلك بالذات التجربة التي تمر بها الشخصيات التي صورها. لا مكان لحل وسط، والتوفيق بين

الكوميدي فرنسيز



النقيضين أمر محال: التنازل أو التمرد، هذان هما الموقفان اللذان يمكن أن يتخذهما الانسان العظيم لكن غالبية الناس تتحايل على هذا الاختيار، وتطمئن للحل الوسط. هذا، مثلاً، حال سكان بوردو البورجوازيين، ملاك أثرياء يفاخرون بأصلهم. لقد صورهم مورياك تصويراً قاسياً. لكن هذا لايعني أنه زاد رسم بعض اللوحات الاجتماعية. فهو لم يندد قط بطبقة اجتماعية معينة، أو مجتمع معين، بل نقد حالة ذهنية معينة. ولا تنتمي الضحايا التي تخيلها الى طبقة بوردو البورجوازية بالذات، بل الى تلك الفئة التي تقبل الحل الوسط، وتوفق بين مباهج الدنيا ومطالب الدين، ومن هنا كان ايثاره الشخصيات المتطرفة الحادة الطباع، تلك التي تؤمن بالمطلق، وتقطع صلتها بمصالح الحياة اليومية، وتحاول البحث عن «شيء آخر»، حتى في الشر.

جدد مورياك في الرواية الدينية تماماً ومهد السبيل لمجيء برنانوس. ومكنه الصراع الدائر في نفسه بين النزعة الحسية والنزعة الدينية من التوفيق بين الرومانسية والكلاسيكية في أسلوبه الأدبي. لقد رأى، كما قلنا، أن الانسان ينزع في كل ساعة الى الله والشيطان في آن واحد. تلك مأساة شخصياته. لكنه ككاتب روائي عليه أن يبطل هذا التنافض ويبلغ الانسجام الفني. مكنه هذا الصراع أيضاً ـ نظراً لخضوعه لمباهج الحياة الدنيا وسحرها وان عرف أنها وقتية زائلة ـ من الافلات من فخاخ الموعظة الأخلاقية فلم يوافق مورياك الفنان قط على اخضاع الواقع لمتطلبات أخلاقية قد تشوهه فاستبعد المؤلفات الهادفة. وأحس مورياك المسيحي أن «اللهجة التعليمية» دخيلة عليه. لم يرغب في أن يكون قط «كاتباً كاثوليكياً» بل كاثوليكي يكتب الرواية. تشهد على ذلك شخصيات تسكن في أغلب الأحيان أرضاً ملعونة ترويها أنهار من نار، وتعتمل في نفوسها أهواء لا تلتمس العذر، بل توحي بالعظمة. لقد لفظ مورياك العادلين المعتدلين، وفضل عليهم الأرواح الضالة، تلك التي قال عنها في «الملائكة السود»: «ربما اصطفى الله قبل الآخرين أولئك الذين يبدون وكأنهم وهبوا للشعر».

كيف تتم عملية الابداع الفني في رواية مورياك؟ لم يرد مؤلفنا قط رواية على طريقة بلزاك. ولم يرغب في رسم لوحة واسعة لعصر معين. بل سعى الى انتاج عمل واحد رائع، يعبر عما هو أساسي، يغنيه عن تطلّب أي شيء آخر لا أهمية اذا كان الموضوع واحداً: «مأساة نفس بشرية موزعة بين مطالب الدنيا وحب الله. لا أهمية اذا كان الديكور اطار جغرافياً واحداً: مقاطعة «اللاند» بكرومها الشاسعة وجوها



بوردو حيث استلهم جو رواياته

الحار. لا أهمية اذا كان الوسط الاجتماعي واحداً لا يتغير: البورجوازية الريفية. فهو يستطيع أن يعبر عن هذه المأساة في نفوس أخرى، لأنه عاشها شخصياً. والديكور عرفه معرفة وثيقة: انه عالم الريف الذي اصطفاه لأنه أنسب مكان يساعد على تطور مأساة الانسان: «الريف، أرض الالهام ومصدر كل صراع.. فيه يختبىء كل من البخل، والكبرياء، والحب.. ويقوى من المقاومة التي يلقاها».

تحدث مورياك طويلا عن السبل التي ينبغي اتباعها للانتقال من عالم الذاتية الى التعبير عنه تعبيراً خارجياً في اطار الرواية. وفي مقالاته النظرية، ألقى ضوءاً قوياً على هذا المخلوق الغامض: شخصية الرواية. يرى مورياك، شأنه في ذلك شأن جيد، أن الفنان يمنح الحياة لشخصياته بالتعبير، لا عن شخصيته الواعية، بل عن خبايا ذاته الخلاقة إلّا أن هذا التعبير لا يتم في العدم، فهو ينصب عادة على كائنات لاحظها الكاتب، وأعطته فكرة عن وجه، أو طابع، أو موقف. من ثم، يمكن أن نقول أن الفنان لا يخلق شخصية الرواية بمعنى الكلمة، ما دامت مستوحاة من ملاحظته الحياة. لكن عناصرها الأساسية لا تنشأ عن هذه الملاحظة، لأن الفنان الراوي بثها روحه، وكونها من تجميع مادة الواقع الخارجي والداخلي.

استمد مورياك نماذج شخصياته من البلد الذي ولد ونشأ فيه. ووضع أحداث رواياته في الاطار الذي تكون فيه احساسه. ذلك أنه في حاجة دائماً الى دعم ابداعه الفني بتجربة عاشها. لكن هذا لا يعني أنه ينزع الى المحلية والذاتية. ترجع أغلب هذه التجارب الى طفولته وصباه. قال: «يختزن الفنان في طفولته وجوهاً، وكلمات، وأخيلة، تلفت نظره صورة، أو كلمة، أو نكتة.. دون أن يدري ويختمر كل هذا، ويحيا حياة خافية الى أن يظهر فجأة في الوقت المناسب». وقال في مقام آخر: «أنا لا ألاحظ ولا أصف، بل أستعيد، وأسترجع.. وما أسترجعه عالم منسي ضيق، عالم طفولتي النقية القلقة المنطوية على نفسها، والريف الذي سجنت فيه. تم كل شيء وكأن الباب أغلق وأنا في العشرين على ما أصبح بعد مادة لمؤلفاتي».

هكذا طرح مورياك قضية الجمع بين الذاتية والموضوعية، طرحها بوعي بصير، وحلها حلاً مرضياً. كان يجب أن يذكر قول فلوبير: «أنا

مدام بوفاري». يستطيع مورياك أن يفاخر بخلق شخصيات حية استمدت مادتها من حياته ذاتها، وان استقلت عنه وانفصلت. وربما أثارت اهتمامنا وانفعالنا لهذا السبب بالذات.

هناك قضية أخرى لا يمكن أن يتجنبها كاتب الرواية: العلاقة بين الفن والحياة. عرف مورياك كيف يختار بينهما، ولم يخف عليه أن الاختيار يفرض حدوداً بعينها: «لا أعتقد أن هناك فناناً يستطيع التغلب عن التناقض المرتبط بفن الرواية. فهو يتطلع، من ناحية، الى خلق عالم الانسان.. ولا ينجح إلّا في عزل عاطفة، أو فضيلة، أو رذيلة، يبالغ فيها الى ما لا نهاية: الأب جوريو أو الحب الأبوي، الأب جرانديه أو البخل. ويتطلع، من ناحية أخرى، الى تصوير الحياة الاجتماعية، لكنه لا يصل الّا الى الأفراد، بعد أن يكونوا قد حلوا غالبية الروابط التي تربطهم بالجماعة باختصار اذا نظر الروائي الى الفرد، عزل العاطفة وجمدها. واذا نظر الى الجماعة عزل الفرد وجمده. وهكذا يعبر من أراد تصوير الحياة عما يتنافي مع الحياة»:

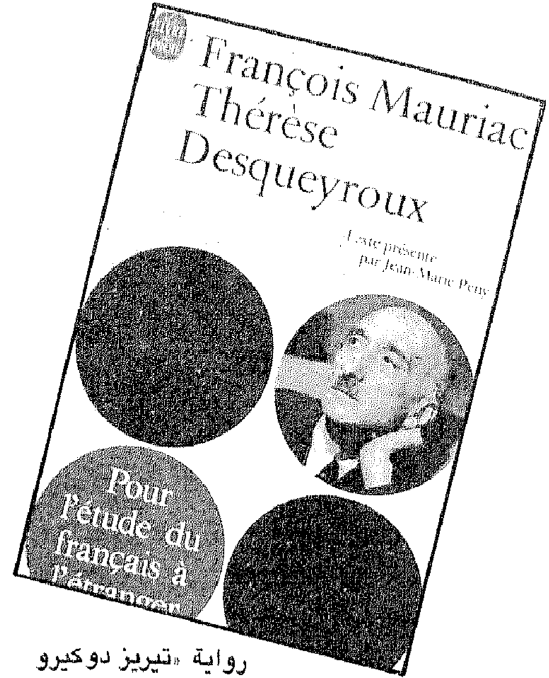
منهجه وأسلوبه:

تتميز روايات مورياك بصفات خاصة: عدد محدد من الشخصيات، وسرد مختصر لا يهتم بالثانويات، وحركة داخلية نابعة من لعب العواطف والأهواء. لا غرو اذن اذا كان التعبير المسرحي قد استهوى مورياك كما سنرى بعد قليل.

تدور أحداث الرواية في ذلك الجو الذي كان مورياك يقضي فيه اجازاته فيما مضى: ريف «اللاند»، حيث يدخل القارىء عالماً خاصاً. والديكور عادة ضيعة قديمة تقع وسط مساحات شاسعة من أشجار الصنوبر، تحت سماء صيف قاسية حارة تثقل على الأرض الجافة وتحرقها. تعيش داخل الضيعة أسرة متمسكة بالتقاليد، تعيش في صمت وجمود، لكن الحريق يشب أحياناً، وينتشر وسط الغابات الكثيفة — على غرار الأهواء المضطرمة في نفوس الشخصيات.

والشخصيات «ملائكة سود» تملكهم الشر، يتألمون، ويتعذبون، ويعذبون من حولهم. يميل مورياك ميلاً خاصاً الى تصوير نفوس متسلطة تسيطر على أخرى أضعف منها. تتحاب الشخصيات، ويمزق بعضها البعض الآخر وهنا يبين موضوع رئيسي في روايات مورياك: الحب، حب الذات. انه بمثابة رغبة آمرة في السيطرة، لا تعرف الهدوء أو السكينة. يذكرنا هذا الحب بالصحراء: ذلك أن قلب الانسان متعطش الى حنان لا جدوى من البحث عنه في العواطف البشرية الخاصة، لأن عدم التفاهم بين الناس أمر حتمي لا مناص منه شأنه شأن العزلة النفسية التي يعيشون فيها، ما دام الحب مجرداً من النور الداخلي. يميل مورياك أيضاً الى خلط انطلاقات الايمان بمطالب الجسد. بل يبدو أنه يولي اهتماماً خاصاً لأولئك الذين لا يؤمنون، ويثورون على النقمة الالهية، وأن هذه الشخصيات تستسلم في نهاية الأمر. يستبعدها مصيرها، وسواء لجأت الى الله أو نسيته، لا يتسنى لها الهرب طويلاً من طبيعتها الخاصة. واذا عادت الى حياتها الأولى، لا تعود اليها كما خرجت منها، لأن التنازلات التي وافقت عليها سعياً وراء الخطيئة كشفت عن أعماق نفسها المضطربة.

تقول تيريز ديكيرو، بطلة الرواية الشهيرة التي تحمل اسمها — عرفت هذه الرواية سبيلها الى السينما حيث لاقت نجاحاً منقطع النظير —: «لا أعرف ماذا أردت. لم أعرف أبداً الّا ما تنزع اليه هذه القوة الجامحة الكامنة في نفسي وخارجها..» لقد حاولت أن تدس السم لزوجها. فحوكمت. واطلق سراحها لأن ضحيتها — زوجها الذي أراد أن يتجنب الفضيحة — لم تشهد عليها. ها هي الآن تتحدث الى نفسها، محاولة الوصول الى نهاية ليل لا ينتهي، ما دامت السعادة كلمة جوفاء لا وجود لها: «لا وجود الّا للملل، وما يتنافى مع القيم السامية، والواجبات العليا»... لقد رأت نفسها تغوص في العدم يوماً بعد يوم، بين زوج فظ لا يبالي، وأسرة تحيط بها كالسور، وأرض كئيبة مترامية الأطراف. لم يكن هناك بد من أن تفعل شيئاً: قطع صلتها بكل هذا والتحرر منه لم يكن هناك شيء يربطها بالحياة أو يجعل لها قيمة، اللهم الا الموت البطيء الصامت، أحست تيريز أنها تعيش حياة خلت من العواطف والحب. حتى الطفل الذي



رواية «تيريز دوكيرو

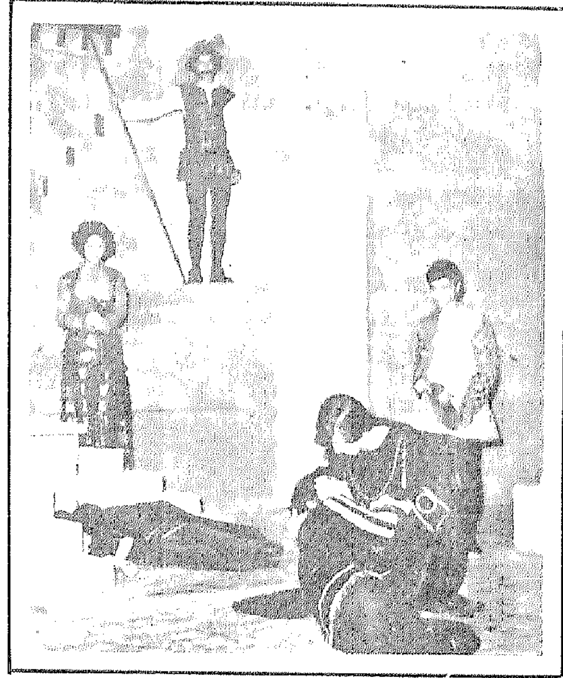
رزقت به أحست وكأنه انسان غريب لا تود آن يربطها به شيء. لم تتمكن من الفرار. لكنها لم تحتمل الخضوع أيضاً. وأخذت فكرة القتل تتصاعد من أعماق نفسها. لم تكن فكرة أرادية منطقية، بل شيء أشبه بأمنية أقوى من وعيها، أملت عليها سلسلة من حركات أدتها بطريقة منهجية باردة. وعندما افتضح أمرها، لاذت بالصمت، ورد الى حياة لا مخرج منها. حبستها أسرتها شهوراً طويلة لم تعرف خلالها الا جموداً مخيفاً لا ينتهي، جمود خرجت منه أحياناً على صوت الرياح المتصاعدة من أشجار الصنوبر، حاملة معها أنات البشر فيما عدا هذا، لم تعش الا بالقدر الذي أحست به بألمها، ذلك الألم الذي أصبح شغلها الشاغل وهمها الوحيد. وحلت ساعة حررها فيها زوجها: قادها الى العاصمة وتركها وشأنها.. ربما استطاعت العيش في هذه المدينة الكبيرة، ما دامت تضم بين جنباتها «غابة من البشر» تستلفت نظرها، ولا تعوق سيرها نحو مصيرها.

مسرحيات مورياك امتداد لرواياته. لكنها تختلف عنها بالقدر الذي يختلف به تكنيك الرواية عن تكنيك المسرحية. رواية مورياك عمل مركز قصير يعتمد في أغلب الأحيان على شخصية واحدة. وربما كان أميل الى القصة القصيرة منها الى القصة الطويلة. لذا استطاع نقلها الى المسرح بطريقة طبيعية. يختار مورياك الروائي أقرب اللحظات للأزمة، ويحذف الأزمنة الزائدة، ويبحث عن المواقف الرئيسية. وتلك هي العناصر الأساسية التي تقوم عليها المسرحية. كما أبدى حذقاً ومهارة في كتابة المسرحية. هذا ويعتقد ب. هـ. سيمون أنه يفضل مسرحياته على رواياته، وان خالف هذا رأى النقاد والجمهور.

عمل مورياك جاهداً على ضغط الأحداث وتجريدها من كافة الشوائب، فاكتفى بحدث واحد، أو عنصر خارجي واحد يفجر الأزمة الداخلية تفجيراً مختصراً قوياً: مشروع زواج في «النار على الأرض»، ووصول هاري فاننج في «أسموديه» كذلك، حمله المسرح على استخدام لغة خاصة. لقد رأى أن على الكاتب المسرحي أن يتخطى عقبتين رئيسيتين: أولاً، لابد أن يكون الحوار مباشراً، مادامت المسرحية تستهدف الكشف عن نفوس البشر من زمن محدد: «لكل جملة حسابها. وتكمن صعوبة المسرح بالذات في سهولة الحوار الظاهرية». ثانياً، على الكاتب المسرحي أن يستبدل أسلوبه الخاص بلغة الحديث العادية.

أعاد مورياك الى المسرح السيكولوجي مكانته في وقت كان المؤلفون يميلون فيه الى الابتعاد عنه. فكتب مسرحيات تذكرنا بمآسي راسين، تحاكي بساطتها، وقوتها التأثيرية وثراءها النفسي، وتتميز بعض مشاهدها بقوة درامية فائقة. ولنذكر، على سبيل المثال المشهد السادس من الفصل الثاني من «اللامحبوبون» حيث يلجأ مسيو دي فيلاد المالك العجوز الذي أخذ يهدّه الخمر والانحلال الى وسائل شيطانية ينفث بها سم الغيرة في نفس ابنته الحساسة اليزابيت لكي يبطل مشروع زواجها، وبالتالي، يحتفظ بها إلى جواره أبداً، ويخضعها لسيطرته وامرته.

من ناحية أخرى، توجد في مسرح مورياك شخصيات تفرض نفسها على المتفرج منذ البداية. وتحمله على التفكير. ها هو مثلاً بليز كوتور، بطل «أسموديه»، أولى مسرحيات مورياك التي عرضت في الكوميدي فرانسيز عام ١٩٣٧. انه رجل أبعد عن الدير لأفكاره الفاسدة

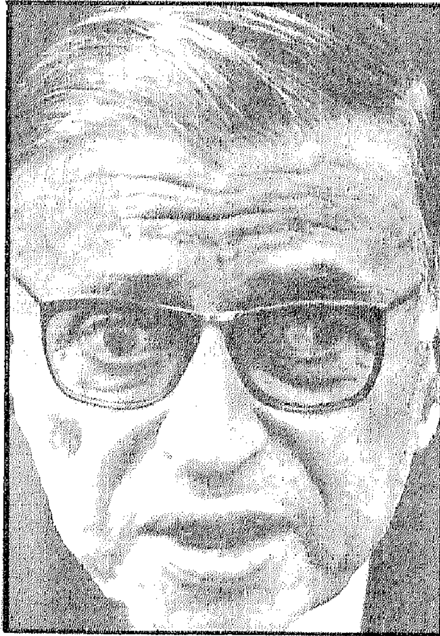


الضـارة.. واستولت عليـه رغبـة جـامحـة في الانتقام، وحاجة ملحة الى السيطرة، والاثنتان ناتجتان عن حقده على الناس ورغباته المكبوتة. ها هو ذا يدخل بوصفه معلماً منزل مارت دي برتاس، امرأة ناضجة جميلة ترملت من ثماني سنوات، تعيش مع أولادها الأربعة في ضيعة منعزلة تقع وسط غابات «اللاند». يطمع فيها سراً، ويبدي ثقـة مكيافيليـة حتى ينتهك سر نفسها ويخضعها لسيطرته. مظهره الخـارجي يبعث على الاشمئزاز، لكن سلوكه سلوك ساحر يجمع بين القحة والأدب. ها هو ذا يسود البيت كله ويسيطر عليه. آهو طرطوف جديد؟ لا، لأنه غير مدفوع بالمصلحة أو نداء الحواس. ان قوته على نفسه وطمعه في مارت طمعاً غيوراً يتسمان بالروحانيـة الخالصـة. ويأتي شـاب انجليزي ساذج ــ أسموديه ــ ليقضي أجازته في الضيعة. وتتفجر المأساة. تلاحظ مارت الشاب، فيتملك كوتور الروع. لا ينجح المعلم في ابعاد الشاب عن القصر، فيهجر هو القصر. وسرعان ما ينتقم. لم يعشق الشاب الأم مارت بل أحب ابنتها. وانهارت الأم، واستدعت كوتور لنجدتها. لقـد مهـد هذا الأخـير لنشأة الحب بـين الشـاب والفتاة. فأصبحت فريسته ملكاً له وحده.

* * *

تكشف مؤلفات مورياك عن رسالة انسانية نبيلة. لقـد صـور مراراً وتكـراراً استحـالة الوصول الى النفس البشرية من خلال الجسد، وضع في قلب شخصياته عطشاً لا يرتوي الى «صحراء الحب». وعندما قال سـارتر عبـارته الشهيرة: «ما الجحيم الا الآخـرون»، لم يأت بشيء لم يسبق أن عبـر عنه مـؤلف «عقـدة الأفاعي»، و«اللامحبوبون».

من الخطأ أن ننظر الى مورياك عـلى أنه كاتب متشائم. كـل ما يمكن أن نقـوله هو أن تشاؤمه أخلاقي لا ميتافيزيقي. يرفض مورياك اعتبار الانسان كائناً بريئاً ألقي بـه في عالم يسوده الشقاء والشر. طبعاً، الانسان بائس، لكنه مذنب أيضاً، ومسؤول لأنه حر. صحيح انـه مذنب، لكن الغفران لا زال ممكناً. صحيح انه مسؤول لكن هناك قوى تفوق الطبيعة تسنده وتسانده.



سارتر

ومن النادر أن يستسلم مورياك للعدم. لا بد من ظهور ضوء عابر في نهاية الليل، لا بد من ظهور كائن يحمل معه الهدوء والسكينة عـلى حافة طريق البؤس والألم. ان موريـاك كاتب مؤمن، لا ينشأ عن ايمانه ذلك التفـاؤل الذي لا يرحم الذي نلمسه في مؤلفات بول كلوديل.

●

الرجاجيل

موقع فريد من الألف الرابع ق.م

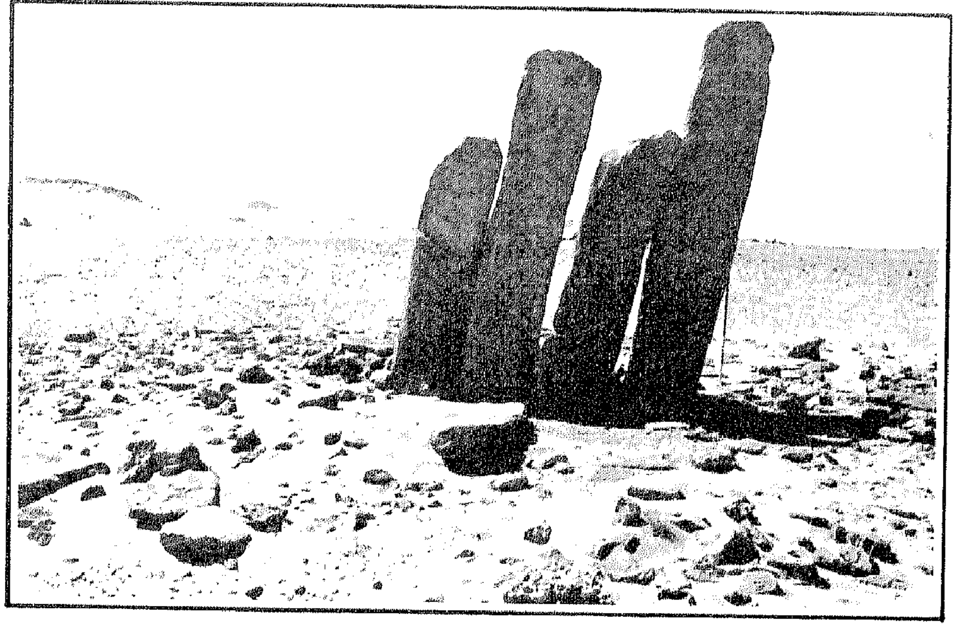
يوريس زارينس

يمكن اعتبار هذا الموقع الأثري الهام ثروة حضارية فريدة في أراضي المملكة العربية السعودية «لوحة ٧٤» وتم اكتشاف هذا الموقع من خلال الجهود المبذولة في اطار برنامج المسح الأثري الشامل لأراضي المملكة العربية السعودية والذي تضطلع به ادارة الآثار والمتاحف.

ومن المعروف أن هذا الموقع قد شاهده لأول مرة اثنان من المؤرخين الغربيين هما: فريدوينيت ووليم رييد، وذلك أثناء رحلتهما عبر منخفض وادي السرحان البازلتي عام ١٩٦٢. ومع أننا نعلم أن هناك رحالة آخرين سبق أن زاروا المنطقة بوجه عام، منهم على سبيل المثال هيوبر ١٨٨٣م وميوزل ١٩٠٩ وفيلبي ١٩٢٣م إلاّ أنه على حد مبلغ علمنا، لم يخلف أحدهم ما يمكن التعويل عليه في شأن ذلك الموقع غير العادي. ذلك بالطبع باستثناء وصف «بالجريف» لما أسماه «آثار العمالقة» بالجزيرة العربية في منطقة بريدة. كما أن فيلبي لم يستطع أن يسجل مثل هذه الآثار، بل واستبعدها باعتبارها من ضروب خيال بالجريف (فيلبي ١٩٢٢: ١٤٠ ـ ١). كما أن هناك نظريات تقول باحتمال أن يكون الأمر قد اختلط على بالجريف بالنسبة لموقع الرجاجيل أثناء تجواله في منطقة بريدة (بالجريف ١٨٦٥: ٢٥١). أمّا وينيت ورييد، فقد وصف كلاهما موقع الرجاجيل ككل على اعتبار أنه يشكل دائرة حجرية عظيمة وغير عادية، وتركا انطباعاً يوحي بأنها مجرد ملاذ من الرياح، أو أنها مدافن في الأرض، كما أن استكشافاتهم المحدودة للموقع تشير إلى أن عدداً من الأعمدة الحجرية الضخمة كانت متجمعة في مجموعات منفصلة. ولاحظا إلى جانب ذلك، أن الأعمدة كانت قد أقيمت عمداً على شاكلة الأضرحة الحجرية الأثرية بالأردن (وينيت ورييد ١٩٧٠: ١٢) وقد أرسلت إدارة الآثار منذ عام ١٩٦٢ عدداً من الفرق إلى المواقع المعروفة جيداً لدى أهالي منطقة سكاكا اعتباراً من ١٩٦٥. وقد سجل البرنامج الشامل للمسح الأثري في المنطقة الشمالية من المملكة العربية السعودية زيارات للموقع عامي ٧٦، ١٩٧٧.

وقد أمكن الوقوف على صورة مفصلة لتركيبة الموقع، على ضوء جهود إدارة الآثار والمتاحف خلال موسمي ٧٦، ١٩٧٧ (آدامز وبار وآخرون ١٩٧٧). وأتاح لنا المسح الدقيق لكل المنطقة القدرة على تحديد مكان ذلك الموقع في إطار عمل أكبر يفسر مدى أهميته، وكذلك معرفة التركيب الجيومورفولوجي السائد بالمنطقة التي تحددت بعشرة كيلومترات تقريباً إلى الجنوب من سكاكا. وهو عبارة عن مصطبة قليلة الارتفاع من الحجر الرملي تطل على منخفض واسع إلى الجنوب تماماً من «قارة» ومن المحتمل أن يكون هذا المنخفض، امتداداً صغيراً لمنخفض وادي السرحان الممتد في الاتجاه الجنوبي الشرقي من مرتفعات الأردن. وربما كان طريقاً هاماً في الماضي يمتد ليصل إلى منطقة الجوف ويحيط بصحراء النفود العظيم حتى حافته الشمالية، وبدت هذه المصطبة من الحجر

الأعمدة الحجرية في الرجاجيل



الرملي فوق مستوى البصر بعد توقف الاستيطان البشري جنوباً، وفيما حول الحوض كاملاً إلى الجنوب الشرقي وإلى الشرق، تقوم حافة صخرية بها قمم من الحجر الرملي المسطحة المنعزل بعضها عن بعض.

ولقد كشف مسحنا لهذه المنطقة عن عدد من المواقع الموستيرية فضلاً عن سلسلة متتالية من المواد الأخيرة. ويعرف الموقع ككل باسم «الرجاجيل» في الوقت الذي يوجد به عدد من التصميمات المختلفة يمكن وصفها ببساطة باعتبارها مركباً متكاملاً: وأولى هذه المركبات الأعمدة الحجرية التي هي من أبرز ملامح الموقع. وقد أسفر الاستكشاف الدقيق عن أن تلك الأعمدة ترتفع لثلاثة أمتار ونصف، يصل قطر الواحد منها ٧٥سم، وهي لم تنتشر فوق الهضبة بصورة عشوائية، كما لاحظ وينيت ورييدبل ربما كانت جزءاً من مجموعات المباني المنفصلة التي أقيمت على هذه الهضبة القليلة الارتفاع. وباكتمال رسم الخرائط الأولية للمباني، تبين لنا أن الأعمدة وان تبدو الآن في حالة من عدم الانتظام، إلّا أنها كانت في الأصل مشيدة في خط مستقيم بالنسبة للمحور الممتد فيما بين الأعمدة من الشمال إلى الجنوب. وعليه، فقد كانت الأعمدة تتجه شرقاً أو إلى حيث الاتجاه الغالب لشروق الشمس وهي مشكلة بعناية، كما تختلف في عدد مجموعاتها المنعزلة. وقد أمكن في بعض الأحيان التعرف على اثنتين أو ثلاث من هذه المجموعات. وفي أحوال أخرى حصرنا ما يزيد على ١٩ مجموعة، كما أمكن مشاهدة «وسوماً» محفورة على الصخور الملساء، وكذلك العديد من أحجار الجرافيت الثمودية التي أمكن التعرف عليها، فضلاً عن رسوم الوعال وأشباهها (وينت ورييد ١٩٧٠: ٨١). وعلى أية حال، لم تكن الأعمدة هي الظاهرة الوحيدة التي أمكن مشاهدتها على صورة منشآت منعزلة. فقد شاهدنا في كثير من الأحوال منشآت صغيرة بيضاوية، على شكل حرف «D» أو هي مبان مستطيلة ملحقة بالأعمدة. وبذلك تمثل الأعمدة الرأسية أكثر المعالم بروزاً في كل البنية. وكان قد تقرر في عام ١٩٧٧ استكشاف واحد من هذه المباني لمعرفة المزيد من المعلومات عن وظيفتها والغرض منها. وعلى ضوء الدراسة التي أجريت على طبقات الأرض في قسم من المنطقة والتي كشفت عن وجود أربع أو خمس طبقات مختلفة تم الاستنتاج بأن المبنى الرئيسي متعاصراً، متماسكاً ككل، ولا توجد أية آثار للاستيطان مبكراً كان أو متأخراً بادية في الوقت الحاضر. وكانت الطبقات التي أمكن مشاهدتها ملحقة بالمبنى وتشير إلى أنه ربما شيدت قبل التركيبات المترسبة للغطاء الرملي المتأخر. وأوضحت

الاستكشافات والمسح السطحي أن الأعمدة كانت تصطف بالفعل على طول المحور الشمالي الجنوبي، وأن جميعها تتجه أصلاً إلى الشرق. وهناك أربع ألواح أقيمت على الحافة مشكلة دائرة حجرية مركبة على شكل حرف «D» تشكل الأعمدة القائمة واجهتها. ولاحظنا في داخل وخارج المبنى تركيزاً كبيراً للألواح الصغرى والأحجار، كما أن تراكم الرمال وصل إلى عمق يصل تقريباً إلى نصف متر. وليس في مقدورنا الآن تأكيد ما إذا كانت هذه الألواح المكدسة معاصرة للمبنى الرئيسي أو أنها كانت متأخرة عنه. وتم كذلك استكشاف أجزاء أصغر تتخلل المبنى الأصلي حتى أدت بنا إلى تربة جدباء ولكننا لم نعثر على دليل مادي، سواء كان من مواد المقبرة أو العظام الآدمية أو الحيوانية، أو أي شيء يشير إلى أن المبنى استعمل يوماً ما كمأوى أو مسكن. وشاهدنا في ثلاثة جوانب من خارج المنشأة (الشمال، الغرب، الجنوب الغربي) ثلاث نقر ربما كانت تستخدم كمواقد للتدفئة. ويبدو أنها كانت تقام أو تحفر في سطح المنطقة قبيل البدء في اقامة المنشأة ذاتها.

تبلغ مساحة المبنى برمته ٤ × ٤,٥ متراً تقريباً، ويبدو أنه لم يكن مستخدماً في أمور دنيوية معينة، كما أنه لم يعثر على أية آثار ايجابية تدل على أنها كانت مقابر، كما أنها لم تكن هناك أطلال حضارية تشير إلى كونه في الماضي مبنى سكنياً كما ذكرنا. وعندما يؤخذ هذا الدليل إلى جانب الاتساق التام في وضع تلك الأعمدة، ينتهي بنا الأمر إلى أن هذه المنشآت كانت تخدم بعض الأهداف الدينية أو أغراض العبادة.

وفي الوقت الذي نذكر فيه أنه لم يتم الكشف عن مواد حضارية عند التنقيب في المنشأة ذاتها، إلا أنه عثر على كمية كبيرة من المخلفات الحضارية المنتشرة على الهضبة ومختلطة بالرمال؛ حيث شاهدنا مواد من الحجر والفخار والأصداف والعظام، والأخيرة هشة للغاية بفعل تعرضها لعوامل التعرية والرياح ولكنها ملساء جداً. كما عثرنا على كسر مفصلية تشبه تلك التي شوهدت لمخلوقات من أجناس الفرس والوعل ونحوها. أما المواد الصوانية، فقد أمدتنا بأقوى دليل على تأريخ هذه المجموعات الحضارية التي تضم نسبة كبيرة من الأدوات (مع استبعاد مخلفات الأحجار) كالصوان المصقول، والمكاشط المروحية وغيرها من المواد الشفرية. ونطلق عليها صفة «مصقولة» بسبب احتفاظها بقشرتها السطحية، مع شحذ الحافة وحدها بينما أعد جانبها السفلي عن طريق نزع اللحاء كاملاً وترك السطح أملساً بالنسبة للمخارز والشفرات جيدة الصقل والصنعة والآلات الحادة المدببة، والشفرات المسننة والمخارز الصغيرة والشظف المعاد شحذها والتي وجدت جميعها متوفرة.

والحقيقة أنه نادراً ما شاهدنا مجموعات الفخار، وإن كان النوع السائد في مشاهداتنا هو الفخار من ذلك النوع الطفلي الذي يسود فيه الخط المائل للون الأصفر أو البني الخفيف. وقد اتضحت لنا طبيعة الميكة التي تلالأت عندما تعرضت الكسرة للانشطار، في حين كانت هناك شرائح أخرى داكنة إلى اللون البني أو الأحمر بسبب طول مدة التعريض للحرارة بأفران الصهر. ولولا تهشم كسر العظام وتآكلها لأمكن التوصل إلى شيء عن طريق فحصها، ولم تقتصر مشاهداتنا على عدد من الأوعية البسيطة وإنما شملت كذلك كل الأواني ذات الفوهات، وكسرا قاعدية مسطحة، فضلاً عن يدي إناءين، احداهما حلقية رأسية الاتجاه، والأخرى عبارة عن افريز صغير. وإذا ما اتخذنا هذه المواد مدخلاً حضارياً، تبينا وجود تشابه كبير بينها وبين المواد الصوانية والفخارية التي عثر عليها في مواقع بسيناء والنقب والساحل الفلسطيني (تمبسون ١٩٧٥ ورونين ١٩٧٠ وكابلان ١٩٦٩ وروثنبيرج ١٩٧٢ و١٩٧٠). وقد أكدت أعمال الاستكشاف الحديثة بشرق الأردن كذلك نتائج كشوفنا (هيلم ١٩٧٦). ويمكن إقامة الدليل بصفة أساسية على أن موادنا الحضارية إنما تعود للعصر الحجري النحاسي في الشرق الأدنى الذي يشير إلى الألف الرابع ق.م. ومع أن الفخار يختلف بعض الشيء عن الأنواع التقليدية من العصر النحاسي، إلّا أنها لا تخرج كثيراً عن الأنواع المألوفة المتوقعة. وبالاضافة إلى ذلك، فان

الجرافيت الثمودي النادر الذي أمكن التعرف عليه فوق الأعمدة، يبدو أنه لمنشآت أقيمت بعد انهيار الأعمدة جانباً (وينيت ورييد ١٩٧٠: ١٢). وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن التراكمات الحضارية، وربما كذلك المباني الميغاليتية المشيدة (الحجر الضخم غير المنحوت) تعود لتقاليد العصر النحاسي بالشرق الأدنى.

وبالمزيد من أعمال الاستكشاف فيما حول منطقة الرجاجيل، عثرنا على مواد ربما كانت معاصرة لمنشآت الأعمدة فوق الهضبة. كما عثرنا على عدد من المدافن لا يستهان به إلى الجنوب مباشرة، وقد كانت متفاوتة في درجة الوضوح. وتشبه تلك المدافن الحجرات المدفنية الضخمة على شكل حرف «U» بمعظم أراضي شبه الجزيرة العربية. وفي حين أنه جرى تمثيل عدد من العصور الزمنية كما اتضح لنا عن طريق ظهور هذا النوع من المباني بصفة عامة، إلّا أنها بدأت فوق قمم تلال الأحجار الرملية التي ربما كانت معاصرة للمباني السفلية فوق الهضبة قليلة الارتفاع. وقد تبين ــ من الأمثلة الجيدة لهذه المباني ــ أنها كانت مشيدة بطريقة عشوائية بحيث بدت من كتل الحجر الرملي النصف معدّة أو مجهزة التي إمّا أنها وضعت في صفوف غير منتظمة أو أنها كومت بشكل عشوائي.

وقد تم اكتشاف عدد من المستوطنات الصغرى فيها دوائر حجرية أثناء استكشاف تلال الأحجار الرملية شرقي منشآت الأعمدة، تشبه المستوطنات السائدة في المنطقة أي في الجزيرة العربية وسيناء والأردن (والتي تشمل المناطق الصحراوية بجنوب سوريا وغربي العراق) (فيلد ١٩٦٠، ريز ١٩٢٩، ميتلاند ١٩٢٧)، وتم حصر أربع من مثل هذه المستوطنات على مدى ثلاث كيلومترات من موقع الرجاجيل. وتتكون هذه المواقع ــ طبقاً للعادة ــ من كل من الدوائر الحجرية عشوائية البناء أو التكوين، والمدافن على النحو السابق وصفه من قبل. ومن المفترض أن الدوائر الحجرية تمثل أساسات المباني التي أزيلت مبانيها الفوقية التي تختلف كلية في فكرتها وطرازها عن خيام البدو الحديثة المشيدة من جلد الماعز أسود اللون. وتختلف هذه الدوائر بدرجة كبيرة في نوعية التكوين. فبعضها مشيد من الألواح الحجرية المعدة جيداً لهذا الغرض، وقد رصت في صفوف أفقية متلاصقة. والأخرى مشيدة على شكل مبسط من كتل الأحجار المكدسة، وعلاوة على ذلك، فإنه يوجد بعض الأنواع المركبة التي تتكون من العديد من الدوائر البسيطة، كما توجد دوائر أخرى تتكون من الدوائر المركبة، وهي عبارة عن عدد من الدوائر المتلاصقة التي تضم أسواراً تنتشر في غير انتظام حول كل التركيبة الدائرية. ويتراوح قطر بعض الدوائر ما بين ٣ و ٥ أمتار، وقد يصل قطر بعضها الآخر إلى ٢٥ متراً. كما كانت المواقع المجاورة مباشرة للرجاجيل من نوع بسيط، مقامة على المصاطب العليا لتلال الأحجار الرملية، وكشف العديد من المواقع عن الفخار الميكي. وحوت جميعها مواد صوّانية مطابقة لمجموعات الرجاجيل إلى حد كبير. وهناك مواقع تضم المقابر المتقنة البناء، وأمكن التعرف على موقع استيطاني واحد يحيط به سور من الألواح الحجرية الموضوعة رأسياً. وعليه، فإنه إذا ما أتيح لنا أن نتأملها، سوف نتبين أن الأقوام التي تجمعت في موقع الرجاجيل لغرض مجهول إنما كانت تقطن في محلات منفصلة في مستوطنات منفردة وبعيدة عن الرجاجيل.

وقد تم الكشف عن موقع بئر أثرية مهجورة غربي الرجاجيل بحوالي كيلومتر واحد، أمكن التعرف عليه بالعثور على أحواض تحدها الأحجار والأحجار المميزة بعلامات الحبال. ولم تشاهد حالياً آبار أخرى بالرغم من أن أهالي المنطقة المحليين أشاروا بصفة عامة إلى توافر المياه بالمنطقة في الماضي. كما كشفنا في نفس المنطقة عن مجموعة من أدوات الصوّان مشابهة في طرازها لما عثر عليه في منطقة الرجاجيل منها.

وأخيراً، فقد سجلنا أثناء موسم العمل بالمسح عدداً كبيراً من تركيبات الدوائر الحجرية من مختلف الأحجام في أعالي منخفض وادي السرحان وعلى مدى امتداد نظام الصرف بوادي عرعر في الاتجاه الشمالي الشرقي. ويبدو

أن جميع المدافن التقليدية التي يمتد العديد منها إلى ما يزيد على ٣ كم تأتي مصحوبة بتلك التركيبات من الدوائر الحجرية. وعثرنا على كسر من النوع السابق وصفه بموقع الرجاجيل في عدد من الأماكن. وتضم جميعها مواد من العصر الحجري يمكن أن توضع في نفس طبقة نظائرها بموقع الرجاجيل. ويمكن القول على سبيل الافتراض إن الموقع قد يمثل مكاناً يجتمع فيه عدد من الجماعات المتباينة اجتماعياً لأداء واجبات اجتماعية أو عرفية ـ دينية تماماً كما ورد ذكره في أماكن أخرى لمواقع مشابهة بالشرق الأدنى، مثال ذلك أن الألواح الكبيرة القائمة من العصر البرونزي الأوسط في «جزير» قد جرى تفسيرها على هذا النحو، ولعل منشآت الدوائر المركبة التي عثرت عليها «ديانا كيركبرايد» «Diana Kirkbride» في منطقة وادي الروم في الأردن (كركبرايد ١٩٦٩) وكذلك معبد «روّافة» جنوبي تبوك يفسران نفس الشيء (جراف Graf ١٩٧٨).

موجز القول أنه من الممكن التدليل على أن كثيراً من السمات الحضارية المميزة لشمال الجزيرة العربية في العصر النحاسي من الألف الرابع ق.م أمكن مشاهدتها في شكل مركبات متماسكة بحوض سكاكا. ومن الواضح أن يكون موقع الرجاجيل هو بؤرة اهتمامنا، فمنشآت القرية شبه القائمة، ومدافن المنطقة، وكذلك منشآت أخرى في حالة جيدة وكذلك المنشآت الخاصة بالاحتفالات المركزية الطقسية... كشفت عن أطلال ذلك العصر، وعليه، يمكننا القيام بفحص ودراسة فترة ما قبل التاريخ في حوض سكاكا بصفة عامة. ●

المراجع

□ **روبيرت آدامز، د. بيتر بار، محمد البراهيم وعلي المغنم (١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧):**
٩٧ هـ/ ٧٧ م: «التقرير المبدئي للفصل الأول من المسح بشرق وشمال الجزيرة العربية» ـ حولية الآثار العربية السعودية العدد الأول.

□ **هنري فيلد:**
١٩٦٠: «المسح الأثري لصحاري شمال الجزيرة العربية (١٩٢٥ ـ ١٩٥٠)». تقرير متحف البيبودي للآثار والأنثولوجيا، جامعة هارفارد العدد ٤٥ ص ٢، متحف البيبودي، كامبردج وماساشوست.

□ **دافيد أ. جراف:**
١٩٧٨: «الأبراج والحصون الدفاعية لحدود الجزيرة العربية» باصور ـ عدد ٢٢٩ ص ١ ـ ٢٦.

□ **س. و. هولمز:**
١٩٦٩: «استكشاف جاوان ١٩٧٤: التقرير المبدئي» بلاد الشام «ليفانت» عدد ٨ ص ١ ـ ٣٥.

□ **ج. كابلان:**
١٩٦٩: «عين الجربة» «Ein el Jarba»، أطلال العصر النحاسي في سهول ازدرائيليون. باصور ١٩٤: ص ٢ ـ ٣٢.

□ **ديانا كيركبرايد:**
١٩٦٩: «آلهة قدماء الجزيرة العربية» الآثار عدد ٢٢ من ص ١١٦ ـ ١٢١. عدد ٢٣ ص ١٨٨ ـ ١٩٥.

□ **ضابط الطيران، ميتلاند:**
١٩٢٧: «الأعمال التي مارسها انسان الجزيرة العربية القديم» الآثار عدد ١ ص ١٩٧ ـ ٢٠٣.

□ **وليم ج. بالجريف:**
١٩٦٥: «قصة رحلة العام عبر قلب وشرقي الجزيرة العربية» (١٩٦٢ ـ ١٩٦٣) م ـ لندن.

□ **بيتر بار، يوريس زارينز وآخرون:**
١٩٧٧: «التقرير المبدئي للمرحلة الثانية لمسح شمال الجزيرة العربية» العدد ٢ من أطلال ـ حولية الآثار العربية السعودية. تصدر عن ادارة الآثار والمتاحف.

□ **ه. ج. ب. فيلبي:**
١٩٢٢: «قلب الجزيرة العربية» العدد ٢ وليم لونجمان ـ لندن.

□ **ل. و. ب. ريز:**
١٩٢٩: «صحارى ما وراء الأردن» الآثار عدد ٣ ص ٣٨٩ ـ ٤٠٧.

□ **أ. رونين:**
١٩٧٠: «التقرير المبدئي عن أدوات الصوان بجنوب سيناء» ص ٣٢ ـ ٤١.

□ **بينو روثنبرج:**
١٩٧٠: «المسح الأثري لجنوب سيناء» بيك (PEQ): ص ٤ ـ ٣١.
١٩٧٢: تيمنا مناجم النحاس البابلية. ثيمس وهدسون ـ لندن.

□ **توماس ل. تومبسون:**
١٩٧٥: «مستوطنة سيناء والنقب في العصر البرونزي».
Beihefte Zum Tubinger Atlas des Vorderen Orients, Reihe B, Nr. 8. Wiesbaden: Ludwing Reichert Vertag.

□ **ف. وينيت وو. ل. رييد:**
١٩٧٠: «الآثار المسجلة بشمال الجزيرة العربية». مطبعة جامعة تورينتو ـ تورينتو ـ كندا.

حُمْص والحضارات التي تعاقبت عليها


جامع خالد بن الوليد

لا يذكر اسم حمص إلا ويتبادر إلى الذهن البطل المرابض في الحي الشمالي منها (خالد بن الوليد) مما جعل حمص تعرف (بمدينة ابن الوليد).

متى وجدت مدينة حمص؟

تعددت الروايات وتضافرت حول مدينة (قادس أو قادش) الواقعة في بلدة القصير مكان (تل النبي مند). وذكر أن تاريخها يعود الى القرن العشرين قبل الميلاد، بينما الروايات لم تذكر اسم حمص، الا حوالي الميلاد، فيستدل ان وجود (قادس أو قادش) سابق لوجود حمص بنحو عشرين قرنا؟ وهي قاعدة حربية تقع بالقرب من بحرة قطينة على بعد (١٤كلم) من المدينة.

جغرافية حمص:

ان منطقة حمص تقع بحدودها الادارية وعناصرها التضاريسية متشابكة مع عناصر بقية المحافظات المجاورة، ففي الشرق تضم منطقة الحماد المشتركة مع اكثر من محافظة: اذ تمتد حدودها الى محافظة دمشق وحماة ودير الزور والرشيد. بل مع بادية المملكة الاردنية الهاشمية والعراق كما تتشابك سهولها في الشمال مع سهول حماة، وتتداخل بتضاريس اللاذقية ولبنان الشمالي والبقاع اللبناني.

تعتبر مدينة حمص مركزا هاما، لموقعها في البلاد السورية وهي همزة الوصل بين كافة المناطق الشمالية والجنوبية والغربية والشرقية، اذ لا بد للمسافر اينما كانت وجهته من المرور بحمص، فهي في مكان القلب من الجسم اذ تنتشر شرايينها في كل الجهات.

وقد تحدث عنها الشاعر اليوناني هوميروس في القرنين الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد. وتحدث ارامیا العبراني (٦٢٨ ــ ٥٨٦) قبل الميلاد. وتحدث ايضا بيروز الفارسي (٣٣٠ ــ ٢٨٠) قبل الميلاد. وتحدث اسطرابون الجغرافي (٦٠ ــ ١٤) قبل الميلاد. بالاضافة الى

المؤرخين والجغرافيين العرب امثال ابن جبير وابن بطوطة وياقوت الحموي وابي الفداء.

اكتشاف الاثار يحدثنا عن حمص ومناطقها:

دلت الوثائق المصرية والاشورية القديمة انه كان في موقع حمص الحالي مدينة كبيرة وحصينة اعتبرها المصريون مفتاح اسيا الوسطى ونظر اليها الاشوريون نظرتهم الى حصن منيع يرد غارات الاعداء.

حمص في التاريخ:

ان لحمص في التاريخ شهرة واسعة، فقد حدثت قربها معركة (قادش) التي انتصر فيها (رمسيس الثاني) على الحثيين، وعند حمص هزم امبراطور روما (اورليان) الملكة (زنوبيا) ملكة تدمر، سنة (٢٧٣) قبل الميلاد. واحتلها العرب سنة (٦٣٨) ميلادية، وضربت اسوارها سنة (٧٤٥) ميلادية. ابان الثورة على (مروان الثاني) الخليفة الاموي، واستولى الجيش المصري على حمص بقيادة (ابراهيم باشا) سنة (١٨٣٢) ميلادية.

تسمية المدينة:

يقال ان حمص مأخوذة من كلمة (حث) اسم لقبيلة سكنتها، أو من كلمة (أميسيا) اليونانية وقيل الذي بناها رجل يدعى (حمص) بن المهرب بن مكنف، أو (حمص) بن مكنف العمليقي والاصح ان اول من انشاها (حمث) بن كنعان فسميت المدينة باسمه، ثم بدلت (الثاء صادا) فصارت (حمص).

القبائل التي سكنت حمص من ـــ ٢٣٠٠ق.م ـــ ١٩٠٠ق.م.

الفئة الاولى:

الروثان ـــ العمالقة ـــ الاموريون:

الفئة الثانية: من ـــ ١٩٠٠ ـــ ١٢٢٥ق.م.

الحثيون: في اوائل القرن العشرين قبل الميلاد انحدرت القبائل الحثية من جبال الامانوس الواقعة في شمالي سورية وعسكرت غربي نهر الفرات، فن عمارة.

الفئة الثالثة: من ـــ ١٢٢٥ ـــ ٧٤٠ق.م.

الفينيقيون ـــ العبرانيون ـــ الاراميون:

عندما اتسعت مملكة سليمان شملت سورية الشمالية ومنطقة حمص سنة (٩٩٢) قبل الميلاد. ـــ كما ذكرت الروايات ـــ ثم اراد ان يعزز ملكه فبنى الى الشرق من مدينة حمص مدينة (تدمر) واحاطها باسوار منيعة وقد دعاها اليونان ـــ فيما بعد ـــ بالميرا (اي النخيل) وبعد اربعة عشر سنة من استيلاء سليمان على منطقة حمص قام احد قادة جيش مملكة صوبا (حمص) بتشكيل جيش شعبي تقاوم المحتل واستطاعت ان تقلق الملك سليمان، وان تنشر الذعر والرعب في منطقة دمشق، وظلت تلك الفصائل ـــ تناضل حتى طردت فلول جيش سليمان وشكلت مملكة واحدة قام على رأسها الحمصيون مدة قرنين ونصف القرن تقريبا.

حمص ايام الاشوريين والكلدان والفرس:

الاشوريون: كانت الدولة الاشورية ـــ دولة برية ثم اخذت ابصار ملوكها تتجه نحو البحر دون ان تتحقق غايتهم في البداية حتى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. فراحوا يسعون الى ذلك من جديد ثم كان لهم ما ارادوا حينما ضموا سورية الى منطقتهم ومنها منطقة حمص. وان حكم الاشوريين لسورية لم يطل وقد عرف عن الشعب السوري منذ القدم بالصلابة ومقاومة المحتل، لذلك نشبت الثورات في جميع انحاء سورية مما ارغم الاشوريين على الخضوع والانسحاب. وظل الشعب السوري يقاوم ما تبقى من فلول ومريدين الاشوريين حتى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. وقد استعان الشعب السوري بالجيش الكلداني مما أجبر الاشوريين على الانسحاب امام جيش بنوخذ نصر الكلداني سنة (٧٤٧) قبل الميلاد. فبسط نبوخذ نصر سلطانه على بلاد الرافدين وسورية ومنها منطقة فلسطين.

الفرس: يعود تاريخ الفرس الى اصل آري سكن منهم قسم بلاد الهند، والقسم الاخر نزل في هضبة ايران يرجع عهد دولتهم الى القرن السابع قبل الميلاد حين ظهرت دولة مادي، وبها

بدأت دولة العصر الفارسي.

السلوقيون:

بعد وفاة الاسكندر الكبير تنازع قادته ـ الذين اصبحوا يسمون انفسهم ملوكا ـ على اجزاء المملكة، وسمية الدولة التي تسيطر على سورية (الدولة السلوقية) نسبة الى سلوقس الاول الذي كان قائدا في سورية، ثم اصبح اول ملك اعتلى عرش سورية، بعد وفاة الاسكندر.

المدن التي انشأها السلوقيين في حمص:

عندما تسلم القائد سلوقس الاول العرش عام (٣٣٥) قبل الميلاد بنى ٣٤ مدينة في جميع انحاء مملكته كان منها حظ حمص مدينتان شهيرتان: افاميا والرستن: هنا تضاربت الروايات من الذي بنا افاميا هذه المدينة العريقة في التاريخ: قيل ان الذين بنوها هم المكدنيون وسموها (بيلا) وقد ولد فيها الاسكندر الكبير المقدوني فاتح المشرق، وقد جعلت (افامبا) مستودعا للأفيال والخيول والذخائر، ويقال ان افاميا سميت باسم امرأة سلوقس نيكاتور، الذي ادخل تحسينات جمة عليها.

وقد ازدهرت افاميا حتى بدت احدى المدن الاربع في منطقة سورية الغربية وهي: سلوقية وانطاكية واللاذقية، وافاميا.

الرستن ـ (اريثوسا): بناها سلوقس الاول جد السلوقيين ودعاها (اريثوسا) على اسم ابنته، أو لأنها احدى نباتات الماء لوقوعها على ضفة نهر العاصي، وقد سميت باسم مدينة مكدونيا.

حمص ابان الحكم الوطني: (من عام ـ ٨٠ قبل الميلاد الى ٧٩ م).

حين تجزأت المملكة السلوقية الى دويلات تناوىء الواحدة منها الاخرى ثم قامت الثورات ضد السلوقيين ومن اهم تلك الثورات ثورة الحمصيين الذين طالبوا بالاستقلال والحكم الوطني. وكان لا بد من الرضوخ والنزول عند رغبة الجماهير في المنطقة فمنح بذلك لهم الاستقلال الاداري.

استقلال حمص الاداري:

في عام (١٠٥) قبل الميلاد تجددت الحرب بين الاخين غريبوس وسيزيك السلوقيين ودامت بينهما حوالي تسع سنوات دون ان يستطيع احدهما التغلب على الاخر، فتزعزعت بذلك اركان مملكتهما وانفصلت منها عدة ولايات كانت منها صور، وصيدا، وسلوقية، وكيلكيا. فاستغل ذلك الموقف الحمصيون وطالبوا السلوقيين بتنفيذ وعدهم بالاستقلال الاداري بقيادة امرائها الوطنيين فكان عام (٩٦) م.

حمص تحتضن هيكل الشمس:

ان وجود هيكل الشمس في مدينة حمص قد جعل لها اهمية بالغة، وموضع احترام الاديان في معظم صقاع الأرض والاصقاع الرومانية، وكان السوريون يقدسون هذا الهيكل ويعتبرونه ملاذا مقدسا، وكان كل من لجأ اليه واحتمى به حرم مسه بسوء أو الاعتداء عليه.

آثار القياصرة الحمصيين في عهد الرومان:

ان حب القياصرة الحمصيين لمنطقتهم جعلهم يهتمون بامرها ويولونها عناية خاصة. فقاموا باصلاحاتها منها شق الطرق وربطها بشبكة برية ممتدة من حي ميماس حمص حتى مصياف مارة بخربة الجاموس، وخربة السوداء، وام محناية وشرقي تليل، وغربي كفر لاها وتلذهب. وهذا مما يدل على عناية الدولة الرومانية بربط هذه المناطق ببعضها البعض. وهذا كان بمساعدة الدولة الرومانية. وقد دلت اكتشافات علماء الاثار للمعالم الواضحة للطرق الرومانية كما دلت الاكتشافات الاثرية عن مدن قائمة في منطقة حمص ممتدة على مسافة ـ ١٨٠ كيلومتر على ضفاف نهر العاصي.

ويرجع تاريخ تلك المدن الى العهد السلوقي كما ورد في نشرة الاثار. ثم اتم الحمصيون فاكملوا البنيان كما اعتنوا بالمدن العامرة وادخلوا اليها التحسينات والمرافق والخدمات العامة. مما جعل ان تكون مدينة حمص محط انظار الرومان وكل من دخل اليها وشاهدها.



حمص / الشارع الرئيسي

بنـاء المـدن والقـرى حـول حمص وتسميتها بالحصون الخارجية:

اشهر المدن التي بنيت حول المدينة:

بعد ان استتب الامن لسكان حمص وبدأوا يفكرون باقامة مدن لحمايتها ودرء الاخطار عنها، وكان من اشهرها: (قادس ــ أو قادش) مدينة حصينة بنية فوق تل يعرف بتل النبي مند، تبرز في وسط سهل مكسو بنضارة العشب النابت فيه، تخترقه الجداول والاقنية المتفرعة من نهر العاصي وتكتنفه المياه من كل الجهات بحيث لا يستطيع الوصول الى المدينة الا باجتياز الجسر الذي انشىء لهذه الغاية. وقادس هي اقدم مدينة حربية تقع في مكان تل النبي مند، وكان الغرض منها حماية مدينة حمص الواقعة في الداخل منها.

مريامون:تقع غربي مدينة حمص في سفح جبل الحلو في موضع القرية المسماة ــ مريمين ــ وتكون مثل مدينة جبيل في القدم من التاريخ. وقال المكتشف الاثري (دوسو) يرجع تاريخ بناء المريمين الى الالف الثانية قبل الميلاد. وجاء ذكرها في الوثائق المصرية المتعلقة بقادش أو قادس، وكانت هذه المدينة في ايام الفينيقيين متاخمة املاك ارادوس (ارواد) وهي من احكم المشارف على وادي العاصي بين حمص وحماة.

وقد بنى الحمصيون القدماء هذه المدينة في موقعها مما يدل على براعتهم ومعرفتهم بعلم الطوبوغرافية العسكرية لأنها من افضل المعاقل لرد الغزاة.

قطنة، قرية المشرفة: قطنة مدينة تاريخية تقع شرقي حمص في المكان الذي قامت فيه قرية المشرفة الان والواقعة على مقربة من دمشق، وقد دلت الاثار على انها كانت مدينة عظيمة ذات اسوار وابواب كبرى وفيها قصر ملكي عظيم وهياكل، وقد اصبحت المدينة معروفة لورود اسمها في بعض الاثار المصرية وعلى الاخص في الالواح التي اكتشفت في تل العمارنة وان هذه المدينة كانت مركزا هاما للمراسلات السياسية بين فراعنة مصر وحكام سورية. وقد عثر في هذه المدينة على تمثال كامل لابي الهول المصري اهدته للمدينة احدى اميرات السلالة الثانية عشره (٢٨٥١ ــ ٢٦٠٠ قبل الميلاد) المدعوة ايتان.

القلعة: تقوم قلعة حمص في الطرف الجنوبي الغربي من حمص القديمة على رابية طبيعية، وتحتوي هذه القلعة على مجموعات اثرية رومانية وبيزنطية وعربية.

ويوجد في القلعة برجان من العهد الايوبي احدهما في الزاوية الشمالية الشرقية، والثاني في الزاوية الشمالية الغربية، واما تحصيناتها فترجع الى العهدين المملوكي والعثماني، واكثر من اهتم بقلعة حمص الملك (شيركوه) عم صلاح الدين الايوبي.

بناء السور الداخلي:

ان الذين بنوا السور الداخلي لحماية المدينة من الهجوم ومن شر الغارات عليها هم: الحثيون، والاراميون، وحصنه الرومان. وان هذا السور يحيط بالمدينة مثل احاطة الاسوار بالزند، وكان على شكل مستطيل مدور الزوايا، وتقع مساكن المدينة داخل السور، وتتالف من ابنية متباينة المنظر تفصلها عن بعضها ازقة ضيقة ليست بالمستطيلة ولا المستقيمة منها المسدود، ومنها ما يصل الى ابواب المدينة. ويوجد في المدينة سبعة ابواب: وهي باب المسدود ويقع شمالي القلعة، وباب التركمان وباب السباع يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، وباب الدريب وباب تدمر يقع في الناحية الشمالية الشرقية، وباب السور يقع في الناحية الغربية حيث كانت تعقد عنده صفقات البيع والشراء، واخيرا باب هود يقع في الناحية الغربية. وهذه الابواب فتحت في كل جهة من الجهات الاربع للسور. حيث تقع القلعة في الزاوية الجنوبية الغربيةوهي تشبه في طراز بنائها قلعتي حلب وحماه. وكان قد بلغ ارتفاع السور حوالي عشرة امتار، ويبلغ عرض حائطه حوالي اربعة امتار، وكله مبني بالحجر الاسود، وتوجد على السور ابراج بارزة وله فتحات ضيقة خصصت للجنود ورماة الاسهم والنبال، ويحيط بالسور خندق عميق يملاء بالماء في ايام الحروب لمنع العدو من الاقتراب الى المدينة.

الخلاصة:

تعتبر مدينة حمص المدينة الثالثة في سورية بعد دمشق وحلب في اتساعها واهميتها، وهي تقع في البادية شرقا ونافذة البحر غربا (وتكون فتحة طرابلس وتل كلخ) وهي في متسع عريض من الارض الخصبة الحمراء، وتشكل عقدة مهمة للمواصلات في سورية وما جاورها من الاقطار العربية.

وحمص لا يوجد فيها مباني قديمة متقنة تعود الى ما قبل الميلاد لتستهوي افئدة السياح وهواة الاثار كما في المحافظات المجاورة لها، وقد اكتسح العمران اكثر اوابدها الاثرية وكان اخرها الصموعة التي تسمى قبر قيصر والتي بناها شسيفر الثاني، والتي هدمت قبل الحرب العالمية الاولى. وان بقية ما تبقى من حجارتها الاثرية اقتلعها الشعب الحمصي وشيدوا فيه دورهم ومساكنهم هذا مما قضى على تاريخ واثار المحافظة وطمس معالمها الاثرية والعمرانية والتي تعد من اهم مدن المحافظات السورية التاريخية والاثرية.

محمد الفاكياني

دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

مصادر البحث:

ـ رحلة ابن جبير، طبعة مصر ١٩٠٨.
ـ رحلة ابن بطوطة.
ـ معجم البلدان لياقوت الحموي.
ـ مقدمة ابن خلدون.
ـ نشرة الأخبار الأثرية.
ـ تاريخ الخوري عيسى أسعد.
ـ الحوليات الاثرية، سليم زهدي، ١٩٥٦.
ـ مجلة العمران.



الزواج الصالح لا يقوم على أساس من الصراحة التامة، بل على أساس من الصمت الحكيم.

(موريس ارنست)

الحياة الثقافية

مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - بتونس

من أهدافها :

• خدمة القارئ العربي في كل مكان

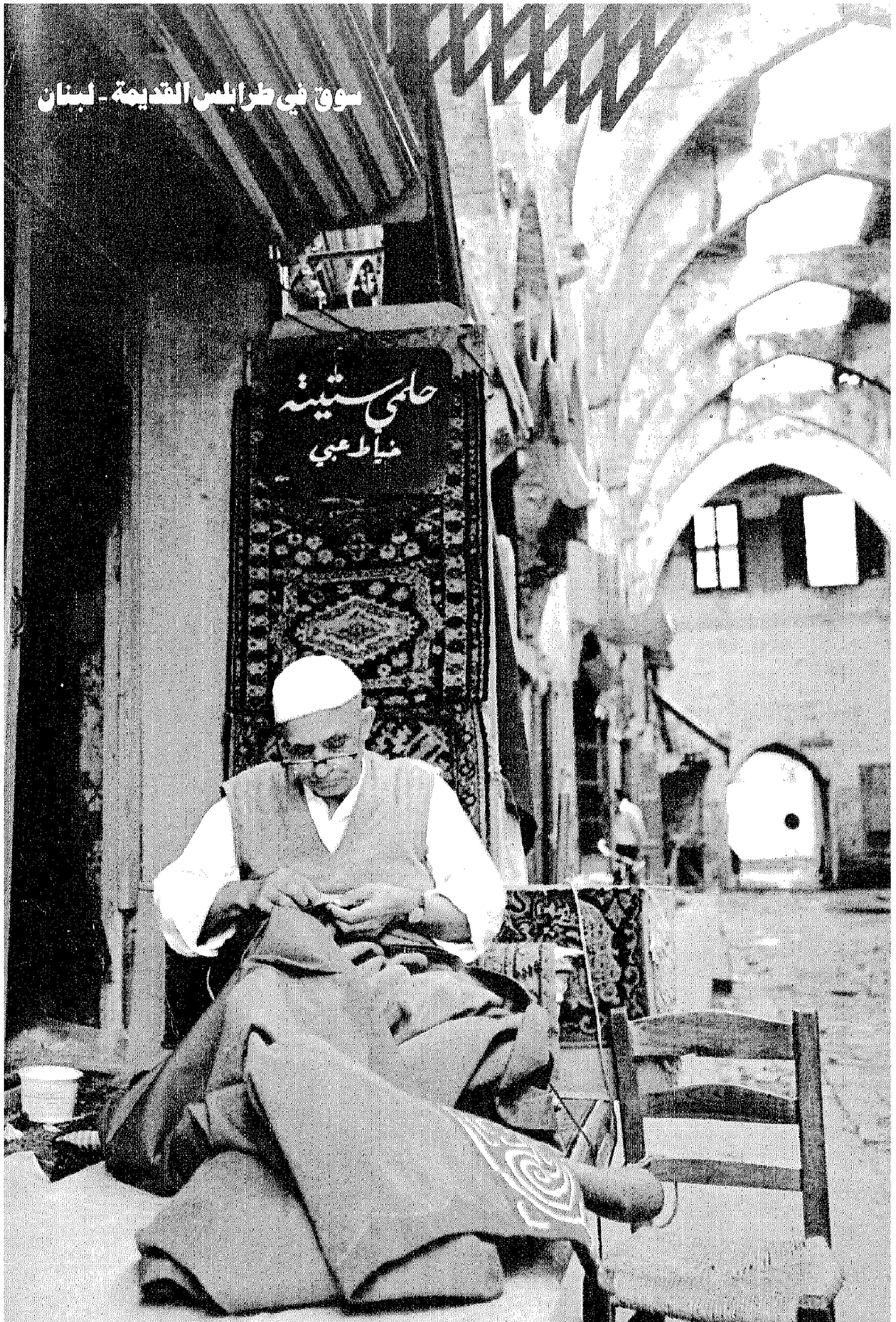
• المساهمة في تطوير البحث والإنتاج والنقد

• تقديم صورة صادقة عن الحركة الثقافية والفكرية في تونس .

العنوان : وزارة الشؤون الثقافية - القصبة - تونس

الهاتف : 263.819

الاشتراكات : عن ستة أعداد : 2,100 دينار تونسي أو ما يعادلها .



سوق في طرابلس القديمة - لبنان